أسمار

مهاب السعيد

للنشر و التوزيع

أسمار هي جمع (سمر)، والسمر هو حديث الليل في مجلس المتسامرين..

عم يتحدث الناس في الليل إذن؟

هل يتحدثون عن الغرام المنقطع؟ عن الملاحم الخالدة؟ عن النكات المازحة؟ أم عن دفء نيران الحنين؟

أتراهم يتحدثون عن القمر؟ عن الأطياب من الثمر؟ عن عذوبة الشتاء؟ عن نجوم السماء؟ عن رائحة البَكور من الندى؟

هل هم من المتأملين؟ هل يتساءلون عن سر الوجود؟ عن غموض لغز الروح؟ عن آلام السؤال؟ عن حدود المعنى والمآل؟

هل نحن بصدد أسمار الوجع؟ هل يتحدثون عن الحب؟ عن حسرات الندم؟ عن أذيّة الأمل؟ عن برد الشكوك بعد لذيذ اليقين؟

هل هم من النوع الذي يتساءل عن الحياة؟ عن مآسيها؟ عن مآثرها؟ عن الجمال الكامن في الناس؟ عن تخبطات البِشر والإياس؟

أسمار هي جمع (سمر)، والسمر هو كل ما تثيره شجون الليل في أفئدة المتسامرين..!

العصرية
للنشر و التوزيع

(+2) 0111 422 64 04
(+2) 0100 522 64 04
www.al3asrya.com
al3asrya@live.com
info@al3asrya.com
@al3asrya
/ al3asrya

978614425063

أسمار

اسم الكتاب: أسمار

المؤلف: مهاب السعيد

mohab.saeed.90@gmail.com

تصميم الغلاف: كريم حلمي

kareem.a.helmy@gmail.com

الناشر: المكتبة العصرية للنشر والتوزيع

٢٠١٧ - الطبعة الأولى

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢٥٠٦٣

ISBN

٩٧٨٦١٤٤٢٥٠٦٣

جميع الحقوق محفوظة

(+2) 0111 422 64 04
(+2) 0100 522 64 04

www.al3asrya.com

al3asrya@live.com
info@al3asrya.com

@al3asrya

/ al3asrya

العصرية للنشر والتوزيع

إهداء

To my Horcruxe

المحتويات

مقدمة ١٣
أن تكون بطّوط ١٤
حين ترى ١٦
محبّو السوسيس ١٨
كيف ننسى أحمد سامي؟ ٢٠
أواني الجشع ٢٢
لماذا أخطأ كافكا؟ ٢٤
الآباء المذعورة ٢٦
بائعة خلة الأسنان ٢٨
أمنية عدو الشمس ٣٠
الأنبياء ليسوا كالـ دلاي لاما ٣٢
قشعريرة ٣٤
خطة اللبّانة المُفتَرَضة ٣٦
أكواد مُحرّمة على الإسكيمو ٣٨

دُخلاء على الكوكب ٤٠

تفاحة رمضان ٤٢

مكابح السيرك ٤٤

اللوزة الحارسة ٤٦

اتزان ٤٨

لا تُبالِ ٥٠

الأوغاد ٥٢

عدد أولاد موسى عليه السلام ٥٥

قوانين البرتقال ٥٧

ماذا فعلوا بكِ يا سيدتي؟ ٥٩

الأنين ٦١

حين أصير رائعًا ٦٣

محاكمة الإبليس ٦٥

أصواتك الصاخبة ٦٧

سلطة العميان ٦٩

خدعة تحت المهاد المُخّي ٧١

جريمة النظارة السميكة ٧٣

رسالة من الكواركات ٧٥

الكاميرا الوقحة ٧٧

عبور خط الكاكاو ٧٩

أزهار السمك ٨١

غرفة تحكم ماجومبا ٨٣

الذهول ٨٥

احتضار النوستالجيا ٨٧

ما قد تتعلمه من البامبارا ٨٩

الملوّثون ٩١

بجانبك ٩٣

صورة جدي الغامضة ٩٥

في تمام الساعة التاسعة ٩٧

كيف تفسد البحتري؟ ٩٩

الذي لم يقتل مائة نفس ١٠١

أنت تنتمي ١٠٣

أنا آسف ١٠٥
الدَهْوَلة ١٠٧
دوافع الفوتورسيل ١٠٩
مساكين اللامبورجيني ١١١
الشاورما والدنانير ١١٣
مهندس الديكور الأحمق ١١٥
الفرار إلى سامرّاء ١١٧
قصور الكوتشينة ١١٩
المَلَل ١٢١
اختلاف ١٢٣
هانز السافل ١٢٥
سجود الفيزياء ١٢٧
أبسط الأشياء ١٢٩
رعب النشرة الجوية ١٣١
القرآن لم يذكر لايارتو ١٣٣
المثانة الذكية ١٣٥

٣٦٤ .... ١٣٧

الفرنسيون لا يأكلون التبّولة ١٣٩

عفة معشوق هوليود.. ١٤١

الأرض المسطحة ١٤٣

خواطر الشد العضلي ١٤٥

الهجرة إلى مدينة البط ١٤٧

شبيه الموز ١٥٠

العائدون من الموت.. ١٥٢

وديعة الحنان ١٥٤

سمكة مونزا الذهبية.. ١٥٦

أسباب الموت في أستراليا ١٥٨

أن تكون حزينًا باليابانية.. ١٦٠

بانوراما الغزال.. ١٦٢

استخراج ١٦٤

اقتلوا جودو.. ١٦٦

خلف أعمدة الإضاءة ١٦٨

على الطريقة الأمريكية ١٧٠

مغمضو الجفون في القطار السريع............................. ١٧٢

جراب الجلوكوز ١٧٤

معيار التيفال.. ١٧٦

عضلي أجوف.. ١٧٨

سر صلاح الدماطي... ١٨٠

التلاميذ ١٨٢

ميلودراما الإحصائيات ١٨٤

الكثير من عدم التأكد ١٨٦

عصر الخبز الليّن ١٨٨

حينها أفرح ١٩٠

الشرود في الدبابير... ١٩٢

الأعراض الفيسيولوجية ١٩٤

تحسّس الجماجم ١٩٦

الصفاقة ١٩٨

السكر في شاي قارون ٢٠٠

الحب في زمن الكليشيه ٢٠٢
لربما أنت لا تحب رمضان ٢٠٤
للبيع ٢٠٦
رئيس أركان العجز ٢٠٨
الملاريا وأنيميا الفول ٢١٠
عدني ألا تنسى ٢١٢
عنق أنبوبة الاختبار ٢١٤
الثقة في عقل سيد شحاتة ٢١٦
اعتذارات حقيرة ٢١٨
الأجزاء الصغيرة ٢٢٠
نَسَب الجبن الرومي ٢٢٢
ناصية محمد البغدادي ٢٢٤
كوليسيتا لونجياريو لاتا ٢٢٦

مقدمة

هذه الأسمار قد تجدها مختلفة في أشياء كثيرة.. فمنها الضاحك والعابس، منها الدسم والخفيف، منها ما سبق نشره ومنها الجديد.

ولكن يجمعها أنها قريبة إلى قلبي، أحببت أن أراها مجموعة في كتاب واحد، كتاب أرجو أن يكون مناسبًا للجميع، أرجو أن يضيف إليك شيئًا أو اثنين، ورجائي الأكبر هو أن يثير فيك الكثير من الأشياء.

حرصت في هذه الأسمار على الاختصار والإيجاز، كل فكرة تجدها معروضة في صفحتين، كوجبات بسيطة وسريعة.

وذلك لأننا حين نتحدث عن الإله، عن الإنسان، عن الحياة، أو عن المعاني المجردة، فإن الأفكار قد تتداخل، وقد تتشابك، وقد تتعمّق، ولكنها أبدًا ليست في حاجة إلى أن تتعقد أو تطول..!

أن تكون بطّوط

يعرف كتاب الروايات اليوم أن عصر الحداثة يتطلب أن تجعل بطل روايتك أميل إلى نوع الـAnti-Hero، مثل المتهور الأحمق أو مريض الربو الذي لا يستطيع أن يلاحق أي مجرم في الطرقات لأنه سيحتضر مع أول عشرين مترًا يجريهم، لأن هذا النوع من الأبطال قريب فعلًا إلي كل واحد منا. أنت لا تحمل بداخلك أدهم صبري الذي يجيد كل شيء من غسيل المواعين وحتى قيادة السفن الفضائية، في الواقع لربما أنت أقرب إلى بطوط، البط الكسول متقلب المزاج الأناني إلى حد كبير ولكنه طيب القلب حقًا ويرعى أبناء أخيه..!

برغم ذلك فهم يعرفون أيضًا ضرورة أن يملك هذا البطل شيئًا ما يستحق الحديث عنه، شيئًا يميزه عن باقي سكان الكوكب الذين لا تحب أن تقرأ قصة حياتهم لأنها ببساطة مملة..! لربما كان هذا الشيء هو المزيد من العلم أو الذكاء، لربما كان المزيد من سوء الحظ أو المصائب، أو حتى المزيد من الغباء..! أي شيء يجعل هذا الشخص مثيرًا للفضول.. ومرة أخرى هم يفعلون هذا لأن ذلك أقرب إلى الطريقة التي ينظر بها كل واحد منا إلى نفسه، والشعور بالتميز الذي نُكنّه لأنفسنا دون أن نعترف به.

كل واحد منا يظن بشكل ما أنه يستحق أن تُجرى معه لقاءات صحفية ويتحدث الناس عنه وعن أفكاره. إنها الحماسة التي تعترينا في اللحظة التي نجد فيها أمامنا مكبر صوت وجمهور من البشر يستمعون. إنه الشعور الذي وجدناه في أنفسنا منذ بدأنا نتعرف على الوجود. أنا مميز، أنا مختلف..! لذلك تجد الكثير ممن يشكو أنه لا أحد يفهمه، أو تجد تلك

المرأة وعلى وجهها ابتسامة ساخرة وهي في حفل صاخب، أو ذلك الرجل الذي يشرب قهوته في شرود فلسفي ما. هو يشعر أنه مختلف عن كل ما حوله، وهو صادق في ذلك..!

أنت تشعر أنك موجود، موجود جدًا لو صح التعبير..! في داخل وعيك الإنساني عالم متكامل من صنعك..! في هذا العالم الفريد قمتَ بتجسيد المعاني المجردة..! تملك تخيلًا عن شكل الاشتهاء متمثلًا في منظر وجبتك المفضلة على المائدة.. تعرف ما هي صورة الحزن، إنها تلك الصورة التي تراها حين تتذكر ذكرياتك المؤلمة.. تعرف ما هي أبعاد الحقيقة، إنها القناعات التي وصلت لها بخبرتك الشخصية..! في عالمك قمت بالرجوع بالزمن مئات المرات لإصلاح أخطائك، قمت بالتحليق في عوالم لم يفكر بها مخلوق، وخطبت بنت السلطان، وصارعت قراصنة الكاريبي، وقدت الجيوش ضد روميل..!

هذه هي الطبيعة التي خلقنا الله تعالى عليها، وعظمة الوعي الإنساني الذي اختصنا به، الشعور بالتفرّد والأهمية والمسئولية والطموح، القدرة على الحلم والأمل والتمنّي، إمكانية الاختيار والاعتبار وتمييز الصواب، إدراك الوجود وتمييز العالم والإحساس بالجمال..

هذا وعي عظيم إذن..! أعظم من أن ينتهي بسكتة قلبية ناتجة عن تراكم الشحوم، أو حادثة على طريق الساحل..! لا بد أنه سيستمر إلى ما بعد ذلك. من البديهي أن عملية إنشاء هذا الوعي العظيم من نطفة منيّ غبيّ، لم تكن بلا هدف ولن تمرّ مرور الكرام. من المؤكد أنه لن يُهمل ولن يُنسى ولن يُرحم من السؤال..! ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾..!

حين ترى

منظر مؤلم، أليس كذلك ؟.. بل من أكثر المناظر إيلامًا.. حين ترى أحد أبويك يبحث في كيس الدواء العملاق الخاص به.. ويضع جدولًا ليتذكر عمّا إذا كان ذلك الدواء يؤخذ قبل أم بعد الغداء.. الغداء المخصوص طبعًا والممنوع فيه الكثير مما كان يشتهيه.

حين تستمع إلى تأوهات متقطعة في كل مرة يحاول أن ينهض فيها من على سريره في الصباح.. تأوهات اعتادت عليها أذنك فلم تعد تعيرها اهتمامًا حيث يوجد الكثير منها.

حين ترى نظرته التي تحمل الكثير وهو يراقب حفيده يلعب سعيدًا بما يستقبله من الحياة الطويلة أمامه، بينما يفكر هو وتفكر أنت أنه على الأرجح لم يبق له من العمر الكثير.

حين تحاول جاهدًا تعليمه تقنية هاتفك الجديد، لتدرك بعد عناء أن الذكاء لا يمنع الشيخوخة.. وأنك تواجه الآن نفس عناءه معك في خمس سنينك الأولى.

حين ترى هذه الجلسة الثابتة، تلك البسمة الباهتة، ذلك الوجه العزيز المتجعد، والصوت المتهدج المتنهد، النظرات منهكة ولم تعد مفرحة، والمشية بطيئة متعبة مترنحة، القلب يكبر ويتسع، وبياضه إلى شعره ارتفع.

تتسائل في عجب : هل حقًا لم يستطع أبوك أن يفتح تلك العلبة؟! أم حقًا عجزت أمك عن تلقيم الإبرة؟! ما لي أرى روحًا تبهت؟ وصوتًا يخفت؟ وآلامًا في الصدر تنبت؟

تكبر قليلاً قليلاً ثم سرعان ما تدرك أنهما يكبران معك، وترى تلك الحقيقة المفزعة أمام عينيك .. أنك قد تفقدهما قريبًا..

تحاول أن تتخيّل كيف سيكون حالك حين تدخل البيت بعد أن يكون خاليًا؟.. أو كم هو مقدار الدمع الذي ستسكبه حين ترى مكانه المفضّل على الأريكة، الكوب الذي كان يشرب فيه الشاي، الهاتف العتيق الذي كان يتصل بك منه، فرشاة الشعر العزيزة، المصحف الكبير، حقيبة اليد التي لطالما أخذت منها مصروفك، والحذاء الذي حفظت صوت خطواته وهو يمر بجوار غرفتك..

تتساءل عن كنه ذلك المخلوق الذي يستطيع حلّ محلهما.. لما كنت تحاول أن تكذب على أحدهما فيبتسم في خبرة الفطن المتغافل، الذي نزلت دموعه من الفرح يوم نجاحك في تلك السنة العسيرة، وتجمدت نظرته في قلق عندما دخلت المستشفى لأول مرة في حياتك، الذي لما حكيت له عن أكبر أزمة نفسية مرت بك احتضنك في حنان عالمًا أنك مجرد مراهق، والذي لم ينم في أول رحلة مدرسية خرجت فيها منتظرًا في شرفته.

تكفكف دمعك حينها، وتغلق نور الصالة لأن أمك كانت حريصة على إغلاقه ليلًا دائمًا، ثم تغلق باب الشقة خارجًا عالمًا أنه قد صار أحزن مكان على وجه الأرض.. وأنه لم يعد بيتك..

بِرَّهُما قبل أن تندم..!

محبّو السوسيس

هل سمعت من قبل عن قبيلة (تاساداي)؟ كانت حديث العالم في السبعينات.. حيث أعلن (إليزيدا) وزير الثقافة الفيلبيني في ٨ يوليو ١٩٧١ عن اكتشاف قبيلة من العصر الحجري تحيا منذ مئات السنين في عزلة تامة، هذه القبيلة ليست فقط لم تعرف التكنولوجيا ولكنها لا تعرف أيضًا النحت ولا الأسلحة ولا الرعي ولا الزراعة ولا المنازل ولا حتى الملابس..! كان التاساداي رجال كهوف حرفيًا، يسكنون الكهوف ولا يسترون عوراتهم إلا بورق التوت، مع حياة مسالمة وعارية وفوضى جنسية كاملة.. كانوا يمثلون حلم العالم الغربي في السبعينات الغارق في شعارات الهيبيز والسلام والمخدرات والثورة الجنسية..

حاول علماء الإنسانيات من العالم كله زيارتهم ولكن الرئيس الفلبيني (ماركوس) اعترض على تلويث براءتهم بالتجارب والفحوصات وأقام لهم مستعمرة ضخمة مغلقة في أواخر نفس عام اكتشافهم، وفي ١٩٧٥ كتب جون نانس كتابه: (قبيلة تاساداي الوديعة) وبيعت منه أعداد مهولة.. وفي ١٩٨٦ استطاع صحفي سويسري التسلل للمستعمرة فوجد أفراد التاسادي يلبسون الجينز ويأكلون الأرز ويتاجرون في السوسيس..! اتضح أن هؤلاء ممثلون وأن الأمر كله خدعة من وزير الثقافة الذي هرب خارج البلاد بملايين الدولارات التي جُمِعت كتبرعات للحفاظ على نقاء التاساداي..

كانت الثورة الجنسية تجتاح العالم وقتها، فلا يوجد أيسر من انتشار فكرة تدعمها الهرمونات لو أخذت رأيي..! وكان الشباب يفكر أن النقاء الفعلي هو نقاء الطبيعة والفطرة

هي فطرة الحيوانات، ومقاومة الشهوة الجنسية شيء سخيف، وكانت التاساداي دليلًا على أن الإنسان كان ينعم بذلك السلام والتناغم الطبعي ولكن تلوث بالتابوهات والأديان، وبعد أن تبين أن التاساداي ليسوا إلا مجموعة شباب فلبيني يحبون السوسيس، تناسى العالم تلك الكذبة وكأنها لم تكن وتمسكوا بالفكرة وكأنه لم يتم (إحراجها)..!

هذا معتاد بالنسبة للخدع العلمية عمومًا، فلديك (إنسان بلتداون) الذي تم اكتشافه في ١٩١٢ ليمثل الحلقة المفقودة بين الإنسان والقردة العليا، ولمدة عشرات السنين تم اعتباره الدليل الأعظم على التطور باعتباره الحفرية الأقدم للإنسان العاقل، وبعد أربعين سنة ثبت أنه كان مُزيّفًا بالكامل..! لم يشعر أحد من أنصار التطور بالـ (حرج) وقتها.

أتذكر مثل هذه القصص في كل مرة يسألني أحدهم عن شبهة (رهيبة) تجتاح ذهنه عن الإسلام.. "انقذونا، فيديو لملحد يقول فيه أشياء مخيفة، لقد تذبذبت! يا إلهي! لقد تذبذبت للغاية! يا إلهي مرة أخرى.."! لا أدري ما سر شعور البعض بالـ (الحرج) من الدين بشكل أسرع بكثير من أنصار أي فكرة أيديولوجية أخرى؟! لماذا استسلم بكل هذه الوداعة عند أول نقاش، ولماذا يخجل من معتقداته بكل هذه السهولة؟!

اهدأ، تبيّن، تثبّت، ابحث، ثم تذكّر ..

تذكر من فضلك قول الله عز وجل: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾.. وتذكر أن خلوّ صدرك من هذا الحرج مسئوليتك الشخصية التي لا يشترك فيها غيرك.. وتذكر أنه لو كان غير المؤمنين بالله أشد يقينًا بكفرهم منّا بإيماننا، فتبًّا لنا جميعًا..!

كيف ننسى أحمد سامي؟

راكب الطائرة من لوس أنجلوس إلى الرباط يقضي عدة ساعات نائمًا على كرسيه المريح، وما إن يصل إلى محطته حتي يبدأ في التذمر، تخيل أني ثنيتُ ركبتي خمس عشرة ساعة في هذه الرحلة، ثم اضطررت إلى الوقوف ساعة أخرى في المطار حين وصلت..! فنبدأ نحن في الرثاء لحاله بحق، لقد تحمل الكثير بالفعل. هذا قبل حتى أن نعلم أن الوجبة التي كان يأكلها كانت باردة والقهوة كانت رديئة ولم يكن الفستق طازجًا..! لقد كانت هذه الرحلة أسوأ رحلة قام بها على الإطلاق..!

برغم أن الرحلة التي قطعها في شطر اليوم اعتاد إنسان ما قبل القرن العشرين على أن يقطعها في ستة أشهر على متن قطعة خشب بلهاء تدّعي أنها سفينة مع عواصف ليلية دائمة ودوار بحر لا يمزح، ففقرات عظامه تئنّ من البرد ليلًا ومعدته تغرق ملابسه بالقيء صباحًا، ومن آن لآخر ينزلق أحد أولاده إلى الماء، وفي النهاية، وباحتمالية ليست كبيرة إلى هذا الحد، تصل سفينته إلى وجهتها. لابد أنه سيكون وقتها قد نسي ما دفعه إلى القدوم إلى هنا..! لقد كانت هذه الرحلة أيضًا أسوأ رحلة قام هو بها على الإطلاق..!

أحيانًا تأتي الفتيات إلى استقبال المستشفى الجامعي بهبوط نفسي حاد في الدورة الدموية، جهازها العصبي الباراسمبثاوي لم يتحمل ألمها العاطفي فأعطى إشارة إلى قلبها أن يبدأ في التكاسل التدريجي المتعمد عن أداء وظيفته وينهي حياة هذه البائسة.. بسؤالها عن السبب تنظر لك بـ (صعبانيّة) وتقول: "أحمد سامي تركني"..!

ولكن ماذا لو لم يكن أحمد سامي تركها..؟ ماذا لو كان تزوجها وقضت معه أحلى قصة حب لمدة سنتين ثم أخذها في رحلة، وتوقف بسيارته على جانب الطريق حتى يشتري لها بعض الفول السوداني الذي تحبه فصدمته سيارة وهو يقطع الطريق لتستقر رأسه المقطوعة على حجرها وهي في السيارة..؟! ماذا ستفعل حينها..؟ جهازها العصبي لن يفعل شيئًا أكثر مما يفعله بها الآن..!

الفكرة أن الإنسان لديه مقدرة معينة على الحزن لا تتعلق فقط بالحجم الحقيقي لمصائبه ولكن بالطريقة التي ينظر بها إليها..! الطفل الذي يبكي بحرقة لأنه لم يخرج مع زملائه إلى رحلة دريم بارك يعيش نفس مقدار الحزن الذي تعيشه أنت حين تفشل في زواجك أو عملك، هو فقط لا يعلم أنه يبالغ الآن. لم يتعلم بعد كيف يصنّف أحزانه إلى درجات وألوان معينة حسب شدتها لأنه لم يذق مقدارًا كافيًا من هذه الأحزان..! مع الوقت يبدأ في التعلم، وبعد أن يكسر ساقه، ويفقد جدته، ويرسب في الاختبار، ويهاجر صديق عمره إلى ليبيا يبدأ في فهم متى يحزن ومتى يبكي ومتى يتضايق قليلًا ثم ينسى كل شيء..!

الحزن إذن هو ما يعلم الإنسان ألا يحزن..! تأتيه المصيبة فتتربع على عرش آلامه النفسية فلما يصاب بأعلى منها تنزل الأولى عن عرشها منهزمة وتصبح شيئًا عاديًا يتعايش معه بسهولة..! هذه هي الطريقة التي نعتاد بها على الإسهال والزحام والأرق والحذاء الضيّق ورياح الخماسين وتمزق الرباط الصليبي وكرسي الطائرة المؤلم وخيانة أحمد سامي.. أننا جرّبنا ما هو أسوأ..! إنها رحمة الله عز وجل القائل: ﴿فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾..!

أواني الجشع

حين تضطر إلى القيام بحركات (الكونج فو - وزن الفراشة) حتى تستطيع الوصول لسيارتك دون أن تغوص حتى كاحليك في مياه المجاري التي تحب أن تطفح في شارعك كل أسبوع على سبيل الهواية.. ثم بعد أن تركبها تجد أن هناك من رفع مساحات الزجاج، تخرج من السيارة لتنزل مساحاتك.. وبعد أن تستعد للرحيل بالسيارة، يأتيك رجل ظريف يطلب منك أجرة (رفع المساحات).. ويأخذ في تلطيخ زجاج سيارتك النظيف بقطعة قماش قذرة حتى تضطر إلى أن تعطيه مالًا ليتركك في حالك، لتفطن بعدها أنه رفع المساحات مرة أخرى قبل أن يرحل..!

لو سمحت لنا دول العالم بتصدير الاستفزاز لها في أوانٍ لصرنا من الدول الغنيّة جدًا.. الاستفزاز عندنا موجود بكميات غير محدودة وغير قابلة للنفاذ.. مثل ما تقوم به تايكونات شركات المحمول الضخمة ببطاقات شحنها التي في حجم وشكل إبهامك وتخدشها لتفاجأ بالأرقام مكتوبة بحبر باهت ضعيف لا يجيد التعبير عن نفسه..! والآن لك أن تتخيل، كم هي الملايين التي تدخل جيوب أصحاب شركات الاتصالات كل شهر، ومع ذلك يبخلون عليك ببطاقة شحن محترمة تستطيع رؤيتها بالعين المجردة..!

هذا الجشع المستفز لا تراه في الناس من حولك في المال فقط..! فأنت ترى ذلك الذي يقع في عشق فتاة جديدة كل سبعة وعشرين يومًا..! وتلك التي ملأت آخر ملليمتر مكعب من دولاب ملابسها، وترغب دائمًا في المزيد..! الكثير منا يعاني من الجشع.. قد تكونَ

واحدًا من هذا الجمع الكبير دون أن تدري..! قد يكون هناك شيء ما لا تقدر على أن تتوقف عن حبه، وعشقه، وإدمانه، وجمعه، والتعلق به، والتحسّر على ما فقدته منه..

المشكلة أننا سرعان ما نفطن إلى أننا لن نحصّل أبدًا القدر الذي نطلبه، وأننا طالما ارتضينا باتباع رغبتنا فلن نتوقف أبدًا عن الركض، ولن نحصل أبدًا على ما نريد..! ستسمع عن نصف نساء العالم اللاتي هنّ أجمل من زوجتك، وستسمعين عن معظم رجال العالم الذين هم ألطف من زوجكِ.. ستسمع أن هناك دائمًا الكثير ممن هو أغنى منك، وهناك طبعًا الكثير ممن هو أظرف منك.. معظم الطعام الشهيّ لن نأكله، معظم النكات الجميلة لن نسمعها، معظم الأطفال الظرفاء لن نراهم ..

هذه الرؤية الواقعية السوداء تمتزج بجشع رغبتنا في هذا الشيء أو ذاك، فتنتج حالة نفسية غريبة لا تتحمل معها مرارة فراق المفقود، ولا تقدر على ألم البذل والجود..! حالة نفسية غريبة هي مزيج من الخوف والقلق والتوتر، ممزوجة بالكثير من اللهفة والشغف والتعلق..! حالة نفسية غريبة جمعها القرآن في كلمة واحدة، ثم ذكر نتائجها: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

إنه تعلق كامل إذن..! ليس بوسعك أن تتخلص منه إلا بتعلق أقوى، وصلة أمتن، وحبلٍ أشدّ..! ليس بوسعك أن تتخلص من إدمان الجمع، وقلق السمع، وحب المنع، إلا بصنع شغف آخر أهم، واعتياد لذة أخرى أجمل.. ثم الدوام على هذه الصلة الجديدة..! فكانت الآيات التالية تقول: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾..!

لماذا أخطأ كافكا؟

الأديب التشيكي المكتئب الشهير (فرانس كافكا) كانت فلسفته الإيمانية بسيطة وصادمة للغاية: "الله موجود ولكنه شرير"..! وصدمتنا من هذه العقيدة يستدعي منّا أن نتساءل: لماذا نتعجب من إنسان يؤمن بذلك..؟!

ربما العجيب بالفعل هو ما يفعله بقية الفلاسفة والمفكرين الذين تخاصموا في القضية الفلسفية الشهيرة الخاصة بوجود الشر، منذ أبيقور وحتى شوبنهاور، كان الخصام الرئيسي بينهم هو كيف يسمح الله مطلق الخيرية بوجود شرور في العالم، فيتساءلون: هل الله عاجز إذن أو شرير كي يحدث ذلك؟!

من ثم انقسموا إلى من يؤمن بحكمة الله وعدله -وأحيانًا رحمته- من خلال الشرور، ومن يؤمن بعدم وجود إله أصلًا..!

رغم أن وجود الشر أمر مستقل عن وجود الله وكان الأقرب للمنطق هو الإيمان بعقيدة كافكا تلك عن الإلحاد بشكل كلي..! أم تُرى أن البشر مخلوقون بجهاز داخلي غامض مبرمج على أن الله لابد بألا يكون شريرًا ولا عاجزًا أبدًا..؟!

هذا شبيه بما يفعله بعض الناس حين يظنون أن في كتاب دينهم المقدس أخطاء علمية أو تاريخية، فيقررون أن هذا الكتاب ليس من عند الخالق، إذن فذلك الجهاز الغامض إياه يخبرنا أن الله لا يمكن أن يكون كاذبًا أو جاهلًا أيضًا..!

وطالما نحن في هذه المنطقة فيمكننا أن نعرّج قليلًا على جدلية (التصميم والتطور) حين يتجادل المؤمنون والملحدون في بعض الأعضاء البشرية وعمّا إن كان لها فائدة ما أم أنها عشوائية، من جديد فإن الفريقين كليهما يصرخ بداخله شيء ما يقول أن الخالق لا يمكن أن يكون عبثيًا كذلك..!

طِيب الله ورحمته وجماله وحكمته وقدرته وعلمه وصدقه هي من أكواد ذلك الجهاز الذي وجدناه في أنفسنا حين كنا بعد صغارًا لا نجيد جمع البرتقالات على أصابعنا وبرغم ذلك كنا مستعدين لفعل أي شيء (علشان ربنا يحبنا).. ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾.

نحن لسنا مفطورون فقط على وجود الله والحاجة إليه ولكننا مفطورون أيضًا على كل تلك الصفات التي يتصف بها الله وتجعلنا في اطمئنان كامل من أن تكون حاجتنا إليه..!

نحن غارقون في قبح النقص ولكننا خُلقنا مُبرمَجين على أن الله له جمال الكمال، نحن نعيش في حياة شريرة ولكننا نعلم أن خالقنا طيّب وسوف يعيننا على النجاة منها، نحن نرى دناءات البشر من حولنا فتذكرنا قلوبنا بأن الله أعلى وأجلّ..!

تذكر أن الله قد خلقك على أن تنظر إليه بتلك النظرة لأن نظافة قلبك من سوء الظن به أمر عظيم الأهمية عنده.. تذكر أن الله قد أوكل إليك مسئولية الحفاظ على تلك النظافة من أوحال الشك واليأس والجزع والتدلل عليه.. تذكر أن الله قد يكون غضبانًا عليك إن لقيته بنظرةٍ إليه مُلوّثة..!

الآباء المذعورة

أنت كطبيب تعيش أزمة متكررة ومملة في كل مرة تضطر فيها إلى الكشف على طفل صغير لما يراك قادمًا نحوه بالمعطف الأبيض ويبدأ في صراخ حاد وهلع حقيقي لا يتأثر بابتسامتك الشنيعة.. كل ذلك بسبب أن أم هذا الطفل ككل أمهات الأطفال قد اعتادت على أن تقول له في كل مرة يرفض فيها أن يأكل القرنبيط المسلوق الذي تعده: "سأحضر لك الطبيب كي يعطيك الحُقنة"..! إذن حضرتك أم كسولة قد قررتْ ألا تُحسّن من طهيها، ثم قررت ألا تتعلم أساليب تربوية جديدة أفضل من ذلك (الكليشيه) المحفوظ.

أنت سمحت لهم يا صغيري أن يقنعوك أنني أكبر خطر يهددك في الحياة، وظننت أنك ستكون آمنًا طالما ابتعدت عن كل طبيب وعن كل حقنة، لكنك ساذج جدًا.. ماذا عن المغتصبين والسفاحين واللصوص والسايكوباثيين الذين يستمتعون بضربك دون سبب..؟! وماذا عن أبلة لواحظ مدرسة الحساب التي ستلاحقك بخرزانة أسوانية لأنك لم تجلد الكشكول بالجلاد السمني..؟!

أبواك لطيفان يا صغيري فأخفيا عنك حقائق هذه الحياة.. قررا أن يقنعاك أن العالم مكان آمن لا داعي للخوف منه..! لقد فعلا ذلك فقط لأنهما مرعوبان بالفعل من كل شيء..! أنت تحسب أن الصغار هم من يخافون ولا تعلم شيئًا عن خوف الكبار..! مشاعر الخوف الحقيقية لم تختبرها بعد، ولكنك ستفعل.. حين تكبر سوف تتعلم الخوف من شرطي المرور بدفتره الصغير، سوف تتعلم أن تشعر بضربات قلبك حين تراقب أسعار السلع التي

اشتريتها على (الكاشير) في يوم قبضك لراتبك الهزيل، سوف تتعلم الفزع مع رقم ٤٢ الذي سيظهر على (الترمومتر) الخارج من حلق طفلك الصغير..

نحن الكبار نخاف جدًا يا صغيري، نخاف طوال الوقت.. الخوف المزمن هو معنى الحياة بالنسبة لنا، وتعريف (اليوم) هو مشقة وعناء القلق من الغد.. وما منا إلا وهو كذلك، ولكن يذهبه الله بالتوكل..

هذا الخوف مهم جدًا، بدونه كنا سنصبح جميعًا فراعنة.. أنت ترى كل هذا الجبروت في وجوه الناس، كل هذا الكبر، كل هذا الغرور.. تخيل أن كلهم يخافون مهما بلغت قوتهم وغناهم..! صاحب المليارات يكاد يجن من الهلع وهو يراقب حركة أسهم شركاته في البورصة، ورئيس أقوى الدول يموت من القلق على ابنه وإدمانه للمخدرات..! تخيل لو كان الله خلقنا في بيئة آمنة كيف كان ليكون تجبرهم وعنادهم..؟! كنا سنأكل بعضنا البعض يا صغيري.. إننا الآن سيئون، وبدون الخوف كنا لنصبح أسوأ بما لا يقاس..!

هذه المُكابدة التي تصيب كل أحد هي رحمة من الله علينا..! الخوف والقلق والمشقة والعناء والتعب، كل هذه أدوية يا حبيبي، يعالجنا الله بها، حتى نتعلم أن البكتريا تقدر علينا، والفقر يقدر علينا، والبرد يقدر علينا، والألم النفسي يقدر علينا، وظلم البشر يقدر علينا.. جميع نوائب الدهر تقدر علينا.. يعلمنا الله ذلك حتى لا ننسى ولو للحظة واحدة، أن خالق كل شيء ومدبر كل شيء بالفعل يقدر علينا..! هذا يا صغيري ما أخبرنا به الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾..؟!

بائعة خلة الأسنان

بالنسبة إلى الأم الشاب فمنظر نوسفيراتو خارجًا من تابوته بأنياب ملوّثة بالدماء لا يقارب في رعبه منظر طفلها الذي يجري ضاحكًا وعلى وجهه علامات النشاط في الثانية صباحًا..! تنظر له في هلع وهي تتخيل الساعات الخمس التي ستقضيها في محاولة إنامته..

سيقف حولها زوجها في سعادة بمنظر هذا الطفل الضاحك، وسيتلقفه بالأيدي مسرورًا، فقط لأنه يعلم أن هذا لن يؤثر لحظة في ساعات نومه التي سيأخذها بشكل كامل، يأتي الرجل ليلاعب طفله قليلًا ثم ينام، وتحمل الأم الطين على رأسها، وهو تشبيه معنوي، ولكنها ستودّ وقت تغيير الحفّاضة، لو كان التشبيه ماديًّا، وكان هذا طينًا فعلًا..!

لو كنت تظن أن هذه أصعب مرحلة تمرّ بها الأم، فلتتذكر من فضلك أنه ما زالت أمامها مرحلة [البيتادين] حين يفترض الطفل أن من واجبه أن يصاب في ركبته كل أسبوع مرة على الأقل، على أن يعوّض الأسبوع الذي لا يحدث فيه هذا بأن يكسر المزهريّة التي اشترتها هذه الأم المسكينة بمدخراتها الغالية قبل زفافها..!

ثم تأتي مرحلة [وعهد الله] التي يبدأ يشعر فيها الطفل بأن خيوط فطر العفن المتكونة فوق شفتيه تعطيه الحق في الصراخ والاحتجاج على كل شيء، ويبدأ في التعرف على مجموعة منحطة من الرعاع يجعلونها تسهر طوال الليل وهي تفتش في قلق عن زجاجة الخمر التي لابد هو يخفيها في جيب قميصه، أو الفتاة الماجنة التي يطويها في حقيبة مدرسته، حتى ولو

كانت قوانين الفيزياء لا تسمح بحدوث هذا، فهي قد اعتادت على أن المراهق كائن شيطاني خارق لن يستطيع العجوز نيوتن أو أرشميدس منعه من تحقيق أهدافه..

وهكذا ترى أنه لا يكون هناك سوى الأم لتحمل عناء هذا الطفل في مراحل حياته المختلفة التي يظل طفلًا في معظمها، فقط يتغير حجمه وتزداد كمية الطعام التي يحتاج إليها لكن تظل روحه طفلة بالنسبة لها، وخلال مشاكله ومتاعبه التي يمرّ وتمرّ بها لا تتخيله إلا في صورته الأولى، حين كان طفلًا يأتيها ضاحكًا وهي تحتاج النوم، فتنظر له في رعب، وتتحمل التعب في صمت، ولكنها لا تستطيع أبدًا التخلي عنه..!

وحين يصير ناضجًا أخيرًا يتخلى عنها إلى بيته الآخر، لينشئ أسرة أخرى، ويربي أطفالًا آخرين، وينجح في حياته ويتلقى المدح والثناء على إنجازاته وأخلاقه، دون أن يعلم أي أحد ذلك البطل المجهول الذي حول كائنًا أخرق تمامًا إلى كائن مسئول.. إن لم يكن هذا هو أكبر إنجاز في الحياة فلا أدري ما هو..!

دع الرجل يفرح بإنجازاته الصغيرة إذن، دعه يسير في الحفلات ليتفاخر بالبيت الذي بناه، وبالماشية التي سمّنها، وبالكتاب الذي كتبه فصارت أوراقه في كل بيت حول أقراص الفلافل، وبالشركة المساهمة الصغيرة التي أنشأها لبيع خلّة الأسنان..! دعه يشعر بأن له القيمة الأكبر، والمهمة الأعظم شأنًا.. دعه يحاول إقناع الجميع بذلك ويدّعي بأنه يهتم بالمرأة المسكينة التي ليس لها دور في الحياة إلا تربية أولادها كي تبدأ في المساهمة الفعليّة في المجتمع وتأتي لتعمل سكرتيرة في شركته المساهمة الصغيرة لبيع خلة الأسنان..!

أمنية عدو الشمس

كلٌ منا لديه أمنية ما يضعها نصب عينيه.. يظن أن حياته ستتغير تمامًا فقط لو أنه استطاع أن يحوز على هذه الأمنية أو تلك.. ينظر لصديقه الذي عنده ما يرغب فيه.. ويتساءل ترى هل هو يقدر النعمة التي هو فيها..؟؟ ألا يعلم أنه مستعد لفعل المستحيل في سبيل ما هو عنده..؟!

بينما لا تعلم أن هناك آخرين ينظرون لك قائلين في أنفسهم نفس الشيء..! هناك حتمًا من يتمنى من سويداء قلبه شيئًا لربما أنت تملكه ولا تدري كم هو نفيس إلى هذا الحد.

ماذا عن الألبينو (عدوّ الشمس) ذي البشرة باهقة البياض والذي يتمنى أن يحصل منك على بعض الخلايا الصبغيّة ..؟ هناك من يتمنى شريانًا تاجيًا أوسع قليلًا.. أو نسبة أقل من حمض البولينا في دمه فيحميه من أوجاع النقرس الذي لا يريد أن يترك أصبع رجله الأكبر في حاله أبدًا..! وهناك من يحقن نفسه بالإنسولين كل صباح متسائلًا كيف كانت لتكون الحياة لو كان عنده إنسولين طبيعي مثلنا..؟! كانت لتكون أسهل بالتأكيد.

كلٌ منا لديه أمنية ما.. ولا يعلم أنه قد حصل بالفعل على آلاف الأمنيات..!

فقط، كانت هذه أمنيات الآخرين..!

في المقابل فنحن نرى المنعّمين ولا ندري أنهم يعانون مثلنا وأكثر..

فالممثل المشهور الذي حاز الشهرة والمال والرفاهية، لربما هو واقع في إدمان حفنة من (الكوكايين) ونحن لا ندري، فنحسده نحن على ماله، ويحسدنا هو على العافية من ألم التعلّق والإدمان..! والمتزوج من أجمل امرأة في العالم لربما زواجه منها سبب تعاسته، لربما هي متكبرة أو متعجرفة أو سيئة الخلق أو يشك هو في سلوكها وإخلاصها له، من جديد هو يتمنى أن يحصل على زوجة غير جميلة ونأخذ منه زوجته..!

بطل كمال الأجسام ذو العضلات المنفوخة لربما يموت من جرّاء تضخم عضلة قلبه في النهاية، وعالم الرياضيات المشهور الذي يحسده الناس على ذكائه لربما هو مصاب بالوسواس القهري فيحيل حياته جحيمًا، وحاكم أقوى بلد في العالم ربما لا يستطيع النوم ويخاف على حياته في كل لحظة من أتباعه المقرّبين قبل أعدائه..!

لذلك قبل أن تنظر إلى أحد بنظرات الشفقة تذكر أن نعم الله عز وجل كانت أكثر من ذلك البلاء الذي تراه عليه.. وقبل أن تنظر إلى أحد بنظرات الغبطة والحسد ضع في الاعتبار كم الحرمان الذي لربما هو فيه مقابل هذه النعمة أو تلك..!

هذا هو ما أخبرتنا به الآية القرآنية: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.. فالله تعالى قد ذكّرك بأن اللُطف الإلهي في الحقيقة قد طال الجميع، وأنه لا يكسب أحد كل شيء ولا يخسر كل شيء..! ومهما كان نصيبهم من توزيعة الأرزاق، مهما كنت تراهم أوسع منك رزقًا أو أشد منك حرمانًا، في النهاية فالله قد لطف بنا وبهم، ونعم الله علينا جميعًا أكثر دائمًا من حرمانه..!

الأنبياء ليسوا كالـ دلاي لاما

يحكي (أنيس منصور) في كتابه (حول العالم في ٢٠٠ يوم) عن رحلته التي قام بها للقاء الدلاي لاما الرابع عشر (تينزن جياستو) زعيم التبت (وإلههم) والذي طردته الحكومة الصينية إلى الهند بعد احتلالها للتبت في أوائل الخمسينات والذي كان في وقت زيارة الأستاذ أنيس له شابًا ثلاثينيًا نحيلًا، يحكي لك كيف وقف الريفيون البوذيون البسطاء أمام شرفة الدلاي لاما بالساعات كي يخرج عليهم ليتمتم بكلمات غامضة سريعة ثم يرحل وكلهم هناء وسرور أن تفضّل عليهم الإله بالخروج عليهم من (البلكونة).

ثم يحكي لك الأستاذ أنيس كيف أنه قد نال شرفًا لا يتخيله أحد هؤلاء القوم بأن وضع الدلاي لاما يده على أرنبة أنفه في أول اللقاء، وبعد أن جلس، لاحظ الأستاذ أنيس أن ساق الدلاي لاما كانت مليئة بالدمامل وعليها آثار الحكّ، وهذا يعني أن يده المباركة التي وضعها على أنفه نقلت له كل جراثيم الدنيا..! وكانت هذه الذكرى المقززة من أقوى ذكرياته في هذا اللقاء.

دائمًا وأبدًا كان من عادة الدجاجلة على اختلاف دياناتهم، استغلال الدين للتمسّح بصفات الإله وادّعاء القدرة على دفع الضرر وجلب المنافع.. ومن الغريب أن أدعى الناس لفعل ذلك (الأنبياء أنفسهم) كانوا في حالة إنكار تام للذات، بحيث لم يدّخروا جهدًا في إقرار وتكرار أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم..! أنهم لا يعلمون إلا ما يُعلّمهم الله إياه.. أنهم مجرد بشر مثلنا مثلهم..

كما أمر الله عز وجل نبيه محمد ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.. هذا الفقر المطّرد، وهذا الاعتراف بالضعف، بسبب أنهم مجرد بشر، يفعلون ما يفعله البشر.

وكان لا بد من أن يكونوا بشرًا لأن بشريّتهم ستوقعهم في الخطأ..! وحينها سيتسنى لك أن ترى كيف يتعامل البشري الصالح مع الله عز وجل حين يخطئ، وكيف يتعامل الله معه.. سوف ترى كيف هي رحمة الله عز وجل وعفوه، وكيف هو خوف النبي ﷺ ورهبته من خطئه..!

لا بد أن يكونوا بشرًا محدودي القدرات كغيرهم من البشر: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.. لا بد من ذلك حتى ندرك من هذه الإمكانيّات المحدودة أنه وبرغم كونهم قد صاروا أنبياء إلا أن هذا لن يجعلهم أبدًا يشاركون أو ينازع الله عز وجل في ملكه، أو إرادته، أو قدرته، أو علمه..

لا بد أن يكونوا بشرًا ممّن خلق ليست لهم من المكانة والمنزلة عنده أكثر من أن يكونوا مجرد عباد صالحين له سبحانه.. لا بد من أن يكونوا كذلك حتى ندرك أن مكانتهم السامية بين خلقه، ومنزلتهم الرفيعة عنده، لن تعفيهم من أن يكونوا لله ذليلين، له منقادين، ليس لهم عليه سلطان، ولم يتخذ منهم أحدًا وليًا من الذل..!

كان لا بد للأنبياء أن يكونوا بشرًا، حتى نعرف نحن من هو الله حقًا..!

قشعريرة

لو كنت تسكن في مدينة ساحلية وكنت تقرأ هذا الكتاب في وقت الصيف فعليك أن تذهب إلى البحر الآن لتراقب الأطفال وهم يلعبون بطائراتهم الورقيّة.. انظر إلى هذه الطائرة، لماذا لا تسقط على الأرض..؟! هذا لأن قوة الرياح ومقاومة الهواء كانا أكبر في حالتها من قوة الجاذبية، بينما الرياح لا تستطيع أن تحمل جسدك ذا الثمانين كيلو جرامًا بهذه السهولة، في حالتك فقوة الجاذبية أكبر.. لكنك بالطبع لا تسكن في مدينة ساحليّة لأن الحياة ليست بهذا السخاء، وعلى الأرجح تقرأ هذا الكلام في الشتاء، لذلك انس كل شيء قلته..!

حين نشاهد الموجودات من حولنا في الحياة نلاحظ أن ثبات هذه الموجودات إنما يكون بفعل التوازن بين قوتين مختلفتين، الأرض تحب أن تطيش لتصطدم بالزهرة وتهلكنا جميعًا، لكن قوة الطرد المركزية الناتجة عن دورانها حول الشمس تمنعها من ذلك، وهي أيضًا تحب أن تحتضن المريخ من آن لآخر، إلا أن قوة جاذبية الشمس لها لا تسمح..!

حين تتفكر في صفات الله عز وجل وأفعاله بنا، فإنك تجد تأرجحًا دائمًا في حالتك الشعوريّة بين الإحساس بالتهديد والاطمئنان..! والجمع بينهما عسير عمومًا حين تتعامل مع واحد من البشر له صفات ناقصة فيغلب عليه إما الشدة أو اللين، أما مع الإله فإن رحمته كاملة وكذلك عزته، هو حليم إلى أقصى درجة قد تتخيلها وأعلى من ذلك، وإن عذابه شديد إلى درجة لا يتحملها بشر..!

هذا التأرجح الشعوري يصفه الله عز وجل في كتابه فيقول: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

إن المؤمن الكامل إيمانه يفترض أن يصاب بقشعريرة حين يسمع آيات الله عز وجل والتهديد الذي يملؤها، إنها قشعريرة حقيقية كتلك التي يصاب بها جلدك حين يفاجئك قط مذعور يجري نحوك في فناء بيتكم المظلم في ليل ساكن.. لكن ما أن تكمل سماع آيات الكتاب الحكيم حتى يتم استبدال هذه القشعريرة بلين كامل واطمئنان نفسي هادئ كذلك الذي تشعر به مع نسمات الصباح الدافئة والشمس المنيرة وحركة الناس إلى أعمالهم بعد أن قضيت ليلة سوداء مع رواية رعب بارعة قرأتها وأنت تسكن في البيت وحدك بدون سبب واضح.. كل شيء على ما يرام، الحياة هادئة وساكنة..!

هذا التردد الشعوري وهذه القشعريرة المتقطعة تنقلك باستمرار بين حالتيْ الترغيب والترهيب، يبقيك هذا في موضعك دون أن تطيش نحو اليمين أو الشمال، وبنفس الطريقة التي تبقى فيها الأشياء حين يؤثر عليها قوتان متضادتان في الاتجاه متساويتان في القوة..!

أنت في هذه الحالة أكثر اتزانًا وعقلًا واستيعابًا لحقائق الوجود.. أنت في هذه الحالة لا يغلب عليك اليأس العدمي (النِيتشَوِي) إياه، ولا يغلب عليك المرح البوهيمي المنحلّ، أنت تشعر بالخوف من أن تضيع حياتك في الاتجاه الخاطيء، وتشعر بالأمل لكونك تدرك

أن هناك أصلًا اتجاه صحيح..! أنت في هذه الحالة أقرب ما تكون لله عز وجل! حين تحب أن تخاف منه، ثم تخاف من أن يغرّك حبه!

خطة اللبّانة المُفتَرضة

في الولايات المتحدة نوع من الإعدام بالـ Lethal Injection أي الحقن القاتل، عن طريق مجموعة من الأدوية أغلبها منومات تُدخل المعدوم في النوم الذي لا يستيقظ منه.. المشكلة أني سمعت أحدهم يذكر أن القائمين عليه يقومون بمسح ذراعه أولًا بالكحول قبل تركيب (الكانيولا) القاتلة..! لم أصدق في البداية ولكني وجدت هذا الكلام موثّقًا بالفعل على ويكيبديا..! وظيفة الكحول في الحقن الطبي عمومًا هو تطهير الجلد من البكتيريا حتى لا يصاب المريض بالعدوى، والآن تخيل كمية السخرية في أن تحمي الرجل الذي تقوم بقتله الآن من أن يصاب بالعدوى أثناء العملية..!

التفسير النفسي الوحيد الذي وجدته لهذه المفارقة هو الهوس البشري العتيد بالـ (الخطة المُفتَرَضة).. دون أن نكترث أن هذه الخطة قد تكون سخيفة جدًا في وقت ما، أو لا معنى لها في موقف بعينه.. طالما الأمر يسير وفق الخطة فلا بأس..! لابد من أن تبدأ انتقادك لأحدهم بـ (مع احترامي لفلان) حتى لو كان مضمون كلامك هو الشرح لماذا هذا الفلان غير محترم أصلًا..! ولابد من شراء (طقم الصيني) قبل الزواج، ولابد من أن تقسم العروس لأمها بعد ذلك أنها لن تستخدمه أبدًا إلا في المرات القليلة التي تأتي فيها ملكة بريطانيا إلى بيتها للعشاء..! لابد أيضًا من (اللبّانة) في طقم الشاي، برغم أني لم يقدم لي

طوال حياتي الشاي بجانب اللبّانة في أي بيت أزوره..! فلابد إذن أن الملكة إليزابيث المحظوظة هي من تنال وحدها هذا الشرف..!

الخطط المفترضة ليست منطقية على الإطلاق، والمشكلة الحقيقية معها هي أنه بالإضافة إلي الخطط العامة، فإن كل إنسان لديه مجموعة خاصة به منها، سيتصرف هو ويحاكمك أنت بناءً عليها، وحين تتعجب من غياب ضميره في هذا الفعل الشرير أو ذاك ستفطن إلى أن ضميره قائم كله على أساس خططه المفترضة. والتي معظمها مجهول لديك بالمناسبة..!

لذا فالإسلام قد حذّر من أهم وأخطر أنواع هذه الخطط المفترضة وسماها: (الهوى).. وبيّن لك كيف أنه يدفعك إلى الاعتقاد بأن كل أحكامك على أفعالك وعلى أفعال الناس رائعة للغاية..! وكيف أنه يؤدي بك إلى الإصرار على السقوط في بركة الوحل بينما على وجهك ابتسامة بلهاء.

وفي طريقة التخلص منه، لم يطالبك بأن تتخلص منه..! لأن هذا ضد الطبع البشري أصلًا، سأظل أنا وأنت دائمًا، لنا تفضيلات وافتراضات، ومخططات ومنطلقات، ومقاييس خاصة نحاكم بها أنفسنا وغيرنا، لن نستطيع أبدًا أن نقتل كل خططنا المفترضة ..

ولكن الإسلام يطالبك بأن تنزل من عليائك، وأن تنزل عن ذلك العرش الذهني الذي نصبه كل واحد منا في ذهنه فوق الناس جميعًا ثم تربّع عليه، تنزل من هذا العرش المزيّف وتتخلى عن السلطة، وترضى بأن تنقاد بذلك الشرع..! يطالبك بأن تعيد برمجة جميع خططك حتى(تتبع) هذا (الكود) الجديد.. يطالبك بأن تتحمل آلام فعل كل هذا، وبأن

يصير هذا الألم بعد ذلك عندك لذة..! يطالبك بأن تحقق مراد النبي ﷺ منك حين قال: "لاَيُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعَاً لِمَا جِئْتُ بِهِ"..!

أكواد مُحرّمة على الإسكيمو

اليابانيون يرون أن المرأة الجميلة لا بد أن تكون دقيقة القدمين وضيّقة الخطى، ويُفضّل أن تكون قصيرة القامة.. الأمريكيّون يختلفون في الرأي بشدة، فالمرأة الجميلة لديهم طويلة القامة وشقراء.. ومعنى هذا أن المرأة الأمريكية الجميلة لن تساوي أربعة جنيهات في دول وسط وجنوب أفريقيا الذين يعتبرون صفار الشعر عيبًا أو عقابًا إلهيًا، في المقابل هم يعشقون المرأة شديدة سواد البشرة التي تدل على جمال أصلي المنشأ، وعرق شديد الصفاء.. الإسكيمو لن يبالوا بكل هذه الأشياء لأن أصل الجمال عندهم في الرائحة..!

لم نتفق على مواصفات تفصيليّة واضحة للجمال إذن.. المسألة نسبيّة في معظم هذه التفصيلات..

بالمثل يمكنك أن تجد مواصفات (الظرافة) تختلف من ثقافة لأخرى، السينما الألمانية الصامتة، والـ(سيت كوم) الأمريكي، والـ(ستاند أب) البريطاني، والمشخّصاتي المصري.. كل هذه وسائل قد جادت بها المخيّلة البشريّة لإضحاك الناس.. اختلاف الثقافات لا يعني فقط اختلاف (الخلفيّة) المفترضة للنكتة، ولكن أيضًا يعني الاختلاف الكبير في الوسيلة

المفضّلة لتلقّيها.. مرة أخرى نتعامل مع مسألة كنا نظن أنها عالميّة الذوق ثم تبين أنها نسبية تمامًا..!

العديد من الأشياء التي تعتبرها مقاييس عامة ومتفق عليها للأشياء يتبين لك ببعض التأمل أنها في الحقيقة عامة فقط في المحيط الذي حولك..

بينما بالفعل قيم الحرية والصدق والوفاء والعدالة والعطف على الفقير والإحسان إلى الناس هي قيم مشتركة تمامًا بين جميع البشر، إنها شفرة مكتوبة بعناية يسير عليها كل هؤلاء دون خلاف يذكر..

فيمكن أن يشكك بعض الذين نكّسوا فطرتهم في أي شيء، يمكنهم أن يقنعوا الناس بعبادة الفئران كما يفعل كهنة معبد (كارنيماتا).. أو بأن يقتلوا أنفسهم لإنقاذ البشرية وجلب التوازن للعالم كما يدّعي أنصار الـ Euthansia ، أو بأنه لا توجد مشكلة في أن نقوم بإخصاء ضعاف العقول والفقراء والأغبياء من أجل مستقبل أفضل للبشرية كما يزعم أنصار اليوجينيا.. أو بأنه يجب عليك أن تترك منزلك وأسرتك وتعيش في الشوارع وتتعاطى المخدرات كما يؤمن الهيبيز..

وبرغم هذه القدرة الهائلة من البشر على إفساد كل شيء جميل، إلا أن أحدًا من هؤلاء لن يجرؤ على أن يشكك مثلًا في قيمة العدل بمعناه المطلق، أو يدّعي أن علينا أن نكون ظالمين..! مهما بلغت غرابة معتقداتهم، لا يمكنهم أن يتملّصوا من هذه القيمة مثلًا التي أخبرنا القرآن عن أن الله عز وجل قد جعلها سائدةً في الأرض يوم خلقها..! كما قال

سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾..! ومثلها قيم الحق والإحسان والخيرية المطلقة والرحمة بالضعيف وأداء الأمانة وإتقان العمل.

يمكنك أن تتخيل إذن أهمية هذه القيم عند الله عز وجل حتى يجعل أكوادها محميّة بهذه الطريقة وبهذا التنزيه عن أذواق العابثين حين خلق الله الأرض وما عليها..!

دُخلاء على الكوكب

رأيتُ شابًا يرتدي كنزة صيفية قصيرة الأكمام في البرد القارص.. في الحقيقة ليس لدي مشكلة مع هذا فأنا أؤمن بالحرية الشخصية، لكن المشكلة أنه كان يبدو سعيدًا جدًا بنفسه..! إذن أنت لا تشعر بالبرد. أين الإنجاز؟! هذا يعني على الأرجح أن أعصابك الحسية ليست على ما يرام، أو أنك مشبّع بمواد كيماوية معينة.

أحيانًا أشعر أن الإنسان كائن دخيل على بقية الكائنات في الكوكب، كل الكائنات من حوله تتأقلم تمامًا مع ظروفها، بينما نحن نحتاج إلى الكثير من الضبط والتغيير..! فأنت ترى الدبة القطبية تعيش في درجات حرارة أسطورية دون أن تحتاج إلى معطف صوفي أو جورب شتوي من (قوطونيل).. وترى الثعلب الاستوائي يعيش في مناخ مجرم في حرارته دون أن تبدو عليه أعراض الـ (فرهدة) التي نراها على أوجه الناس في (أتوبيسات) شهر يونيو..! وبالطبع لم تُجرّب سمكة القرش أي أطعمة أخرى بخلاف الـ (سي فود) دون أن تشعر بأنها بحاجة إلى كوب شاي أو حلوى جيلاتينية ما لتغيير مذاق الفم..!

أظن والله أعلم أن البكتيريا لا تُصاب بالانهيار العصبي، وأن صرصور الحقل لا يشعر بالوحدة وبأنه لا أحد يفهمه في العالم..! أحسب كذلك أن إجراءات الزواج بين عصافير الكناريا لا تشتمل على زيارة (دمياط) ولا دهانات (يوتن).

الفكرة أننا كبشر نعاني من (الاحتياج) أكثر بكثير من أي كائن آخر، دائمًا هناك شيء ما نحتاجه كي نبقى على قيد الحياة، ثم هناك أشياء أخرى نحتاجها حتى نشعر بكمال الرفاهية التي نحتاج إليها، وعندما تُلبّى كل رغباتنا نقوم بابتكار عادات وحاجات جديدة، ونبكي عندما لا نحصّلها..!

هذا يتفق فيه الجميع بالمناسبة، فصاحب أعلى شهادة علمية في الفيزياء التجريبية يحتاج إلى سخان ماء في حمامه، وصاحب النصيب الأكبر في أسهم سلسلة مطاعم (ماكدونالدز) يحتاج إلى (ملّاحة) على سفرته، وكلًّا من (بوتين) و(ميريكل) يحتاج إلى صديق أو حبيب حتى يحتفظ بمستويات الدوبامين والسيروتونين اللازمة كي لا يُصاب باكتئاب حاد..

إذن من بين سكان الأرض نحن الأحوج والأنقص والأضعف..! نحن أكثر الكائنات امتلاكًا لخلل واضح في ملكيتها لأنفسها..! لو كان أذكى كائن في الأرض بكل هذه المسكنة وقلة الحيلة، فنحن نعيش إذن في غابة مليئة بالكائنات المسكينة غير المسيطرة، وأشدهم مسكنةً هو - يا للعجب - أكثرهم غرورًا..! هذا وحده كفيل بشعورك بوجود إله فوقك كما قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾..؟!

تشعر بالله جدًا وتتذكره حقًا عندما تتأكد من أنك لا تعلم أي عنوان سكن لكائن يملك أمر نفسه فضلًا عن أن يملك الأرض ومن فيها..! حينها تفهم أن هناك إله مالك.. إله متصرف في ملكه.. إله ليس لنا أن نحاسبه أو نراقبه، بل نسجد ونذل ونخضع له.. ونعبده طوال عمرنا في خوف ورهبة منه، ونموت ونحن نوقن أننا لم نعبده حق عبادته ..

لا نفعل ذلك تطوّعًا منا أو فضلًا.. بل لأنه ليس لدينا خيار آخر..!

تفاحة رمضان

لم تكن لي بالأستاذ محمد المصري علاقة قوية خاصة، في أثناء حياته رحمه الله كنت كلما تذكرته تذكرت عتابه لي على خطأ علمي أو لغوي وقعت به عقب أحد الدروس في المسجد، لم تكن هناك أبدًا ضغينة، ولكن لسبب ما كانت هذه أقوى ذكرياتي له.

عندما تُوفي رحمه الله في حجّه في حادث منى ٢٠١٥ صرت أتذكره كثيرًا، ربما أكثر بكثير مما يحتمله المنطق الرياضي بالنسبة لمدى علاقتي به، أتذكر هذه المرة تفاصيل أكثر كنت قد نسيتها، عندما كان يوزع (بواكي) البسكويت على زملاء يحيى ابنه في المدرسة الإعدادية وأنا منهم طبعًا، وعندما أبهرني بالكوب الفخاري السحري الذي يتلون حين تضع أي شيء ساخن به، وعندما كان يغرق الجميع بتفاحه الأحمر بعد القيام في رمضان.

كنتُ أقرأ لعالم وراثة مصري وأعجبني أسلوبه للغاية ولكني كنت أنتقده في كثير من الأشياء، وعندما أنهيت له أول كتاب قرأت سيرته الذاتية فوجدت أنه قد مات في ٢٠٠٦

إثر إصابته بجلطة مخية حين كان يشاهد صور موتى أطفال لبنان بعد القصف الإسرائيلي إياه..! كم واحدًا تعرفهم قد قتله وبشكل حقيقي فعلًا حزنه على الأطفال..؟! فلما بدأت أقرأ له كتابه الثاني كنت أشعر أني أقرأ لجدي، لم أعد أتضايق كثيرً من اختلافاتي معه.

نفس ما يحدث حين أتذكر صديق طفولتي: معتز، والشهير بـ موزة، فقبل موته لم أكن أتذكر له إلا أنه لم يمرر لي الكرة قطّ في المباريات.. بينما بعد موته تذكرت كم كانت أسنانه المفلّجة جميلة حين كان يضحك.

الأموات طيبون، الأموات رائعون، الأموات لم يفعلوا لنا شرًا قط..! هكذا ينظر معظمنا لهم، هكذا نؤمن وهكذا نفكر، وفي اللحظة التي قد ننسى فيها أو نتناسى معظم وصايا النبي ﷺ، فإننا لا ننسى بسهولة أن نذكر محاسن موتانا.. عليك أن تكون أغلظ قلبًا مما تتخيل حتى تستطيع بسهولة أن تكره رجلًا قد مات طيبًا.

لماذا يحدث ذلك؟ هل لأنهم لن يؤذوننا ثانيةً؟ أم لأننا نشعر بالشفقة لحالهم؟ أم أننا ببساطة نشتاق لهم؟! أظن أن السبب الأكبر أننا أغلقنا آخر صفحة من كتابهم وأخذنا في النظر بعين الطائر على ما تركوه لنا فوجدنا أنه جميل.. مثل القمر الذي نتغنى بحسنه ولو اقتربنا منه لوجدناه مليئًا بالحُفر والصخور.. مثل البحر الذي نعشق أمواجه ولو كنا بداخله لوجدناها مليئة بمخلفات الأسماك وبقايا الطحالب..

نحب الأموات لأننا نظرنا لحياتهم بشكل مكتمل فوجدناها طيبة رائعة جميلة، أغلقنا الكتاب فوجدناه براقًا ملونًا سميكًا ذا رائحة طيبة، ولم نعد نرى (شخابيط) الأطفال وبقع

القهوة الموجودة تقريبًا في كل صفحة منه.. لو فعلنا ذلك مع الناس جميعًا قبل أن نفقدهم، لو عاملنا الجميع بنفس المنطق ونظرنا إلى أفعالهم بشكل جمعي متكامل، لو طبقنا فيهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الفَضَلَ بَيْنَكُم﴾، وقول النبي ﷺ: "إِن كَرِهَ مِنهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنهَا آخَرَ"، لو اعتدنا أن نداوم على النظر إلى غلاف الكتاب قبل صفحاته، وإلى جمال بياض ورقه قبل بقعاته، لربما حينما ننظر إلى أحدهم في حياته فنتذكر كم هي ابتسامته مشرقة، كم هو حنانه جارف، كم كانت شهيةً تلك التفاحة الحمراء التي أخرجها لنا في إحدى ليالي رمضان..!

مكابح السيرك

القرود في مختبرات البيولوجيا والوحوش في السيرك وحتى الأطفال في سنين التربية الأولى يتم توجيه سلوكهم وتصرفاتهم وتوجهاتهم العامة عن طريق التشجيع في اتجاه واحد، بحيث يحصل على تقدير ومكافأة حين يقوم بالفعل المطلوب في صورة موزة أو قطعة لحم أو بعض الحلوى.

ومن حسن وسوء الحظ فهذه طبيعة نفسية في الإنسان تصاحبه حتى بعد أن يبلغ من العمر السنين الكثيرة، فإعجاب من حوله بسلوك ما يجعله لا يتوقف عن فعله ويستمر في سلوك الأفعال المشابهة، لذلك تجد صديقك (الألّاش) لن يتوقف عن هذا النوع من المزاح أبدًا طالما يسمع الضحكات مهما أكد له الجميع أنها ضحكات استخفاف، وصديقك المتعالم

لن يتوقف عن ادعاء الثقافة طالما وجد نظرات الانبهار برغم علمه بأنهم ينبهرون بشخص مزيف..!

الإعجابات المادية والمعنوية من الناس الذين يحيطون بك تعني أنك تندمج مع من حولك، ونحن مخلوقون على حب الاندماج والتآلف وقبول الآخرين لنا.

هذه هي الطريقة النفسية التي خلقها الله عز وجل للإنسان كي يتوافق ويتشابه اجتماعيًا مع من حوله، فيمكننا بها أن نصبح شعوبًا وقبائل لنتعارف، بدلًا من أن نصبح متنافرين على قدر مزعج من الاختلاف.

وككل دواء له أعراضه الجانبية، وككل استراتيجية لها مخاطرها الخاصة، فإن هذه الحاجة النفسية الموجودة لدى الجميع تحتاج منك إلى تركيب مكابح (فرامل) خاصة تمنعها من أن تقودك إلى اتجاه يرغب به الآخرون ولا ترغب به أنت..!

مكابح تمنعك من أن تشعر بالرضا عن نفسك فقط لأن الآخرين راضون، أو أن تشعر بالخجل فقط لأنك خالفتهم في أمر أو أمرين.

مكابح كتلك التي أمرنا بها الله عز وجل حين قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾ أو كتلك التي ذكرنا بها النبي ﷺ حين حذّرنا من أن نكون إمّعة تحسن حين يحسن الناس وتسيء إن أساؤوا.

وككل مكابح، لا نقوم بتشغيلها إلا عند الحاجة، خصوصًا إذا أحطنا أنفسنا بالنوع الصحيح من البشر، إذ إن توجيه الناس من حولنا لسلوكنا هو الوسيلة الأسرع لأن نصبح أفضل.

لا نحتاج إلى هذه المكابح في كل حين إذن، ولكن نحتاج إليها فقط حين نشعر أن هويتنا يتم سرقتها منّا أو تزييفها، حين نشعر أننا لم نعد نتعرّف على أنفسنا بسهولة، حين نفطن إلى أن السبب الذي أوصلنا إلى هذا الشاطئ ليس هو إبرة بوصلتنا الشخصية ولكن لأنه كان طريقًا أيسر في الإبحار وأقل في المقاومة وأسرع في الاندماج..!

لذلك دائمًا وأبدًا ستظل من أكبر التحديات التي ستواجهك في الحياة أن تدخل إليها وتخرج منها إنسانًا أفضل، ثم لا تكون بعد ذلك إلا نفسك..!

اللوزة الحارسة

مشكلة الطب عندما يُقرأ بالعربية أنك تتعرف على ترجمة الكلمات اللاتينية الأنيقة التي كانت تملأ كتب التشريح لتكتشف أنها في الأصل ليست بهذه الأناقة..! فتجد أن مخ الإنسان مثلًا فيه البصلة Myelencephalon والصنوبر Pineal body واللوزة Amygdala .. اللوزة والبصلة والصنوبر توحي أنك في الواقع في محل بقالة..!

أصغر الأعضاء المذكورة، وهي الأميجدالا، مسئولة وظيفيًا عن شعورك بالهلع والاضطراب..! وهي السبب في كون المرأة تجد أحيانًا وحشًا في غرفة المعيشة المظلمة له

جسم كروي وثلاثة أذرع وصوت خوار، فتفزع وتصرخ قبل أن تدرك بعد أجزاء من الثانية أن هذا ابنها الحبيب الذي يشرب المياه الغازية ويتجشأ وهو يحك بطنه العملاق..!

هذا لأن الأميجدالا وصلتها المعلومات مرتين، مرة بشكل سريع وغير دقيق عبر المهاد المخّي، ومرة بشكل أبطأ وأكثر دقة عن طريق قشرة المخ الأكثر اتزانًا وهدوءًا واستيعابًا للموقف.. فالأميجدالا تدرك أنك في موقف خطر الآن وبناء عليه تتخذ وضعيّة الهروب أو التصرّف، حتى أنها تخاف قبل أن تدرك ما هذا الذي تخاف منه..! هذه الحساسية المفرطة من الأميجدالا تحمينا من أدنى احتمالية لأن نتأذّى على حين غفلة.

غير أن هذا غير كافٍ في الحماية، فلو لاحظت لوجدت أننا لا نعيش فوق الشجر، حيث الخطر لا يُشترط أن يكون غريزيًّا دائمًا، بل هناك خوف لابد لك أن تتعلمه..! لابد لك أن تفهم أن الكهرباء مؤذية قد تقتلك، وأن الرسوب في الامتحان قد يتسبب في ضياع عام من عمرك، وأن جمهور المستمعين قد يلفظك بعد ذلك إن بدوْتَ أمامهم متلعثمًا. هناك من الخوف ما هو مهم لنا أن نتعلم أن نشعر به..! هذا ضروري لنا حتى لا نتأذّى -وبرغم وعينا بالموقف- عن جهل من أن هذا أو ذاك قد يؤذي. ومرة أخرى فالأميجدالا هي المسئولة عن هذا أيضًا، عن تعلّم واكتساب الخوف بواسطة بروتين (ببتايد المفرز من الجاسترين) : GRP..

ولكن عملية تعلم الخوف التي كان الغرض منها الحماية لربما تسببت أيضًا في قلق غير مبرر، أو هلع زائد عن الحد..! حتى الخوف الغريزي منه أيضًا ما نحتاج إلى أن ننساه، فأنت

مفطور على الخوف من ذوات الأنياب، لكن تحتاج إلى أن تتعلم ألا تخاف من الكلب الذي اتخذ – رغمًا عنك – مدخل بيتكم سكنًا دائمًا له.. لذلك خلق الله عز وجل لنا وسيلة لنسيان الخوف.. شفرة كمبيوتر تمحي تركيبة العواطف المعقّدة التي تسببت في هذا القلق.. ومرة ثالثة أودع الله عز وجل هذا السر في الأميجدالا، وفي مستقبلات NMDA الخاصة بها..!

إذًا اللوزة الصغيرة الموجودة في منطقة ما من مخك تقوم بحمايتك جسديًا واجتماعيًا ونفسياً دون أن تشعر..! تقوم بالمحافظة عليك من أقل الأخطار، وتعلمك ما هي هذه الأخطار، وتجعلك تنسى الخوف من الأخطار الزائفة..! نوع من الرعاية لا تراه، ولكنه قريب منك جدًا..! رعاية تصلح كمثال على رعاية الله عز وجل لنا، تصلح كدليل على أنه لم يهملنا، تصلح كتذكير دائم لنا بمدى قربه منا سبحانه القائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾..

اتزان

في عام ١٧٩٨ نشر القسّ الإنجليزي (توماس روبرت مالتوس) كتابه الشهير: مقالة عن السكان، قال مالتوس أن أعداد السكان تتزايد في العالم بشكل رأسي، بينما تتزايد الرقعة المزروعة فيه بشكل أفقي، ومن ثمّ –حسب مالتوس– سيأتي على البشر زمان يتقاتلون فيه من أجل لقمة العيش. كلام جميل، غير أن مالتوس كان مخطئًا في ثلاثة أشياء.

أول هذه الأخطاء أنه أساء تقدير القدرة الاستيعابية للأرض، فحسب مالتوس مثلًا لا يمكن أن تستوعب الجزيرة البريطانية أكثر من عشرين مليون إنسان.. بينما بعد صدور كتابه بمئة وخمسين عامًا استوعبت الجزيرة البريطانية ثلاثة أضعاف هذا العدد..

الخطأ الثاني كان الافتراض القائم على أنه طالما نحن نزداد في العدد الآن فسنظل نزداد إلى ما لا نهاية حتى يأكل بعضنا بعضًا..! علماء الإحصاء الآن يتحدثون عن نظرية بديلة، فكما يقول عالم الإحصاء السويدي (هانز روزلينج) فإن هناك انخفاضًا شديدًا حدث بالفعل في أعداد المواليد منذ ١٩٨٠، والسبب الذي يجعلنا لا نشعر بهذا الانخفاض، بل نشعر بالزيادة، أننا نعيش الآن ما يسمّى بالفجوة الإحلالية الكبرى، وسببها انخفاض معدل الوفيات.. وهذا سيؤدي بنا إلى الوصول إلى رقم عشرة مليارات ومن ثمّ يغلب الظن أن عدد البشرية سيثبت ويتوازن تقريبًا على ذلك خلال الثلاثين سنة القادمة.

على أن الخطأ الأكبر الذي وقع فيه مالتوس في توقعاته، أنه توقع الزيادة الغذائية ستكون بطيئة خطية تزداد بشكل أفقي فقط رغم أن التطور الكبير الذي حدث في التكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية فيما يعرف باسم الثورة الزراعيّة أتاح للبشرية أن يحصلوا على أضعاف الإنتاج الغذائي من نفس المساحة الزراعية..!

على سبيل المثال اجتاحت أيرلندا في أربعينيات القرن التاسع عشر مجاعة رهيبة كان سببها أن فطرًا أصاب البطاطس بـ (اللفحة)، هذه المجاعة عُرِفت باسم (مجاعة البطاطس)، نتج عن هذه المجاعة موت مليون أيرلندي وتهجير مليون آخر..! أي فقدت ربع سكانها

مرة واحدة.. وتسبب هذا في تغيير فاصل في تاريخ أيرلندا، بسبب هذه اللفحة..! بينما تمكن العلماء مؤخرًا باستخدام (البيوتكنولوجي) من أن ينقلوا جينًا من البرسيم إلى البطاطس يجعلها مقاومة لهذا الفطر، وهكذا تم ببساطة الحفاظ على المحصول..! هذه تجربة شبيهة بنقل الجينات المسئولة عن تكوين (البيتاكاروتين) إلى الأرز فيجعله غنيًا بفيتامين أ مما يكفي لتحصين الكثير من أطفال دول العالم الثالث من العمى.. وهذا غير التهجين الطبيعي الذي جعلنا نتعرف على سلالة القمح الصلد مثلًا (الذي تفصل منه قشوره بسهولة والذي يصنع منه المكرونة)، ثم تهجين آخر نتج عنه قمح الخبز العادي الذي نأكله ويعطي لعجينة القمح الخصائص المتفردة فنصنع منه المخبوزات.

عندما وصل العالم إلى حدود فوضويّة في ظنهم اكتشفوا أنهم كانوا فقط على أعتاب طفرة جديدة من التوازن الإلهي الذي أقرّه الله عز وجل على هذه الأرض.. هذا التوازن الذي يتغلغل كل شيء في هذه الحياة بدءًا بأعداد الأحياء والأموات على الأرض وقابليّتها لاستيعاب الناس جميعًا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾.. وانتهاءً بالتوازن في كميات النباتات والزروع: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾..!

لا تُباهِ

الإنسان الأحب إلى قلبك سوف يموت، والجمال الناضر في وجه حبيبتك سوف يذبل، والعزيمة المتقدة بداخلك قد تنكسر قريبًا مع موجة فشل أكبر من قدرتك على الثبات. ملابسك الجديدة البرّاقة سوف تبلى ألوانها، الألوان في حد ذاتها خدعة من الضوء الذي هو

في حقيقته أبيض، اللون الأبيض سوف يتلوث بذنوب الصدّيقين. الصدق سوف تنساه مع خطايا الزمان، والزمان سوف يتبدل وسوف يبدلك معه. الحياة سوف تخدعك مجددًا، والخدع لن تكون بهذه المهارة. مهاراتك أقل في الحقيقة من أحلامك، أحلامك قد تنحصر في حلم واحد من شدة يأسك، وهذا الحلم الواحد قد لا يتحقق أبدًا، وحين تبكي قد يطلب منك الناس أن تخفض صوت بكائك لأن بهم ما يكفيهم.

براءتك سوف تتلوث مع الأماني المحرّمة، المحرّمات سوف تصبح أكثر لذة مع إيمانك الضعيف، الضعف سوف يصل إلى صحة والديك، وحين تتناقص أيام صحتهما سوف تدرك أن كل ما مررت به من الأحزان لم يكن شيئًا، وأن الحزن الأكبر سوف يبدأ بعد قليل. على عتبات المستشفيات سوف تموت أمانيك الصغيرة، على أبواب المقابر سوف تتوارى في خجل كل أحزانك التافهة، والتفاهة في حد ذاتها سوف تفقد معناها. المعاني سوف تدور حول رأسك للأبد عاجزة عن الدخول، عاجزة عن الخروج. سوف تقضي بقية عمرك على حدود المادة والمعنى، ليس لديك من المادة ما يكفي كي تنغمس فيها، ليس لديك من المعنى ما يكفي للزهد في الحياة.

الحماسة سوف تبرّدها رياح الممكن القادمة من جهة لم تشملها الجهات الأربعة المعتادة، والممكن نفسه لربما يضيق مع الأيام. الأيام سوف تمر إلى أن تنتهي، النهاية سوف تأتي في آخر المطاف. المطاف متعب لقدميك، قدماك سوف تؤلمك في آخر اليوم حين تعود إلى سريرك متعبًا من عناء العمل، والعمل لن ينتهي. النهاية لن تكون نهاية سعيدة، ولا حتى مفاجئة، النهاية حرقتها مئات الحكايات من قبلك. حكايات أفراحك ستصبح مملة بعد

فترة، وحكايات أحزانك سوف تصبح أكثر مللًا. الملل سوف يعتادك ثم يحبك، الحب سوف يعذبك ثم يموت، الموت سوف يكون بعد كل هذا هناك دائمًا في انتظارك.

لا تُبالِ بالصغير من الأشياء إذن، لا تُبالِ بمن رمقك بنظرة استهزاء أو ألقى إليك تعليقًا سخيفًا في لحظة كنت تتشكك فيها عن ذاتك، لا تُبالِ بذاتك كثيرًا. لا تُبالِ بمدى رضاك عن نفسك، أو بذكرياتك عن الفشل، أو حجم انكساراتك هذا الصباح، لا تُبالِ بالانكسارات في وسط روعة الصباح. لا تُبالِ بالمواقف المحرجة التي تعرضت لها بالأمس، أو بالمواقف البطولية التي خضتها بالأمس. لا تُبالِ بأي شيء حدث بالأمس، لا تُبالِ بالغد أيضًا، أتعلم؟ ولا حتى باليوم! لا تُبالِ بالزمن وتقسيماته وأفعاله، لا تُبالِ بظروف المكان والزمان والأحوال ولا بالمفعولات المطلقة. لا تُبالِ بسعادتك قصيرة العمر ولا بأحزانك الأقصر عمرًا. لا تُبالِ بالألم، لا تُبالِ بالشفاء كذلك. لا تُبالِ بالانتصار، لا تُبالِ بالهزيمة، لا تُبالِ بأن تبالغ، ولا تُبالِ بأن تتقلل.

كن بسيطًا في لحظتك الصغيرة بهدوء روحك الساكنة وبسمة من يعلم ألّا شيء يستحق العبوس لأنه لا شيء يستحق الابتسامة..!

الأوغاد

باستثناء الـ (السوشي) لا أظن أن هناك أية كلمات يابانية أخرى نحفظها غير هيروشيما وناجازاكي، من ذا الذي لم يسمع عن قنابل أمريكا النووية..؟ التي لم يكن لها داعٍ فعلًا إلا

فرض الرعب والهيمنة، وبنفس منطق البلطجي الذي يلوّح بالـ (سنجة) في المطريّة..! إنها الإبادة الشنيعة التي قام بها طيار أمريكي بضغطة زرّ ليتسبب بموت مائتيْ ألف ياباني.

غير أننا لم نسمع غالبًا عن مدينة (نانجنج) الصينية التي اجتاحها اليابانيون أنفسهم وقبل أعوام قليلة من تاريخ القنبلتين الشهيرتين، ليقوموا بقتل ثلاثمائة ألف إنسان..! هذه المرة كان القتل بالرصاص والسونكي حيث تتلاقى عينك بعين قتلاك دون أن تعبأ بذلك..! الجريمة أبشع بلا شك، خصوصًا لو عرفت أنها من أشهر المذابح التي ارتبطت بالاغتصاب في التاريخ، حيث تم اغتصاب عشرين ألفًا في اليوم الأول فقط.

احتفظ التاريخ بمذبحة (نانجنغ) وغيرها من مذابح اليابانيين في سجلاته المخفيّة حيث لا يتذكرها أحد تقريبًا، وبنفس الطريقة التي احتفظ بها بسجلات قتلى (ستالين) في الحرب العالمية الثانية التي فاقت ضعفي عدد قتلى (هتلر)، لكن بالطبع الكل يعلم أن هتلر مجرم حرب سافل قد نال جزاءه، بينما ستالين استمر في حكمه إلى أن مات على فراشه بجوار زجاجات الفودكا وتشييعات الملايين من محبيه بأعينهم الدامعة.

ماذا عن (ماو تسي تونج) الذي قتل ستين مليون إنسان من أجل إقامة الثورة الشيوعية في الصين..؟ لم ينل هذا الوغد جزاءه أبدًا إلى أن مات..! وماذا عن جنكيز خان وهولاكو وفلاد المُخوزق وكاليجولا ونيرون، وغيرهم من معاتيه التاريخ الذين نشروا الدماء في كل مكان ومات معظمهم على فراشه بسلام لم يعكّره عليهم أحد.

التاريخ لا يرحم أحدًا فعلًا لكنه لا يمانع أحيانًا في الواقع من أن يسجل كل شيء في غرفة مكتبه الخاصة بسجلات باهتة لا يطّلع عليها أحد..! العدل – ككل شيء في هذه الدنيا – ناقص بحق..! والذين يفلتون من العقاب أكثر من أن نحصيهم.

لم يتسنّ لك أبدًا الانتقام من ابن العميد الذي أخذ مكانك في الجامعة، ولا بائع الفاكهة الذي باعك البطيخة البيضاء، ولا سائق سيارة الأجرة الذي سبّ أمك ثم لاذ بالفرار..! لم يُقتصّ أبدًا من المسئول عن شهادة البكالوريوس التي حصل عليها ابنك دون أن يتعلم حقًا، ولا عن مياه النيل التي قتلت أباك بالفشل الكلوي، ولا عن دخان قشّ الأرز الذي تقضي كل عام بسببه شهرًا في صداقة دائمة مع السعال.. ولربما لا تستطيع أن ترى بعينيك نهاية أي سفّاح من حولك، وما أكثر السفّاحين من حولك..!

مظالم الدنيا من حولنا بشعة، ربما أبشع من أن يتحملها المرء في كثير من الأحيان..! إنها مرارة القهر، ودموع الحسرة، والرغبة العارمة في الانتقام، والحاجة الصادقة للقصاص، ونظرات العين المنكسرة في صمت بليغ..! إنه جوع قارص، وظمأ قاتل.. وككل ظمأ في الدنيا هناك ما يرويه ويشبعه.. هناك في مكان ما، أو زمان ما، هناك عدل كامل، هناك انتقام جبار، هناك قصاصٌ نافذ..! ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾.. لا ظلم هناك، في ذلك اليوم..!

عدد أولاد موسى عليه السلام

امتلأت الثقافة الشعبية الغربية بقصص ألواح التوراة، وصارت مادة خصبة للخيال في نسج الأساطير حولها، نحن أمام الكتاب الوحيد الذي تواتر للبشر نزوله من السماء مكتوبًا كما هو، هذه قدسية خاصة بالتأكيد.

تحدثوا عن أن هذه الألواح تحتوي أسرار المخلوقات الأخرى الغيبية من غير البشر، أو أنها تحدد بوضوح موعد القيامة، وأنه ليس لأي أحد أن يقرأها.

ربما كانت من هذه المبالغات الخيالية ما وصل إلينا عن بعض التابعين من أخبار إسرائيلية واضحة أن هذه الألواح كانت تزن سبعين بعيرًا وأنه لم يطلع عليها إلا أربعة منهم موسى وعيسى عليهما السلام.. الله أعلم بحقيقة هذه الألواح، إلا أن أقل ما يمكن أن نتفق عليها أنها بالفعل مميّزة..!

مما ذُكِرَ لنا في القرآن من ميزاتها هي أنها تحوي تفاصيل كل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ حتى قيل إنها كانت سبعة أجزاء رُفِعَت ستة منها لما ألقاها موسى عليه السلام في لحظة غضب حين رأى قومه يعبدون عجلًا سمينًا لمجرد أنه له خوار..!

قيل إن هذه الأجزاء الستة المرفوعة كانت تحوي تفاصيل كل شيء فعلًا، وإنما بقي السبع الأخير فقط الذي يحوي المواعظ والأحكام.. على أن الأرجح عند الكثير من علماء التفاسير

أن هذا غير صحيح، لقد بَقِيَت ألواح التوراة كاملة مع موسى عليه السلام، وكانت تحوي تفاصيل كل شيء بالفعل كما ذكر القرآن، ولكن ليس بالمعنى المتبادر للذهن من كلمة (كل شيء)، بل المقصود كل ما ينفع بني إسرائيل من المواعظ والأحكام..!

على هذا المعنى فالقرآن الذي بين أيدينا يحوي كل شيء أيضًا، بل وأكمل وأنفع.. اللهم إلا أنه قد يكون أقل في تفاصيل تقرير الأحكام التي جعل الله عز وجل لنا فيها مجالًا للاجتهاد في أمة محمد ﷺ لم يكن موجودًا مثله عند بني إسرائيل، وهذه رحمة إلى الأمة التي ستبقى حتى آخر الزمان بكل ما يشهده من تغيرات وتطورات تستدعي الاجتهاد وتستدعي الأحكام الواسعة التي تدل على أن هذه الأمة قد أوتيت مع كل عسر يُسرَين..

لذلك فتفاصيل القرآن أبعد ما تكون عن الحشو الفارغ والاهتمامات الدنيا..! كمثال على ذلك انظر إلى قصص موسى عليه السلام.. ١٣٦ مرة هي عدد مرات ذكر اسم نبي الله (موسى) عليه السلام في القرآن.. ورد ذكره في ٣٤ سورة من القرآن..! أي تقريبًا ثلث سور القرآن.. ومع ذلك أنت لا تستطيع أن تعرف إن كان له من الإخوة أحد غير هارون وأخته التي راقبته من بعيد.. لا تستطيع أن تعرف إن كان وُلِدَ له من الأولاد أحد، أو عمّا إذا كان غنيًا أو فقيرًا.. لا تستطيع أن تعرف ماذا كانت مهنته بعد أن خرج من مدين، أو ماذا كان لباسه المفضل، أو كم تزوّج من النساء..

القرآن يعلمنا إذن أن نحرص على ما ينفعنا، وأن الله يحب من الأمور معاليها ويكره سفاسفها، وأنه من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه..!

قوانين البرتقال

البرتقال والمطر والقدرة على لبس أي شيء متخلف تحت المعطف قبل الخروج هي الأشياء الوحيدة التي أحبها في الشتاء.. صحيح أن البرتقال قد تم نفخه بمواد كيماوية غامضة، والأمطار تصل إلينا ملوثة بشكل مستفز، والشمس تستعيد صحتها ظهرًا بشكل مفاجئ فتجعلك تكره حياتك بهذا المعطف الثقيل والذي لا تستطيع خلعه لأنك تلبس تحته أشياء متخلفة كما اتفقنا..! لكن في الجملة هذه الأشياء الثلاثة محببة إلى نفسي فعلًا.. وفيما عدا ذلك فأنا أكره بعنف كل ما يتعلق بالشتاء.

غير أني أكره الصيف أيضًا..! في الواقع أنا أكره بدايات كل منهما حين تضطر إلى تغيير أسلوب حياتك بالكامل بعد أن تعودت عليه أخيرًا..! تغير موعد نومك، واستيقاظك، ومشروبك المفضل، والملابس المعلقة وراء الباب.

ما يثير الإعجاب حقًا أن كل هذه التغيرات التي يضطر كل منا إلى صنعها بحياته كانت نتاج تغير زاوية ميل أشعة الشمس على أحد نصفي الكرة الأرضية..! فقط زاوية الميل تصنع بنا كل هذا..! قانون واحد بسيط صغير أودعه الله عز وجل الكون وقت خلقه.. ولكنه يتحكم في كل شيء يتعلق بك..!

عندما تسمع عن الراكب المسكين الذي غرقت به سفينته في عرض البحر فمات ظمئًا على قطعة خشب طافية، فتذكّر مدى قوة قانون مشاكس صغير كقانون الذوبان والذي جعل ملايين الأمتار المكعبة حوله من مياه البحر الذائب فيه الملح غير صالحة لإرواء عطش

من يحتاج إلى كوب واحد..! عندما ترى ممثلة كانت تخلب لب الرجال، وقد بلغت من العمر المئتين من السنين وقد صار وجهها يخيف صغار السن وكبار السن ومتوسطي السن، فتذكّر حينها مدى فاعلية وثبات قانون الشيخوخة الذي سنه الله تعالى في خلقه..!

حاول أن تلحظ بسمة قانون الجاذبية المتشفية في هاتفك الجديد بعد تهشمه على الأرض.. أو تلحظ النظرات الشريرة على وجه قانون القصور الذاتي بعد أن تسبب لتوه في قتل شاب نسي حزام أمانه.. أو تلحظ روعة قانون الغليان في كوب الشاي الممتع..!

تشترك هذه القوانين وغيرها في أنها ثابتة لا تتغير بالظروف، وقوية لا تتأثر بالعواطف.. محكمة في الصنع، وبسيطة في الطبع.. لن تظلمك ولن تحابيك، لأنها ببساطة لا تعرفك أصلًا ولا تهتم بك.. هي قوانين لطيفة وغير مؤذية إن تعلمت كيف تتعايش معها، وخطيرة جدًا وقاتلة إن قررت تجاهلها أو الاستهانة بها.

الجميل أن سنن الله عز وجل في شرعه وأمره تشبه سننه في خلقه.. هي أيضًا ثابتة وقوية ولا تتغير ولا يُنصَح أبدًا بتجاهلها..! الظالم لن يهنأ، والكاذب لن ينجو.. العاصي في شقاء، والطائع في أمن واهتداء.. عاق والديه سيراها في أولاده، والسارق سيراها في بركة ماله.. هدايات القرآن باقية، وأنوار الصدقة ساطعة، والداعي لا يُردُّ صفرًا..!

مئات القوانين في شرع الله وفي خلقه، وجميعها ثابت، وجميعها بسيط، وجميعها محفوظ..! لن تتبدل هذه السنن إلى شيء مغاير، ولن تتحول إلى أناس آخرين..! ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحوِيلًا﴾..!

ماذا فعلوا بكِ يا سيدتي؟

اختزلوا يا سيدتي كل ما في داخل رأسك من الفكر، كل ما بروحك من الأحلام، كل ما بنفسك من ترددات الظن واليقين وتخبطات الخوف والسرور وصراعات الوحدة والزحام، اختزلوا كل ذلك في وجهك الجميل، ثم صنعوا منه واجهةً لبيع سلعهم الرخيصة.

معجون أسنانهم عليه وجهك المبتسم، مسحوق غسيلهم عليه وجهك المتعب بالغسيل، ألبان أطفالهم عليه وجهك وأنتِ أم، وفي جانب لافتة دعاية ذلك الطبيب الباطني هناك وجه كبير لكِ ليس له معنىً في دعايته إلا جذب اهتمام المارة الذين يحبون النظر إلى وجوه النساء الجميلات..!

بالمناسبة يا سيدتي كم ممثلة سينما تعرفينها غير جميلة؟ هل ترين يا سيدتي في كل هذه الوجوه على الدعاية الاستهلاكية من وجه قبيح، أو متوسط الجمال، أو مليء بالبثور وحبوب الشباب؟ هل رأيتِ على أحد صور الدعاية لشركات الملابس صورة فتاة بدينة، أو نحيفة، أو فارعة الطول، أو شديدة القصر؟

لا، لابد من أن يستخدموا صورة الوجه الملائكي والجسد المثالي ونسب الجسم المتوازنة بإتقان. لابد أن تشعري بالنقص في حضرتهم إن لم تكوني مثل هؤلاء النساء الجميلات اللاتي لا يأبهون إلا لمثلهنّ..!

لقد علموكِ يا سيدتي ألا ترضين عن نفسك، ألا تحبين وجهك غير المثالي، ألا تسامحين جسدك غير الرشيق، لقد علمكِ البشر أنهم لا يأبهون بجمال روحك بقدر حبهم للجمال الذي يرونه هم منكِ.

صرتِ في حالة يرثى لها حينها، تخرجين إلى الشارع فنرى نحن كل هذه المحاولات منكِ لإظهار كل شيء جميل لديكِ تحبين إظهاره، لربما لا يتعلق الأمر فقط بحب جذب أنظار الشباب، لربما لا يتعلق الأمر فقط بحب إثارة غيرة بقية الفتيات، لربما أنتِ تحتاجين أن تشعري بالكمال الذي تعلمتِ أن هذه هي طريقته الوحيدة.

البشر ظالمون، البشر سطحيون، البشر سينبذون من كان رزقها أضيق من مقاييسهم الخاصة، وسيعيبون من كان جوهرها أجمل ما فيها.

البشر أغبياء يا سيدتي.

الله عز وجل ليس مثلهم، الله لا ينظر إلى وجوهنا ولا إلى صورنا ولا إلى أرقامنا على الميزان، الله عز وجل ينظر إلى ما نكونه نحن حقًا، إلى تلك الكينونة العميقة التي نحملها بداخلنا ونتحسر حين يرى الناس منا قبحنا لأننا نعلم أن ما نحن عليه فعلًا أجمل مما يبدو لهم، ونقول: يا ليتهم يعلمون.

ولكن الله يعلم..!

الله يا سيدتي أجمل منهم.

الأنين

مهما كان المركز الذي يحتله الطعام في قلبك، ومهما كان الرقم الذي يظهر لك على ميزانك، فإننا جميعًا وبلا استثناء قد جربنا تلك اللحظة المريضة التي نتعرف فيها على لؤم الجوع حقًا، ونعرف لماذا أجمع الناس على تكفيره..! حينها لو خلوْت بطبق تشتهيه من الطعام تذوق أجمل معاني الحب.. إنها العاطفة الصافية التي لم تلوّثها الضغائن، والعشق المجنون الذي كان سيجعل قيسًا يخجل من فشله.

وبعد أن تنتهي المذبحة، وتستلقي على الأريكة بزاوية ١٤٥° لتساعد حجابك الحاجز على القيام بعمله وإبقائك على قيد الحياة.. حينها لابد أن تفكر في عدد الملايين من البشر الذين يعانون في هذه اللحظة بالذات مما كنت تعاني منه قبل عدة دقائق..! وكم يا ترى تكون نسبة من سيحصلون على مثل هذا الطبق العزيز من هؤلاء..؟!

تكبر قليلًا وتراقب في سعادةٍ مغتاظة، أو حزنٍ مستلذ، زميلك الذي كان يجلس بجانبك في درس الكيمياء، وهو يسير بجانب كائن منفوخ البطن، ويحمل كائنًا آخر منفوخ الخدود وأنت لم ترزق بأي شيء من هذا بعد.. فتسعد له وتغتبط، ولكنك أيضًا تتأثّر وتتذمّر، وتُحبَط وتتحسّر..! يجعلك هذا تفكر في حال الذين زاروا ساحل الأربعين من العمر، ولمّا يُرزَقوا بعد..

وهكذا... في كل مرة تذوق نوعًا من الألم، تفطن إلى حجم خزانة هذا الألم من حولك، تفطن إلى معنى جديد من معاني المعاناة، وهي أن تعاني من كثرة ما تراه من المعاناة..! أن

ترى هذا وذاك من المبتليْن فتشعر بالحزن لحزنهم، وتتمنى لو كان بإمكانك أن تشتري فرحتهم بكل ما تملكه.

لو صارت أصوات البشر من حولك تتناغم وتتآلف وتُختصَر في صوت واحد، لسمعت صوتًا يشبه في بعض جوانبه صوت الأنين.

الأنين هو صوت المحرومين.. هو صوت المحتاجين.. هو صوت ذلك الذي لا يجد ما يحتاجه من مال، وتلك التي لم تكن دنياها على مستوى حلمها.. صوت الشاب الذي لم يَصِرْ زوجًا، وصوت الزوجة التي لم تَصِرْ أمًّا.

وهو أيضًا صوت ذلك الجنين في بطن أمه وهو يعاني من كمية الأكسجين الشحيحة المارة بحبله السرّي.. صوته وهو يتسائل لماذا لا يحصل على ما يحتاجه..؟ ولماذا يكون رزقه شحيحًا..؟ دون أن يعلم أنه لولا هذا الحرمان الهوائي التي تعيشه خلايه، ما كانت أفرزت كليتاه هرمون الإريثروبويتين، وأنه ما كان ليحصل بفضل ذلك على معدلات هيموجلوبين تتجاوز حد العشرين وأنه ما كان له أن ينجو بسهولة بعد الولادة بمعدلات أقل من ذلك من هذا النوع من الهيموجلوبين الطفولي الذي يتمتع به..!

قد حصل الجنين على إجابته إذن..! حرمانه مما يحتاج، كان هو عين ما يحتاج..!

إن صوت الأنين المتصاعد يسأل عن حاجاته، عن إكمال أرزاقه، عن أحلامه وأمانيه.. يجيبه صوت آخر شجيّ يتصاعد من مكانٍ ما ويتلو علينا: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾..!

حين أصير رائعًا

لقد اعتدتُ أن أعلق الكثير من الأشياء على تلك اللحظة الجميلة التي تهبط عليّ فيها الهداية من السماء وأكون رائعًا..! لا أدري ما الذي زرع تلك الصورة الذهنية الخيالية في عقلي، وأقنعني أن الهداية تأتي بهذه الطريقة..؟! ربما من أفلام الخمسينات حين كان البطل يتحول من راسبوتين إلى القديس يوسف بـ [نظرة من عينيها]..! أو من قصص الأطفال Fairy tales التي كانت دائمًا تنتهي بلحظة الـ Happily never after..!

إنه ذلك الشعور بأن الهداية لم تأتِ بعد، وأنك لن تموتَ أبدًا إلا بعد أن تحصلها.. لا تتخيل أن موتك سيكون على معصية من تلك المعاصي المعتادة التي أنت عليها الآن، أو أن لحظة خروج روحك قد تكون في وسط الساعات الخرافية التي تقضيها على سريرك..! لا، لابد أنها ستكون لحظة درامية للغاية، وعلى حال جميل يلخص كل هذه المعاني الجميلة والنيات الحسنة التي تدخرها في قلبك.. ولكن كيف هذا..؟ بالهدية الثمينة التي ستهبط على قلبك من السماء يومًا ما وحينها ستكون رائعًا..!

دعني آخذك إلى مشهد مختلف تمامًا.. إلى تلك اللحظة التي تتأمل فيها مندهشًا كيف يصل الحيوان المنوي الجاهل إلى وجهته القابعة في أعلى قناة فالوب ملتوية بعد أن يقطع مسافة تساوي ما تقطعها سمكة السالمون حين تعبر طرفي المحيط الأطلسي، كيف يصل إلى وجهته بميكانيزم ما زال مجهولًا عند علماء الطب..؟! أو آخذك إلى اللحظة التي تفهم فيها تفاصيل لعبة [الاستغمّاية] التي تقوم بها الجسيمات المضادة المسّاكة للأجسام الغريبة في

الجسم ثم تقدمها للأجسام المضادة الآكلة في نظام معجز شبيه بالفعل بنظام المخابرات والشرطة والقضاء..!

إنها من تلك اللحظات التأمّلية الجميلة التي تفطن فيها إلى صفة من صفات مخلوقات الله.. أنها جميعها مهتدية إلى بغيتها، قد حصلت من الله على الهُدى الذي يكفيها كما حصلت منه على الخلق الذي كوّنها: ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾..

قاعدة قد فطن لها إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.. الذي خلق كل هذه الأهواء بداخلي، وذلك العقل الذي يصيب حينًا ويخطئ أحيانًا.. وهذا الكسل، وهذه الفترة، وذلك الغضب، وتلك الحيرة.. الذي خلق كل هذا، سيهديني، لأنه أرحم وأجمل من ألا يفعل..! بينما من ضلّ، لربما هو قد حصل بالفعل على نصيبه من الهداية ولكنه رفضها: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾..

ربما لا تحصل على لحظتك المثاليّة الخاصة، ربما لا تهبط عليك الهداية في يوم ما لتصير رائعًا.. لربما ستظل دائمًا متعرّضًا لنداءات الباطل، وإغراءات الغواية.. لربما ستظل بين الحين والآخر تغتالك الحيرة، أو يتمكن منك الفتور..

لربما سيحدث كل هذا، ولكنك ستظل تشعر بأثر تلك الهداية في نفسك.. وحين يهرب منك ذلك الأثر أحيانًا فلن يتطلب منك الأمر إلا كلمات يسيرة تتمتم بها عدة مرات كل يوم تضمن لك إن صدقتَ فيها أن تبقى قريبًا من الهدية الثمينة: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم﴾..

محاكمة الإبليس

اعتدتُ أن أُصاب بجلطة معنويّة، في كل مرة يقف فيها أمامي فجأة سائق [ميكروباص] ليُنزل زبونه، غير عابئ بي أو بأحد من السيارات خلفي، والجميل أنه يخرج حينها رأسه من النافذة ليصب جام غضبه على ذلك الوغد الذي فكر في إطلاق سارينة سيارته للاعتراض على ما حدث.. حينها تكون من اللحظات التي أتعرف فيها على السفاح الذي في داخلي، وأبدأ متلذذًا في تخيُّل جثة هذا السائق الممزقة.

ولكني ركبت مرة مع أحد هذه [الميكروباصات]، ورأيتُ كيف يضطر السائق إلى الوقوف فجأة أمام سيل من العربات المتعجّلة، حتى يُنزِلَ راكبة مسنة تحتاج إلى النزول هنا بالذات، ورأيت الصراع النفسي في صوت السائق وهو يصرخ فيها لتُسرعَ في النزول، ويصرخ في صاحب السيارة الملاكي [الرقيع] الذي خلفه حتى يمنعه من تنبيه شرطي المرور بسارينة سيارته، فمخالفة واحدة من هذه تعني ببساطة عرق أسبوع كامل..!

اعتدتُ أيضًا أن أكره كوكب الأرض بأكمله في كل مرة أجد فيها من ينشر على الفيسبوك صورة فوتوشوبيّة فيها مثلًا عصفور يشرب القهوة، مع إيمان كامل ويقين غير منقوص أن هذا من إعجاز خلق الله في الطبيعة، لكني فكرتُ أن هذا الشاب المسكين قد كان من الجيل الذي أقنعوه بأن يحوّلوا [كرتونة شيبسي] إلى [درج زراير] في حصة التكنولوجيا.. ثم أقنعوه بأن هذا فعلًا نوع من التكنولوجيا..! حينها تفهم أن كثيرًا من هذه التصرفات لها ما يبررها.

لا يوجد بين الناس قديس ولا إبليس..! قاعدة نؤمن جميعًا بشقها الأول، ولكن القليل منا من يؤمن بالشق الباقي.. لربما كثير من الأبالسة حولنا قد نلتمس لهم عذرًا لا يعفيهم بالكامل من المسئولية، لكن يفسّر لنا الكثير من الأشياء.. لربما كثير من الأبالسة فيهم جانب خير ما، وكونك لا تراه الآن، لا يعني أنك لن تراه غدًا.

من أشرس السموم التي اكتشفها الجنس البشري سم البوتيلينيوم، الذي يمكنه قتلك في عدة دقائق، ومع ذلك يستخدمه الأطباء لعلاج البواسير وأشياء أخرى كثيرة.. والإيثانول [السبرتو الأبيض] الوقح ينقذ ذلك الأبله الذي شرب عدة زجاجات من الميثانول [السبرتو الأحمر] الأوقح..!

ربما يرى البعض أنها سذاجة أن ترى الجانب الخيّر في أسوأ الأشياء وأسوأ الناس طُرًّا.. البعض الآخر سيرى أنها رومانسية زائفة أو رفاهية عاطفية.. لكني أراها شيئًا آخر.. نوعًا من الشفقة والإنصاف مع إنسان رأينا منه خطأه، لكننا لسوء حظه لم نكن هناك حين ظهر منه جماله.

لحسن الحظ الله لا يفعل مثلنا، بدلًا من ذلك فالله قد يتجاوز عن آثام سنوات لامرأة بغيّ، ولا يتجاوز عن خمسة دقائق أو عشرة في حياتها سقت فيها كلبًا غفر الله لها به..!

هناك حكمة جميلة تقول: [لا يوجد من هو مخطئ على الدوام، فحتى عقارب الساعة المعطوبة تخبرنا بالوقت الصحيح مرتين في اليوم]..! والأجمل منها قول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

أصواتك الصاخبة

كنت أتمنى أن أجذبه برفق وأقول له: أعلم كل شيء بخصوصك..!

أعلم أنك تكره مواقع التواصل الاجتماعي ولكنك لا تقدر على فراقها، أعلم أنك لا تحب ألعاب هاتفك المحمول كثيرًا ولكن من حولك يرونك دائم العكوف عليها، أعلم أنك لا تحب حقًا قراءة الروايات الطويلة بقدر حبك لشيء ينتشلك من هذا الواقع، أعلم أنك لا تحب أن تخلد للنوم إلا مقتولًا من التعب، أعلم أنك تخاف كثيرًا أن تذهب إلى سريرك نصف واعٍ فتقضي عدة دقائق مرعبة تحدق في السقف.

أعلم أنك تهرب من نفسك اللزجة، من أفكارك الرديئة، من ذكرياتك العالقة، من أصواتك الداخلية الصاخبة.

نعم، أنا أعلم كل شيء عن أصواتك الداخلية الصاخبة.

أعلم نظرة الحزن التي تكسي وجهك في كل مرة تودع أصحابك فيها وأنت عائد إلى بيتك بمفردك، إنها نظرة من ينتظر عدوًا سيفتك به في اللحظة التي ينفرد فيها به بعيدًا عن هؤلاء الذين يقومون بحمايته.

أعلم أن أسوأ كوابيسك هي الوحدة، أن ألد أعدائك هو الفراغ، أن أكثر نظرات الكراهية تجدها في مرآتك صباحًا قبل أن تتمرّن على ابتسامتك الواسعة التي ستقابل بها الناس.

سرعان ما ستفطن يا صاحبي إلى أنك لن تستطيع الفرار إلى الأبد، سرعان ما ستعلم أنك طالما كنت أنت عدوّك فلا يوجد أي ستر قد يخفيك، أو ظهر قد يجيرك، أو ظل قد يظلّك.

سرعان ما ستفطن إلى أن مهاراتك في الفرار سوف تقل، وأن عدوك سوف يدركك على أشد لحظات ضعفك..! سرعان ما ستفطن إلى أن جدراك السميك العازل الذي وضعته بينك وبين العالم سوف يتآكل، سوف يبدأ الناس في التساؤل: هل أنت بخير؟ لماذا تغيرت؟ ماذا أصابك؟ هم لا يعلمون أنه لا يوجد جديد بخصوصك، هم لا يعلمون أنه أنت الذي أصابك..!

تصالح مع نفسك يا صديقي.

تصالح معها قبل أن تضيع حياتك في محاولات النسيان، وإتقان الهروب، وإدمان لبس الأقنعة.

تصالح معها، أنا أعرف أنها ستكون قاسية معك، رافضة لصلحك، غير عابئة بصدق مودتك، ولكنها في النهاية طوع أمرك إن عزمت، وخادمتك إن أنت أردت.

تصالح معها فالأمر ليس عسيرًا إلى هذا الحد، إنما هي توبة ودعاء ثم لا تُبالِ بعدها على أي ضفاف الحزن هبطت.

تصالح معها فإنك لن تجد أسفل ورقة التفاهم بينكما إلا خانة توقيع واحدة..!

سلطة العميان

كتب رائد الأدب الإنجليزي (هربرت جورج ويلز) في ١٩٠٤ قصة (وادي العميان) وتحكي عن مجموعة من المهاجرين من أمريكا اللاتينية سقطت عليهم انهيارات صخريّة في جبال الإنديز فعزلتهم بشكل كامل عن بقية العالم، ثم انتشر بينهم مرض أدى إلى التهاب أعينهم وفي النهاية أصيبوا بالعمى هم وكل من ينجبونهم، وبعد عدة أجيال صارت هذه المنطقة المعزولة مدينة كاملة كل من فيها عميان ولا يعرفون أي شيء عن العالم، أو يصدقون أن هناك أصلًا شخص يمكن أن يرى شيئًا غير الظلام الدامس.

استمر الحال على ذلك حتى سقط في واديهم مغامر بريطاني كان يستكشف الجبال، وعرف أنه لا يستطيع الخروج من هذا السجن.. في اللحظة الأولى ظن أنه سيكون ملكًا عليهم، إذ إنه الوحيد المبصر وسط العميان.. لكنه فطن بعد ذلك إلى أنهم كانوا يعتبرونه مجنونًا ولم يصدقوا أن هناك نور بالفعل وإبصار وأشياء من هذا القبيل.. في النهاية ولكي يندمج هذا البطل المبصر مع بقية السكان ويتزوج من حبيبته منهم، فكّر في أن يفقأ عينيه، ولكنه تراجع عن ذلك في اللحظة الأخيرة لما رأى جمال أشعة الشمس وعلم أنه لن يتخلى عن هذا بسهولة من أجل حفنة من الأغبياء.

لو احترت في شيء من صفات وأفعال الله عز وجل، فتذكر أن هذا ما هو مفترض أن يحدث..! فبرغم أن الله هو الظاهر الذي ظهر علينا وظهر لنا بكل شيء، فليس ثمّة شيء فوقه، أو أوضح منه، إلا أنه هو أيضًا اللطيف الباطن الذي لا يوجد ما هو أخفى منه..!

هذا التباين نجده في المثال الذي ساقه الله عز وجل لنا في القرآن حين يقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾..

كوّة في الجدار تسبب تضخيم للضوء وتحميه من التشوّش والتشتت، تحوي بداخلها زجاجة شديدة اللمعان والنقاء كأنها نجم في سماء الصحراء الصافية، والزجاجة تحوي مصباحًا يأخذ وقوده من زيت شديد الصفاء، هذا الزيت لم يأتِ من أي شجرة، بل كانت شجرة مباركة في موقع متميز من أشعة الشمس التي لا تغيب عنها مما يؤهلها لإنتاج أفضل الزيتون وأكمله، مما يجعل زيتها نضرًا صابحًا يكاد يضيء بدون حتى أن تمسّه بالنار.

مثال تشبيهي رائع..! لا يمكنك أن تتخيل نورًا أنقى ولا أظهر من ذلك النور.. وبرغم ذلك، لا يدرك ذلك النور أي أحد..! فبعد هذا المثال مباشرةً يقول الله عز وجل في نفس الآية: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾..

ليس كل أحد يقدر على رؤية هذا النور إذن..! وبنفس منطق الرجل المبصر في وادي العميان.. لماذا كانوا عميانًا..؟ لأن آلة إدراكهم قد فسدت فلم يروا هذا النور..

فلا تفسدها أنت بيديك عمدًا مأخوذًا بسلطة العميان كي تكون مثلهم، ثم تقول: لا أراه.. بالطبع لن تراه حينها أيها البائس..!

أنا حزين فعلًا من أجلك..!

خدعة تحت المهاد المُخّي

موقف غير ظريف حدث لـ (ويلي أندرسون) في لندن عام ١٩٣١ حيث كان في جنازة أمه، وفي أثناء إنزال تابوتها إلى القبر انفجر فجأة في الضحك، حاول أن يكتم ضحكه فلم يستطع، غطى وجهه فظل صوته مسموعًا، لا تنس أنها جنازة الست الوالدة حيث هو محط أنظارالجميع باعتباره صاحب اليوم، لك أن تتخيل النظرات الوقحة التي وُجِّهت إليه ومصمصة الشفاه من سيدات لندن الأرستقراطية البغيضة.. في النهاية قام من مكانه وجرى خارج الجنازة دون أن يستطيع التوقف عن الضحك، بعدها بيومين مات (ويلي) وبتشريح جثته عرفوا أنه كان يملك ورمًا شريانيًا بقاع المخ والذي انفجر في الجنازة لفرط حزنه، ليضغط الدم على الهيبوثلاموس (تحت المهاد المُخّي) وتسبب في عاصفة الضحك الغريبة.. يعني في الوقت الذي كان فيه يموت حرفيًا من الحزن على أمه، كان ما رآه الناس منه هو ضحك هستيري متواصل و (قلة أدب) لا ينكرها أحد..!

حكى لي أحدهم هذه القصة محاولًا إقناعي أن الظاهر لا يدل على الباطن، وأننا نحكم على الناس بما نراه ولكن لا نعرف ما بداخلهم حقًا، قلت له أن كل هذا جميل، وأنني حين أجد من يضحك في جنازة أمه فلن أحكم عليه حتى أتأكد من نتيجة تشريح جثته، ولكن هل تسمح لي وقتها لو وجدت الهيبوثلاموس سليمًا أن أفترض أنه قليل الأدب؟!

أنا في الحقيقة أكره هذا النصب، وأجد الادعاء الدائم بأن ظاهر الإنسان لا يدل من قريب أو من بعيد على باطنه أمرًا شديد السخافة..!

نعم، هناك من الناس من تخرج منه أفعال تخالف ما هو عليه بالفعل. هناك من اللصوص من هو أكثر إيمانًا من داخله من آلاف المعممين على المنابر. هناك من الراقصات من هنّ أكثر حبًا لله من المحجّبات.

كل ذلك أؤيده، ولكنه خلاف الأصل..! إنها الشواذ التي تؤكد القاعدة والاستثناء الذي خرج من القانون..! ذلك القانون الذي يقضي بأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.. تلك القاعدة التي نص الله عليها بأن (يعمل) مثقال ذرة خيرًا يره ومن (يعمل) مثقال ذرة شرًا يره..

الحقيقة أنه لو صلح الباطن لصلح الظاهر في أغلب الأحوال، الحقيقة أن من خاف الله حقًا راعى محارمه وتوقف عند حدود معاصيه، الحقيقة أن من أحب الله بصدق امتثل أوامر ربه وفضل ما يحب على محابّه هو عند غلبات الهوى..

فحين تقيّم نفسك كإنسان صالح فلا تلتفت فقط إلى ما تظن أنه بداخل قلبك من الإيمان ولكن عليك أن تضع في الحسبان كل هذه البذاءات التي تخرج من لسانك مازحًا، وكل تلك الصور غير اللائقة التي تشاهدها على هاتفك، وكل تلك الملابس الضيقة المقطوعة التي تخرجين بها كي تثيري إعجاب الشباب..! كل ذلك محسوب..

أنت إنسان صالح حين ينتظم ظاهرك وباطنك، حين نكف عن النصب باسم القلب وما يحوي، ونتخفّى وراء إيمان عميق نزعمه، ثم حين نعمل، لا نقوم بعمل المؤمنين..!

فمن نحن نخدع؟ الله؟ فالله أعلى وأجلّ..!

جريمة النظارة السميكة

كثير من الناس يظنون أن (كوبرنيكوس) قد أعدمته الكنيسة الكاثوليكية حين خرج بنظامه الفلكي المضاد لذلك المذكور في الكتاب المقدس، ولكن الحقيقة أن كوبرنيكوس قد مات بشكل طبيعي في السنة التي طُبع كتابه فيها، واشتُهرت نظريته بعد موته..

وبالمثل جاليليو لم يتم إعدامه حين نصر أفكار كوبرنيكوس ولكن تم اضطهاده بشكل شنيع بالطبع، وتمت محاكمته واعتذر هو عن أقواله فيها من وراء قلبه، اعتذرت الكنيسة الكاثوليكية عن تلك الإساءات لجاليليو في ١٩٩٢، أي بعد موته بـ ٣٠٠ عام! يبدو اعتذارًا متأخرًا قليلًا على كل حال..!

ربما من تم إعدامه بالفعل وحرقه من قبل الكنيسة هو عالم الفلك والفيلسوف جوردانو برونو، وسبب ذلك على الأرجح كان إنكاره لكثير من العقائد اللاهوتية الكنسية مثل وجود الجنة والجحيم والثالوث وليست آراؤه الفلكية..

العدد الأكبر من الذين نالوا الاضطهاد الكاثوليكي الحقيقي بأبشع صوره من الحرق والتعذيب كانوا من المخالفين في العقيدة مثل محاكم التفتيش التي أعدمت الآلاف من المسلمين والبروتستانت، وأما العلماء التجريبيون فبرغم أن الكنيسة عادت كل نتائجهم التي أظهرت عوار اعتقادهم، إلا أنهم لم ينالوا كل هذا الكم المشهور من الاضطهاد والتضييق، بل ذكر لورانس برنسيبيه مؤلف كتاب الثورة العلمية أن معظم العلماء التجريبيين الذين قادوا عصر النهضة كانوا ينطلقون من أساس ديني وإيماني في الأصل..

في المقابل لو أردنا أن نلقي نظرة خاطفة على الثورة الفرنسية والتي هي علمانية في أصلها ونهجها، نجد أنها أعدمت الكثيرين من المثقفين والعلماء لشك قادة الثورة في انتماءاتهم مثل عالم الفلك باتي وعالم الكيمياء أنطوان لافوزييه، وكان يقول قاضي الإعدامات وقتها: الثورة لا تحتاج إلى عباقرة..

الساسة الملحدون نالوا القسط الأكبر من ذلك التاريخ العدائي مع العلم التجريبي، مثل ستالين الذي حرّم قوانين مندل الوراثية لأنها تعارض الحتمية المادية الذي يؤمن بها، وأعدم نيقولاي فافيلوف من أجل ذلك.. وأما ماو تسي تونج زعيم الصين الملحد وقائد الثورة الشيوعية هناك فقد كان صاحب السمعة الأقذر في معاداة المثقفين والعلماء في الفترة التي عُرفت باسم الثورة الثقافية، بل وصرّح في اجتماع لحزبه عام ١٩٥٨ بأنه دفن ٤٦ ألف عالم وهم أحياء.. وأما كمبوديا في فترة حكم الملحد بول بوت فقد قامت في الفترة بين ١٩٧٦ و١٩٧٩ بإعدام كل من يرتدي نظارة سميكة خشية أن يكون مثقفًا..!

لا تسمح لكل من يكفر بالله عز وجل بأن يتكلم عن (العلم) وكأنه قد اشتراه من البقالة تحت بيتهم، ويضعك رغمًا عنك في خانة المتدين الوغد معادي العلم.. لا تسمح له بأن يقنعك بأن كل ما يتلفظ به هو علمي تمامًا وأنه إنما يتبع التجربة والدليل أينما ذهبا به.. لا تسمح له بأن يتستر بأفكاره القبيحة خلف ستار العلم الجميل..

وحين ترى من يثرثر بكلام كثير لا يفهمه حق فهمه لأنه قرأ ثلاثة كتب ونصف فاعتبر نفسه عضوًا في نادي المثقفين، فلا تسمح له أخي الكريم حينها بأن يصدق نفسه..!

رسالة من الكواركات

تأخذني الجلالة أحيانًا للبحث عمّن فاز بجائزة نوبل كل عام.. في كل مرة أتخيل أني سأسمع عن اكتشافات علمية مثيرة، لكني أصاب بالإحباط حين أجد أن آخر الفيزيائيين حصولًا على نوبل مثلًا كان اثنان بسبب اكتشافهما أن (النيوترينو) له كتلة..! تبًا لك أيها النيوترينو، من أنت؟! وأين عباءة الإخفاء وسيوف الليزر وآلة الزمن..؟!

مع التقدم العلمي والتوسع المعرفي اكتشفنا أن المنجزات العلمية باتت أوسع من أن يقوم بها رجل واحد، ربما لأن المعارف قد تشعبت من مرحلة كتاب (الحاوي) النحيل في علوم الطب للرازي، إلى مرحلة (المجموعة الأمريكية في طب العيون) التي تبلغ خمسة عشر كتابًا دسمًا تتحدث فقط كلها عن كرة العين التي نصف قطرها واحد سم..!

كل هذه المعارف كانت مبثوثة في الوجود من دون أن يعيرها أحد اهتمامه لقرون طويلة، والآن نحاول أن (نلملم) ما نستطيعه منها، منذ اللحظة الأولى التي اكتشف الإنسان فيها أنه لا شيء وسط الكون الفسيح، وبعد أن اكتشف صانع نظارات هولندي بالصدفة أنه يمكنه أن (يلعب) بترتيب العدسات المحدّبة والمقعّرة ليصنع منها تلسكوبًا..! ومع تطور هذه التليسكوبات حتى وصلت إلى تلسكوب كيبلر ثم هابل، نكتشف كل يوم أن هناك المزيد والمزيد من تلك الأجرام الضخمة التي لا نساوي شيئًا بجانبها.. نتعلم كل يوم أن الكون أوسع مما كنا نظن في اليوم الذي قبله..! وأن السبب الوحيد الذي لا يجعلنا نرى المزيد منه هو محدودية آلات فحصنا نحن..!

في المقابل، وبعد أن اكتشف (هوك) الخلية الحية واكتشف (ليفنهوك) الأجسام الصغيرة التي تسبح في الدم، بدأ العلماء يدركون أن هناك المزيد والمزيد مما لا نراه في أجسامنا، نظرنا بالمجهر الضوئي، فوجدناه غير كافٍ، نظرنا بالمجهر الإلكتروني فوجدنا أننا لن نشبع أبدًا..! هناك دائمًا أجزاء صغيرة تتكون من أجزاء أصغر، وهكذا، إلى أن نصل إلى الذرّات الكيميائية البسيطة فائقة الصغر والتي لا نستطيع أن نرى ما بداخلها، ولكن فقط ندرك وجود البروتونات والإلكترونات من تأثيراتها الكهربية، وفي العصر الحالي فإن أقصى ما وصلنا إليه هو (الكواركات) التي تكون هذه البروتونات.. ماذا يوجد داخل الكواركات؟ بالتأكيد عالم آخر أوسع مما نظن..! من جديد يدرك الإنسان أن هناك عالمًا أوسع بكثير من أن يستطيع أن يحيط به لأن آلاته ليست بالقوة الكافية.

الوجود غير متناهٍ بالنسبة إلينا، وهو واسع للغاية على (مقاساتنا)..! أكبر منا بكثير أو أصغر منا بكثير.. لابد إذن أننا جزء صغير في مكانة متوسطة من هذا العالم الواسع..! وما نراه منه هو وسيلة لإثارة دهشتنا بتخيّل كم ما لا نراه.

نحن هنا نشاهد في الوجود صفة الله (الواسع) الذي يسع كل شيء برحمته وبعلمه وبقدرته وبإدراكه..! إنها رسالة إلى كل من يحصر صفات وأفعال الله الواسع في حيّز محدودية التصور الإنساني، رسالة إلى كل من يحصر طريقه الواسع في حيّز رؤيته الشخصية لهذا الطريق، رسالة لكل من يحصر جنته الواسعة على مجموعة ضيقة من البشر، رسالة لكل من يتخيل نطاقًا ضيقًا لرزقه وفضله الواسعيْن.. رسالة تقول: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾..

الكاميرا الوقحة

لا أدري ما مشكلتي مع الكاميرا، لا يوجد بيننا عمار بشكل عام..! عادةً أكون في وضع مثالي تمامًا للصورة، وأتأكد من أن ابتسامتي وسط ما بين (أنا ثقيل الظلّ لا أضحك) وبين (أنا أبله وسعيد جدًا).. ثم أتأكد من أن ملابسي مضبوطة، بحيث لا تطلّ برأسها أي ملابس وقحة غير مرغوب فيها من تحت عنق القميص.. تواجهني بعد ذلك مشكلة في وضع يدي، في النهاية أقرر أن أنسب وضع لها أن أجعلها تنسدل بشكل مستقيم بجانبي، وضع دبلوماسي محايد جدًا، وهكذا أكون مستعدًا لضغطة الكاميرا بلا مشاكل.. ثم تظهر الصورة لأُفاجأ بكائن سمج لزج، خفيف سخيف.. وبالطبع هناك بالفعل ملابس غير مرغوب فيها تطل برأسها من تحت عنق قميصي..!

بعد عدة محاولات فاشلة، فهمت أن الكاميرا تكرهني لسبب أو لآخر، وبقي أن أبحث عن سبب هذه الظاهرة الغريبة.. فكرتُ أن السبب أني لا أحب الادعاء وأكره ألا أكون على طبيعتي، لكني فطنتُ إلى أن هذا تفسير متعجرف جدًا، وأنه يعني أنني أذكى من أن تكون صوري جميلة..!

في النهاية فهمتُ أنني بالفعل أبدو على طبيعتي في الصور، لكن ما يزعجني فعلًا هو شكلي الطبيعي الذي يراه الناس طوال الوقت ولكني وعلى خلاف الآخرين لم يتسنَّ لي الوقت الكافي لاعتياده..! بينما لا أجد أي غرابة في صورة صديقي، هذا وجه معتاد تمامًا بالنسبة لي، وأفهم كل تفاصيله، وأدرك على الفور ما الحَسَن فيه وما هو على غير ما يرام..!

الحل الوحيد حتى أمتلك نفس الذاكرة البصريّة لوجهي هو أن أنظر في المرآة أكثر مما أنظر إلى العالم الخارجي، وقد علمتني قصة سنو-وايت أن هذا تصرف غير صحي.

مشكلة أخرى للكاميرا أنها متعلقة بالشكل الخارجي فقط، ولم يخترعوا بعد للأسف الكاميرا التي تصوّر الوجه الحقيقي للإنسان، المتعلق بالسلوكيات أو الأخلاق..! لو تخيلنا أنهم فعلوها، فإنك ستفاجأ بنفس الظاهرة وربما بشكل مضاعف.. تنظر إلى الصورة التي يبدو فيها مقدار جشعك للمال، فترى صورة تاجر البندقية اليهودي ينظر للكاميرا في ريبة.. والصورة التي تظهر مقدار صدقك ستدهشك غالبًا بأنف بِينُوكيَوي طويل..!

ستبدو الصور الخاصة بك غريبة وستبدو صور أصدقائك طبيعية ومعتادة، لأننا لم نعتد أن ننظر إلى سلوكيات أنفسنا بنفس المقدار الذي ننظر به في سلوكيات الآخرين..!

وعلى خلاف الوجه المادي، فإن حل المرآة مناسب جدًا، أن تعتاد النظر في هذه المرآة أكثر بكثير من المعتاد..! مرآة من نوع خاص، تجعلك ترى صورتك الحقيقية كما يراها الناس.. لن يكون هناك إذن المزيد من مفاجآت الكاميرا، لن تكون هناك مساحة اختلاف مثيرة للجدل بين ما تراه أنت وما يراه الناس.. هذه المرآة تضمن لك أن تعتاد وجهك الحقيقي، فتفطن لأقل تغيّر غير محبب للنفس.. تضمن لك ألا ينفر منك أحد دون أن تعرف السبب..

هي مرآة رائعة إذن..! وككل شيء رائع عرفناها أيضًا من النبي ﷺ حين قال: "الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ".. فهل سترفض نصائح هذه المرآة..؟!

عبور خط الكاكاو

عبور ذلك الحاجز الشفاف الموضوع بدقة بالغة بين مرحلة (الشباب النفسي) وبين (الكهولة النفسية)، هذا العبور لا تفطن له في البداية ولكنك تفاجأ بعد التغير رقم ٣٦ أنك لم تعد نفسك بشكل كامل..! بعض هذه التغيرات حسن وبعضها قبيح وبعضها يقع على أعراف الحسن والقبح..!

مرحلة الكهولة النفسية تشعر بها حين تدرك أنك لم تعد تفضل مشروب (الشيكولاتة الساخنة) كثيرًا، وأنك بدلًا من هذا بدأت تفهم كيف تتلذذ بالينسون والقرفة..! حين تبدأ في تفضيل طبق القلقاس الكلاسيكي على شريحة البيتزا الإيطالية..! وتدرك أن السروال الكتاني أكثر أناقة من الجينز..! حين تحس أن الاختلاط بالناس بات شيئًا (لابد منه) بعد أن كان (مرغوبًا فيه)..

حين تتعلم كيف تحب إخفاء رأيك السياسي في الجلسات العامة، أو تفضل الاستماع قبل الكلام، والشراء قبل البيع..! حين يتغير نمط قراءاتك، فتبدأ في التلذذ بالكتاب الدسم المعقد عن ذلك الكتاب البسيط الواضح..! حين تبدأ في الاهتمام بأقوال ابن عباس في الآية أكثر من أقوال ابن عاشور..!

حين تبدأ في النفور الطبعي من المبالغات وأصحابها، وتبدأ في التشكك من ذلك الذي يبدو واثقًا في رأيه أكثر من اللازم..! حين تشعر أن راحة أعصابك في قريتك الريفية ذات حقول البصل وفدادين النخيل أكثر من تلك التي تنالها في المدينة الساحلية الكبيرة..!

حين تتعلم كيف تجتنب مواطن الجدل لأنك تعلم أنها تنتهي دائما بانتصار الطرفين وبخسارتهما أيضا..! حين تفهم أن علاقتك بالناس أهم كثيرًا من المواقف العابرة فتتعلم الانتظار قبل أن تخرج منك الكلمات الجارحة التي تترك جروحًا لا تندمل..!

حين تكون قد أخذت بعض دروس الحياة، وتنتظر في قلق باقيها.. حين يمتلئ غلاف قلبك الداخلي بالكثير من الندوب والعلامات التي أحيانا تعبر عن أناس وضعوا على شفتيك ابتسامة، وأحيانا يضعون الدموع.. تعبر عن آمالك الخائبة، وعن نجاحاتك غير المتوقعة.. تعبر عن ذكرياتك السعيدة وتلك التي كانت مؤلمة أكثر من اللازم.. تعبر عن مفاجآتك بالكثير من البشر، ومفاجآتك أكثر بنفسك أنت..!

نعم، بالفعل هي مرحلة أكثر نضجًا من التي قبلها، ولكنها أيضًا أكثر حزنًا، أكثر شيخوخة، أكثر حذرًا، أكثر خوفًا بما لا يقاس.

مرحلة تذكرك بأنك لست متحكمًا في نفسك ولا ذاتك.. بل أنت بذاتك تتغير.

فكيف لا تؤمن أنك مفطور على الحاجة، مقهور على الضعف، مجبور حين تنكسر، مكسور حين تتجبر، مسرور وقت الطاعة، مستور وقت العصيان..؟!

كيف بعدما ترى المتغيرات من حولك، وترى كل شيء يركب طبقا آخر بعد طبقه.. وتعرف أنك نفسك من الآفلين، كيف لا تؤمن بعد ذلك بدوام وجه رب العالمين..؟! ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * فمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾..؟!

أزهار السمك

كثيرًا ما كنت أتساءل عن السبب الذي يمكن أن يكتئب لأجله إنسان يعيش في مدينة ساحلية بحيث يقدر في أي وقت على أن يطل على البحر..! كنت أتخيل أن نظرة طويلة على هذا الكائن الأزرق الجميل كفيلة بالشعور بأنه وإن غابت عنه السعادة الآن، فهي على الأقل موجودة، بل وممكنة أيضًا..!

عن نفسي أجرّب هذا الشعور لما يغمرني الحزن، فألجأ إلى كوب كبير من الشاي بالحليب، أو بعض [الكاشو]، من الصعب أن يحزن أي إنسان يأكل [الكاشو].. أحيانًا أفتح الصور المخزّنة على هاتفي لأنظر إلى صورة ابنة أختي الجميلة، إلى أسنانها الساذجة نصف النامية، وعينيها البريئتين أكثر من الطبيعي، ونظرتها الجادة، ولا شيء أدعى للابتسام من نظرة الأطفال الجادة.. حينها لا أملك إلا أن أشعر بالسعادة.. لم أحصّلها بعد لأن الأمر ليس بهذه السهولة، ولكني على الأقل أشعر أنها ليست فقط موجودة، وليست فقط ممكنة، بل وقريبة أيضًا..!

الجمال رائع! أن تكون الموجودات من حولك جميلة هذا شيء رائع بالفعل.. والأروع أنك لو فكرت لوجدت أن غرض خلق الله لنا –وهو عبادته في دار التكليف والبلاء– كان ليتحقق أيضًا في عالم بلا جمال..! كان من الممكن أن يخلقك الله في عالم قبيح أو لا يخلق فيك الإحساس بالجمال فترى كل شيء بشكل قبيح، ثم مع هذا يأمرك بعبادته أيضًا..! ما كان ليتغير شيء.

تخيل أن تستيقظ من نومك على صوت رديء مثير للاشمئزاز، هو صوت العصافير على الشجرة القريبة..! تخيل لو قمت وفتحت النافذة ثم وجدت ملمس الهواء على بشرتك مقززًا وغير مريح..! تخيل لو نظرت إلى السماء فوجدت لونها [فوشيا]..! ثم نظرت إلى الأشجار فوجدت لونها أسود..! تخيل لو أصلًا لا توجد ألوان، وكل شيء درجة من درجات الرمادي..! تخيل لو أن كل البشر يشبهون مهرّج السيرك، أو أن كل الحيوانات تشبه الفأر..! تخيل لو كان أنفك تحت إبطك..! أو كانت عيناك فوق سرّتك..! تخيل لو كل ما تأكله له طعم واحد، يبقيك على قيد الحياة ولكن له طعم الطين..! تخيل لو كل المشروبات الساخنة بطعم زيت الخروع، أو أن كل الأزهار لها رائحة السمك..!

تخيل الحياة بدون جمال..! هل كانت الحياة المادية ستستمر؟ بالطبع نعم! بل وكانت لتكون الدنيا كافية أيضًا لتحقيق غرض العبودية لله عز وجل، فلماذا لم تكن كذلك؟

ببساطة لأن الله هو الجميل..!

لأنه قد خلق مليارات النجوم أكبر من الأرض بملايين المرات، لماذا؟ كي تكون زينة ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾.. لأنه لما يخلق، يخلق بجمال، لأن صفة الله أنه جميل، لأن تيسير الله لكل شيء تحتاجه جميل، لأن عناية الله بك عند الشدائد من النوع الجميل، لأن حنان الله عليك حين الأسى بالفعل جميل..

لو فكرتَ وقت الحزن في جمال الله البادي في خلقه وسننه، لعلمتَ أن السعادة ليست فقط موجودة، وليست فقط ممكنة، وليست فقط قريبة.. ولكنك مغموسٌ فيها بالفعل..!

غرفة تحكم ماجومبا

تثير غيظي بشكل خاص الإعلانات التي تعتمد على المشاهير.. فتجد مثلًا على قارعة الطريق لافتة عملاقة للإعلان عن أحد مزيلات العرق، يظهر فيها ممثل مشهور وهو سعيد جدًا لأنه تخلص من رائحة عرقه.. لا أفهم حينها ما المطلوب مني..! هل علي أن أسارع لشراء هذا المنتج لأن هذا الفلان سعيد به إلى هذه الدرجة..؟! افترض أن مستقبلاته الشمّية الخاصة به مصابة بالعته..! ماذا أفعل حينها..؟!

ولكني أقدّر من حجم انتشار هذا النوع من الدعاية أنه يؤتي حقًا ثماره.. هناك من الناس من لديه الاستعداد بالفعل للسماح لشخص غريب تمامًا عنه بأن يختار له العطر الذي يجب عليه أن يفضله، فقط لأن هذا الشخص محبوب عنده لسبب ما..!

مونديال كأس العالم الذي ينطلق كل أربع سنوات يصيبك بدهشة أخرى، فهناك نسبة لا بأس بها أبدًا من البشر تقرر أن تعلّق أحزانها وأفراحها لمدة أسابيع على مقدار براعة لاعبي فريقها المفضل.. تخيل مدى السخرية في أن يكتئب [ماجومبا] من [غينيا الجديدة]، أو يبكي [سباعي] من [باب اللوق] لأن إيطاليا خرجت من البطولة..!

هناك طائفة أخرى تفضل أن تعطي حق الولوج الاختياري لمشاعرها الداخلية لإنسان معيّن.. ربما تكون حبيبته من الجامعة مثلًا، تكفي رؤياها بالنسبة له لكي يشعر بعدة عصافير ملوّنة تحلّق حول رأسه من فرط السعادة، وتكفي مشاجرة بسيطة كي يرغب في الانتحار بسم الفئران.

مشاعرك الداخلية ليست مجرد ذكريات، أو أفكار، أو حوارات بينك وبين نفسك.. مشاعرك ليست مجرد حرارة غضب في صدرك، أو برودة حزن في قلبك، أو لذة انتشاء على شفتيك..

مشاعرك أعمق من كل هذا.. هي أمواج متلاطمة بداخلك، تارةً هي عميقة فلسفية غامضة، وتارة هي سطحية لا تريد من الحياة إلا متعتها الظاهرة.. تارةً تفكر في الغد في قلق أو في تفاؤل، وتارةً تفكر في ما مضى بالرضا وبالحسرات.. مشاعرك هي ما يحدد ما تكون عليه في هذه اللحظة، ما يحدد لك كيف ترى الدنيا من حولك، كيف ترى نفسك، كيف ترى الناس..! مشاعرك هي الغرفة المركزية التي تتحكم في أفعالك وتصرفاتك، هي الشفرة الوراثية التي تُنسخ منها كلماتك، هي القوة الخفية التي سترسم عبوسك أو ابتساماتك، هي دفة روحك التي تحدد وجهتك..

ببساطة، مشاعرك الداخلية هي أنت..!

لذلك كان من كمال وجمال التوحيد لله عز وجل أن توحده حتى في مشاعرك..! أن تحاول جاهدًا ألا يقف خلف الحزن والفرح، أو الحب والكره، أو التردد والثقة، أو التفاؤل والقلق، أو الحبور والنفور، أو الملل والحماسة.. لا يقف خلف كل هذه الأحاسيس إلا سبب يتعلق بالله عز وجل..

فدع عنك الناس، فسوف تجد منهم أذىً قلّ أو كثر.. بينما مشاعرك أغلى من أن تضعها بأيديهم.. واسأل نفسك دائمًا السؤال القرآني: ﴿دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾..؟!

الذهول

الأحلام لها منطق خاص بها، كل شيء تراه واقعيًا ومنطقيًا تمامًا، ربما ترى مثلًا أن رئيس المجر في صالون بيتكم يشرب شايًا بالحليب، بينما تقفز ابنة أختك من الشرفة وتطير في السماء، قد تتعجب من هذا وأنت في الحلم ولكن ليس لأنك على علاقة شخصية برئيس المجر، ولا لأن ابنة أختك تجيد الطيران، ولكن لأنك كنت تظن أن الجميع على علم بأن رئيس المجر يحب أن يشرب الشاي (سادة)..!

وحين تستيقظ تبدأ في اكتشاف الثغرات المنطقية الموجودة في هذا المشهد الذي كان واقعيًا تمامًا منذ قليل..! لذلك تجد أن العالم المُنسّق الجميل في نظرك وقتها، لم يكن بهذه المنطقيّة حين انتقلت إلى عالم آخر، له قواعده الأخرى..

البناء المتناسق نحرص على صنعه بأنفسنا حين نهتم بشيء ما فعلًا فنحرص على أن يبدو على قدر كبير من المنطقيّة..! نقوم بصياغة الحجج الذاتيّة لتصرّفٍ ما أو اعتقاد معيّن.. ليس فقط لإقناع الآخرين أننا لا نقوم بأمر خاطئ، ولكن –والأهم– لإقناع أنفسنا نحن بذلك..

وهكذا تتوالى الحجج والبراهين..! فالكذبة كانت (مجاملة)، والسُبّة كانت (خروجًا عن الشعور)، وإفشاء السر كان (لأجل المصلحة)، والرياء كان من رجل أقنع نفسه أنه (قدوة)، وخيانة العهد كانت (لتغيّر الظروف)، والنظرة المحرّمة التي نظر بها إلى زوجة جاره الحسناء، كانت فقط (للتأكد من شيء ما)..!

أكثر ما يمكن أن تجده مثالًا واضحًا لهذه (الحجّة الذاتيّة) هو أمر الكفر بالله عز وجل أو الجحود بنعمه أو عصيانه، فتجده يصنع لنفسه بناءً كاملًا متناسقًا في رأيه، للدرجة التي تجعله يجزم أنه سيستخدمه في الدنيا والآخرة، إن تبين له أن هناك بالفعل آخرة.

هو يظن أن المنطق الذي يفكر به الآن، سوف يصطحبه معه إلى دار الآخرة بشكل كامل غير منقوص، وأنه سوف يقدر على صياغته بنفس العبارات الرنّانة ذات الصدى..

ولكنه في الحقيقة في العالم الآخر، ذي القواعد الأخرى، سوف ينهار هذا البناء المترابط تمامًا، ويفشل هذا المنطق اللطيف، ويضلّ عن كل هذه الحجج المفتراة.. تمامًا مثل حالنا في الحلم الذي نجد أنفسنا فيه منطقيين تمامًا، فقط إلى اللحظة التي نستيقظ فيها لنفطن إلى أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق..! كما يقول الله عز وجل عن ذلك اليوم: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾..

سوف يضلّون ويتيهون عن كل ما كانوا يفترونه من حجج، سوف ينسونها بشكل كامل..! سوف يُصابون بحالة ذهول تام عن كل ما كانوا جهّزوه، ونمّقوه من حججهم في ذلك اليوم.. ليس لأن أحدًا سوف يقوم بإخراسهم، ولكن لأنهم سوف يتأكدون بأنفسهم، وحين تنكشف لهم حقائق الوجود، أنهم لم يكن لهم أن يكفروا بالله عز وجل ولا أن يعصوه بأي حال..! وأنه لا توجد ثمّة حجة واحدة صامدة أمام براهين الإيمان والتقوى، التي كانوا في عمىً عنها في الدنيا، وصاروا الآن يرونها بشكل واضح تام دون التباس من هوى أنفسهم، ودون غمامة من غمامات غفلة الحياة الدنيا..!

احتضار النوستالجيا

صنع (المطاوي) من المسامير الكبيرة كان تسليتنا المفضلة أنا وزملائي في المدرسة الإعدادية.. نذهب إلى قضبان القطار لنضع عليه ما لذ وطاب من المسامير التي جمعناها طوال اليوم من فناء المدرسة والشارع دون أن نضع في الاعتبار كم ونوعية المواد العضوية التي لابد وأنها تلوثها.. ثم نأخذ ساترًا وراء المزارع وننتظر القطار المهيب يأتي على هذه المسامير ليحولها لأنواع من الأسلحة المختلفة، مع شعور الترقب والخطر واللهفة والتحدي بيننا عمّن سيحصل على أجمل (مطواة)..! كنا نلقي بكل هذه الأشياء القذرة بعد ذلك في أقرب حفرة، ونتسلى في طريق العودة بقطف التوت من الشجر الحكومي.

وبعد سنين كثيرة، ولأني كنت متأخرًا عن العمل في المستشفى سلكت طريقًا مختصرًا لأجد نفسي أمام ذات القضبان التي لم أزرها منذ ثلاثة عشر عامًا، كان الموقف على قدر كبير من الدراميّة والنوستالجيا.. الذكريات كانت تفوح من المكان.. في هذا المكان بالذات كنت ضحكت بهستيريا، وهنا تألمت بغباء، وهناك تعثرت أمام القطار المتحرك وشعرت بالخطر والأكشن، ثم أدركت بعد أن قمت سريعًا بأنه لم يكن ثمّة خطر أصلًا، في الواقع يمكنك أن تحتسي فنجانًا كاملًا من القهوة على القضبان قبل أن يدركك القطار البطيء.

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أنظر إلى كل هذا الماضي وابتسمت.. ثم فطنت إلى أني لا أشعر بأي شيء على الإطلاق..! كل المشاعر التي يفترض لها أن تأتي مع الذكريات لم تكن موجودة.. في الواقع هذا مجرد مكان خَرِب كنت أحبه في الماضي وقد تجاوزتُه الآن حقًا..!

أحب الذكريات فعلًا، وجزء من حبي لها يكمن في أني أختبر مدى الاختلاف في نظرتي إليها بين زمنين.. مثل مسلسل الرسوم المتحركة الذي كان يمثل لي معنى البهجة الصافية بلا مبالغة، والذي لو شاهدته الآن فهو مجرد مسلسل ممل مليء بالأفورة، وعلى الأرجح سأنتقد كاتبه في دستة من الحبكات غير المتقنة.

كانت نفسي تحتاج إلى هذا الدرس، في الأوقات التي يشعر المرء فيها أن ندوب جراحه ربما كانت أوسع من أن تلتئم هذه المرة، أنه يختبر أنواعًا من الألم جديدة تمامًا في نوعها، قوية بالفعل في شدتها، ومن المحتمل أنه لن ينجو كالمعتاد.. كنت أحتاج إلى أن أتذكر أن النقطة الزمنية التي أقف عليها الآن شاعرًا أنها لن تتزحزح سوف تمضي بالفعل وأسرع مما أتصور، وأن المشاعر التي تغمرني في هذه اللحظة أو تلك سوف تتبدل مهما كانت شدتها.. وأن قدرتنا على تجاوز متاعب الدنيا لا تكمن فقط في تغير الأحوال من حولنا، ولكن في أننا بذاتنا سوف نرحل عنها..!

كنت أخاطب نفسي وقتها وأنا أراقبها وهي تنزف بنظرة مختلفة، نظرة مستقبلية رأيت من خلالها جرحًا ملتئمًا تمامًا لم يبق منه إلا مجرد أثر، أو علامة، مجرد تذكار، ولكنه لم يعد يؤلم..!

كنت أقول لنفسي حينها: أنت لست بخير الآن، ولكنك ستكون كذلك ..

إياك أن تقلل من قدرتك على التجاوز، من احتمالية العبور، من مدى إمكانية التغير..

إياك أن تنسى جمال نعمة النسيان..!

ما قد تتعلمه من البامبارا

في قبائل (دوجون) الأفريقيّة تحتل النساء الهستيريات منصب الكاهنات..! وتزداد الكاهنة في المكانة الدينية كلما زادت نوباتها العصبيّة..! فهي بالنسبة لهم على اتصال مباشر مع الآلهة، ومعظم الآلهة عندهم هي الأجداد الأسطوريون طبعًا، كل واحد يأتي إلى الأرض صبيًّا يبلل ثيابه ثم يكبر ليتعلم كيف لا يبلل ثيابه، ثم يشيخ فيعود ويبلل ثيابه، ثم يموت فيتم اعتباره رمزًا للحكمة وأسطورة للعطاء ويعبدونه. هذا مفهوم بالطبع..!

برغم ذلك فإن قبائل (دوجون) تعتقد بوجود إله خالق أعظم وحيد، ويسمونه (أمّا) وأؤكد لك أن هذه التسمية ليس لها علاقة بكلمة (أمّا) المصرية الريفية التي تعني في اللغة العربية (أمي)..! وفي اعتقادهم فإن (أمّا) هو إله متعال على كل الآلهة الأخرى، ويقيمون له في كل بيت محراب طيني مخروطي، ويتم ذكر اسمه قبل أي إله (صغير) آخر.

في غرب الكاميرون فالقصة مختلفة، هم يعتقدون أن الإله الأعظم خالق الكون اسمه (نيامبي) يعيش أعلى القمر، ولا أحد يستطيع أن يصل إلى مكانه. وأما قبائل أعالي النيل فتعتقد بوجود إله سماوي كبير، هذا الإله ليست له صورة مادية ولا شكل، خلق الخير والشر على سواء. وعند قبائل (البامبارا) يُعرف الإله الأعظم باسم (فارو). بينما يُعرَف في (أشانتي) باسم (نانا). وفي (إيفا) باسم (ماوو). وفي (اليوروبا) باسم (أولورن). وعند (الإيبو) باسم (شوكو). وأما عند (كينيا) فالإله الأعظم عندهم اسمه (مولونجو). ويلقبه (السوازي) باسم (الرئيس الأكبر).

وهكذا.. جميع شعوب قلب أفريقيا تقريبًا –تلك الشعوب التي هي أقدم شعوب العالم أنثروبولوجيًا على الإطلاق– تعتقد بوجود إله متعال خالق للكون، وهناك وسطاء بين البشر وبينه هي ما يسمونه بالآلهة الصغرى.. وهم يتفقون على أن هذا الإله الأعظم قد بدأ الخلق منفردًا..!

هذا الاطّراد التاريخي على وحدانيّة (الرب) لا يكاد يسلم منه أحد، ولا حتى الوثنيون الذين يعبدون الأصنام بشكل صريح وبطريقة تثير العجب، إذ إنك تعتقد أن الإنسان من المفترض أن يكون ارتقى إلى الحد الذي يمنعه من أن يعفّر وجهه أمام تمثال جبسي غير محكم الصنع لرجل مفرط السمنة وعلى الأرجح كان يعاني من مرض البول السكري، فالوثنيّون في الحقيقة يعتقدون أن هذه الآلهة إنما هي وسيلة تقرّبهم إلى الخالق الحقيقي.

هذا الاطّراد التاريخي بوحدة الخالق لربما هو من بقايا دين الفطرة ودين الأنبياء الذين أرسلوا في كافة بقاع الأرض يبلّغون رسالة الإله الذي استوى على العرش، تلك الرسالة التي تقول لكل كائن بشري على وجه الأرض: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.. لذلك يقول الله عز وجل متحدثًا عن هذه الرسالة الموحّدة التي صنعت هذا الاطّراد التاريخي البشري: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾..؟

في المرة القادمة التي تحتاج فيها إلى العون، وقبل أن تسأل الناس، انظر إلى الكون من فوقك وتذكر أن عامّة البشر مؤمنهم وكافرهم يقولون: لم يخلق هذا الكون إلا الله..!

الملوّثون

قال له في حماس حقيقي: "كثير من الناس مثلك يحبون نضارة وجه الأطفال الممتلئة بالدهون الناتجة عن حلوى النعناع عن جمود وجه الكبار الخالي من الدهون ومن الحلوى أيضًا..! لكني عن نفسي أفضل على كليهما تجعدات وجوه العُجُز والعجائز الممتلئة بتضاريس من عاشته الحياة أكثر مما عاشها".

رد عليه: "تجاعيد وجه العجائز جميلة طبعًا، لكن ماذا عن البراءة؟ لا يمكنك أن تقارن شيئًا بجمال براءة الأطفال الذين لم يتعرفوا بعد على شجرة الحياة المحرمة، ولم يأكلوا بعد من ثمارها الملعونة شيئًا".

قال: "بل يمكنني، براءة العجائز أجمل..! إنها براءة من عفّ الثمرة بعد أن خبرها، واستبرأ من خبائثها بثلاثة أحجار منقّيات، الزهد والورع ومفارقة المألوف"..!

غمغم صاحبه: "فماذا عن النقاء؟ كيف تدعي أن نقاء العجوز أكبر من نقاء الطفل؟ وماذا فعل الطفل في حياته كي يتقذّر؟ إنه كحَلْبة اللبن الأولى، كندى الصباح المبكر، كهواء البحر الآتي من جزر لم تسكنها البشر".

قال:"نقاء العجوز أجمل، إنه نقاء المهاجر الذي قد سئم ما كان فيه من خبث ريح البلدة القديمة، نقاء من غرق ثم نجى، من مرض ثم عوفي، نقاء من اجتاز الضفة إلى الجهة

الأخرى فخرج منها وقد ابتل بالماء، سرعان ما سيجف، بينما الطفل الذي لم ينزل إلى الماء بعد، فسرعان ما يبتل"..!

رد عليه: "وضحكة الأطفال الرفيعة"..؟

قال: "بديعة بالفعل، ولكن هل سمعت من قبل ضحكة العجوز الخشنة سريعة الخفتان؟ إنها مرآة روحه بحق، يخبرك من خلالها بآلامه التي بداخله والتي لن يزعجك بها أبدًا".

قال:"وماذا عن سهولة خداع الأطفال؟ يمكنك أن تخدع الطفل بسهولة، فتشعر بأنه ضعيف بحق ويحتاج إليك، حينها لا تعدله بأي شيء في العالم".

قال: "سهولة خداع العجوز أجمل، إنه ينخدع لك لا عن حمق، ولكن عن إذعان. إنه قد تنازل عن كبرياء البشر، وأودع ثقته في من هو أقل منه، لا لشيء إلا لأنه يحب لك أن تقوده وتدله، فهو قد علم من نفسه أنه لا يستطيع الاستقلال بالقيادة فعلًا.. أرأيت جمال الضعف"..؟!

سكت صاحبه ثم قال له: "نحن نحب الطفل والعجوز حقًا لأنهما ليسا مثلنا، أليس كذلك"..؟!

ابتسم ابتسامة حزينة وقال له: "بلى يا صديقي..

أنا وأنت من المُلوّثين"..!

بجانبك

لا توجد إعلانات تليفزيونية لسيارة اللامبورجيني، لأن هؤلاء الذين يقدرون على تحمل ثمنها لا يتواجدون حول التلفاز..!

ذكرني ذلك بما قرأته عن بضعة شركات كبيرة منهم شركة (رولز رويس) للسيارات وشركة (زارا) للملابس، تفتخر هذه الشركات أنها قد وصلت إلى مرحلة شهرة وموثوقيّة لا تحتاج معها إلى الدعاية..! ومن ثمّ لا تقوم هذه الشركات بأي دعاية لمنتجاتها، بمنطق: ومن الذي يحتاج إلى أن يقنعه أحد بأن يشتري من (زارا)..؟!

وهذا شبيه بمنطق أساتذة الطب الذين لا يكتبون على عياداتهم أنهم حصلوا على درجة الدكتوراة..! يتركون هذه الأمور للصغار كي يتفاخروا بها بينما هم قد وصلوا إلى الأستاذيّة وهو ما يجعلهم يستغنون عن هذا التفاخر، الذي هو بالفعل صغير بالنسبة لهم.

فكرتُ في هذا حين لاحظت أن الله عز وجل قد أنزل القرآن على البدوي العربي القابع في صحرائه فلم يقل له: لعلمك هناك مجرة وهناك ذرّة، ولكنك لا تدري..! هناك عالم خفي تمامًا عنك، هناك معجزات في الخلق لا يمكنك أن تتخيلها..!

لا، لا يحتاج الإله حين يتكلم إلى هذا..! يستطيع أن يبهر هذا العربي تمامًا من واقع صحرائه وأنعامه وخيامه، لا يحتاج إلى أن ينظر إلى ما وراء زمنه وكأنه لا توجد معجزات كافية في زمنه..!

لا يحتاج الإنسان إلى أن يقدّر قدرة الله في مخلوقات بعيدة تمامًا عنه مكانًا وزمانًا، وكأن ما خلقه الله من حوله غير كافٍ..!

في المقابل كان ما قاله الله عز وجل لهذا العربي القديم: فقط، انظر بجانبك..! ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ..

وحين أراد الله عز وجل أن يجعله يعتبر بمن سبقه لم يقص عليه القصص التي لا ندري عنها شيئًا والخاصة بالأنبياء الذين أرسلوا إلى أستراليا أو النبي الذي بُعِثَ في الهنود الحمر..

بل حدّثه عن القوم الذين كانوا يسكنون المساكن التي يسكنها الآن، الذين تبلغ ديارهم مسافة عدة أيام من داره، الذين يمر على آثارهم في أسفاره: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.. ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾..

لماذا..؟؟ لأن الإله لا يحتاج إلى أن يتفاخر بما لا يعلمه هذا الأعرابي ولا يبلغ عقله.. بل كل خلقه معجز، كل عقابه شديد، كل سننه ماضية، كل عِبَرِه مبكية..!

فقط، انظر بجانبك..!

صورة جدي الغامضة

أنظر إليها في عجب، إنها عمتي فلماذا أشعر أنها بعيدة إلى ذلك الحد..؟!

كانت تلعب وتأكل وتنام وتصحو مع أبي في بيت واحد، وبرغم ذلك فإنه لو سألني جورج قرداحي في سؤال المليون أن أذكر ثلاث معلومات عنها، لانسحبت.

يأتي حفيدها ليلطخ ملابسي بالطين ويشرب مياهي الغازية ويتجشأ، بالنسبة لها هو أهم إنسان في الكون وهي تظن أنني أهيم به حبًا أنا الآخر ويصيبني الأرق ليلًا من التفكير فيه بينما أنا مستعد لمبادلته راضيًا ببعض الترمس من عند عم مصطفى..!

من خلفها يقف جدي شامخًا في صورة تذكارية عملاقة، أنا أحمل اسم ذلك الرجل، وجيناته تمرح في كل خلية من جسدي، وبرغم ذلك أحمل له صورة مبهمة مجملة مختصرة بشدة، بينما أعرف عن عم مصطفى أكثر مما أعرفه عنه..

لا أحسب أبدًا أن النسخة الإعدادية من أبي كان يتخيل أن حياته كلها ستكون في بلدة لا يعرف هو وقتها أنها كانت موجودة، أو أن أبناءه سينظرون تلك النظرة الحائرة إلى أبيه الذي هو الآن ملء سمعه وبصره، وأنهم قد يخفقون في معرفة العدد الذي يملكونه من أبناء العمومة..

لشدّ ما تخدعنا الحياة حين توهمنا أنها ستطاوعنا الآن في خطانا التي حسبنا أننا نسير فيها، لشدّ ما تسخر منّا حين ننظر إلى صديق مقرّب قائلين في أنفسنا: "لن نفترق حتمًا"، أو حين

نظن أننا نعلم ما يضرّنا وما ينفعنا، وما يسعدنا وما يحزننا، حين نظن أننا نملك قلوبنا ثم نظن أنها لا تخطئ، حين نخطط في قلق من الغد بينما لا نعلم أي شيء عن مفاجآته، حين تتراقص قلوبنا فرحًا بتلك الأمنية التي تحققت، أو تنسكب دموعنا لفوات ذلك المأمول. دون أن نعلم أن هذه الأمنية، أو تلك المأمول قد يكونا إلى الجحيم أقرب..!

نحن نجهل كل شيء، وأكبر جهلنا يتجلى في كل ما يتعلق بحياتنا نحن..! بينما الحال مع الله عز وجل جدًا مختلف، فالله يعلم..!

يعلم ما في الشهادة، ويعلم ما في الغيوب، يعلم على أيّ حالٍ ستنتهي يومك، في أيّ مجال سيجول خاطرك الآن، في أي مكان سوف ترسو سفينتك غدًا، يعلم في أي سحابة تقبع نقطة الماء التي ستروي عطشك في يومٍ ما بعد العودة متعبًا من العمل، يعلم اسم اللحّاد الذي سيقلبك على يمينك في قبرك، يعلم ثمرات الحياة السامة التي سوف تمرضك، ويعلم كل شيء عن أدويتك مارة المذاق..!

إنها حقيقة نختبرها في كل حين، حقيقة أن البون الشاسع بين جهلنا المطبق وبين علم الله الحكيم، لا يعطينا أبدًا الحق في الشكوى من أي شيء يصيبنا منه، هذا البون الشاسع لا نملك معه إلا أن يقودنا إلى الرضا الغريب عن كل ما نكرهه، إلى التصديق الأعمى بكل ما يقوله، إلى الاستسلام الكامل لكل أمر، إلى الحذر البالِغ من كل نهي.. يدفعنا إلى رؤية الحق والخير في كل ما يقذفه إلينا من تشريع أو تقدير، لماذا؟ لأنه يعلم ما تجهله القلوب.. ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾..!

في تمام الساعة التاسعة

لطيفة هي ثقة (جيمس آشر) الأيرلندي في ١٦٥٠ حين كان يتولى منصب رئيس أساقفة أرماج لما استنتج من حساب تواريخ المواليد في الإنجيل أن الله قد خلق آدم في العام ٤٠٠٤ تمامًا قبل ميلاد المسيح عليهما السلام..!

ويبدو أن هذا التاريخ كان فضفاضًا أكثر من اللازم بالنسبة إلى (جون لايتفوت) الإنجليزي من جامعة كامبريدج، فعدّل على آشر وأعلن أن خلق آدم عليه السلام تم في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق.م. في تمام الساعة التاسعة صباحًا..! لم نكن نعلم أن السماء تتبع توقيت جرينتش ولكن لايتفوت كان واثقًا من ذلك على كل حال..

بطبعي أنفر من مقدار معين من الثقة، شخصيًا أعتبر أن الثقة في النفس يجب أن تكون بمقدار صغير ومحسوب للغاية وإلا أفسدت كل شيء، وكما يقولون: لولا ذلك الرجل المتشكك الذي اخترع الـ (باراشوت) لكنا عانينا كثيرًا من المتفائل الذي اخترع الطيران..

المشكلة الأكبر تبدأ حين يتم دمج هذه الثقة غير المفهومة بالحسابات الدينية، ما فعله آشر ولايتفوت شبيه بما نفعله نحن حين نجزم بأن النصر على اليهود (على وصول)، وأن الظالمين سوف نراهم قريبًا هالكين، وبالطبع لو تحجبت النساء فسوف يرتفع الغلاء..!

لا أدري لماذا يتساهل أحدهم في تعيين نفسه كمتحدث رسمي عن الإله، أو يقوم بتلاوة بيان عاجل وصله من كتبة القدر بطريقة ما؟! وهل يا ترى من يوجب على الله طريقة

(كليشيهيّة) محببة إلى نفسه في تدبير الأمور قد راعى مقام عبوديته بين يدي الله الذي وحده بيده كل شيء؟!

في غزوة بدر أخذ النبي ﷺ يدعو ويتضرع أن ينصره الله على الأعداء حتى أنه لم يلتقط رداءه الواقع عن كتفه، ثم لما نزل عليه جبريل بالوحي أن النصر سيكون لهم، وقتها -فقط- استبشر وبشّر المسلمين بذلك.. أظن أنه لو كان هناك بَشريّ تجب على الله نصرته لكان خاتم الأنبياء، ولكنه ﷺ كان أفقه من أن يوجب على الله شيئًا لم يوجبه على نفسه..!

يدعو أحدهم بدعاء ثم لا يستجاب فيقول إذن الله لا يسمعني! يرى بعضهم حال المسلمين البائس فيقول إذن الله لا يحبهم! يتعجبون من نوم الظالمين الآمن في فراشهم فيقولون إذن الله غير موجود!

كفوا عن مجموعة الوعود الوهمية في عقولكم التي لم يعطها الله فعلًا لنا..! كفوا عن صكوك الأمان المغشوشة التي نتناقلها بثقة وننسى أننا نحن من كتبناها..! كفوا عن ادّعاء معرفة الطريقة الحصرية التي بها يُقدر الله لنا المقادير..!

في موقع الإنسان من الإله فهو مفعول به مرفوع بالقضاء مكسور بالفقر منصوب على مصيره مجزوم على نفاذ كلمة الله فيه..

في موقع الإنسان من الله نحن نسمع ثم نخضع ثم نركع ثم يقول بعضنا لبعض: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾..

كيف تفسد البحتري؟

لا يوجد من يعقّد الفن مثل هؤلاء الذين يحاولون تقعيده..! مثلًا حين تشاهد لوحة جميلة مريحة للعين والأعصاب، فهذا منظر جميل، لقد صنعها الفنان ليبهجني وحصل على مبتغاه، وانتهت القصة عند هذا الحد، شكرًا لكم.. لكن يصر واحد من هؤلاء على أن يذكرك بأن هذه اللوحة رُسِمَت في العصر كذا والذي كان لا يؤمن بـ كذا، لذلك فهي تعبر عن بلابلابلابلا.. أجزم أن ذلك الذي رسمها لم يكن يعلم كل ذلك، لقد رسمها من أجل أن يبيعها ليطعم أولاده، وهذه البقعة لا تمثل إيمانه بالبوهيمية وإنما كانت بقعة زيت من بقايا البطاطس أيها البائس..! من فضلك دعنا نستمتع بهدوء، لقد عقّدتم الحياة بأكملها، وترفضون أن تتركوا لنا بقعة واحدة هادئة بسيطة..

بالمثل لا أذكر أني استمتعت أبدًا بدروس (تاريخ الأدب) في الثانوية العامة، شعر (البحتري) رائع حين تقرؤه عل فراشك في ليلة ممطرة، لكنه يتحول إلى كتلة من التعاسة في رأيي حين يندمج بتاريخ الدولة العباسية والصراعات السياسية التي أثرت عليه وتظهر آثارها في قصيدة وصف الربيع.. لماذا تكرهني؟!

بالطبع لا أُقلّل قيمة الدراسة الأكاديميّة للفنّ، ولا النقد الأدبي التاريخي، هي علوم محترمة ولها مريدوها، ولكني حتمًا لا أستمتع بهما قدر استمتاعي بالفن أو بالأدب نفسه..!

الحد الأدنى من تذوّق البلاغة قد لا يحتاج بالضرورة إلى شاعر ولا إلى لغوي ولا إلى فصيح، وبالتأكيد لا يحتاج إلى مؤرخ أو أكاديمي.. البلاغة مخلوق في الإنسان جهاز استقبال

لها يعرفها وهي قادمة ويهشّ لها ويبشّ، وترحل وهو قد تم إطرابه وإنعاشه.. وربما لهذا اعتاد الشعراء أن يحتلوا الجهاز الإعلامي كله بين العامة من الناس في العصور الوسطى والقديمة، انحسر هذا الدور الآن عنهم وتخلوا عنه للأفلام الهوليودية التي بالتأكيد ستتفوق عليهم في سحر مؤثراتها الآخذة.

المحسنات البديعية والجناس والاختصار والقصر والتقديم والتأخير والتشبيهات البلاغية والصور والقوافي يعشقها الناس جميعًا، خصوصًا هؤلاء الذين يعشقونها من دون أن يعلموا أن اسمها المحسنات البديعية..! يمكنك أن تختبر ذلك بالنظر إلى القصائد والأغاني -حتى الهابطة منها- التي تشتهر وسط العوام لترى أنها مليئة بالقوافي، والتقطيعات الموسيقية للألفاظ..!

ولأن القرآن قد نزل ليخاطب الناس على اختلاف مشاربهم، تجده أبلغ ما يكون حتى يوافق حبهم لهذه البلاغة، ولأن الذي خلقهم يعلم ذلك منهم: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾..

الله عز وجل قد أنزل القرآن إذن يوافق حبك وتفضيلاتك للأمور. يحب الله تعالى لك إذن أن تنتفع فعلًا بهذا الكتاب..! يريد الله سبحانه لك فعلًا أن تتخذه ربيعًا لقلبك فسهّل لقلبك الوصول إليه..! يأمرك الله عز وجل بأن تراجع موقفك تجاه كتابه الذي يسره للذكر، حين دعاك لأن تكون له أول مدّكر..!

الذي لم يقتله مائة نفس

نظر له بسخرية وقال: "إذن أنت تظن أن هذه هي حكاية أخرى من حكايات الوعظ وقصص التائبين.. تظن أنني أكرر معك ما فعله قاتل المائة نفس وأشياء على هذه الشاكلة.. تظن أني تائب منكسر وأنت الشيخ الذي يقنعني بأن الله يقبل توبة التائبين..! ومن تظن نفسك حتى تعتقد أني بحاجة لك كي يقنعني بأن الله يقبل توبة التائبين"..

تبسّم الآخر بهدوء وهمّ بأن يقول شيئًا ذكيًا لكن على ما يبدو لم يجد شيئًا يقوله والتزم الصمت.. ثم في النهاية قال بيأس من يعلم بأن ما يقوله على الأرجح لن يكون بهذا الذكاء: "صدقني، أنا أفهم ما تتكلم عنه، أنت لا تريد التوبة فعلًا، أنت فقط تريد أحدًا ما يخبرك بأن الله يقبل غير التائبين..! أنت تريد لأحدهم يطمئنك بأنه ثمة أمل لهؤلاء الذين لا يستحقون أدنى قدر من الأمل، أنه ثمّة رحمة لأولئك الذين لم يفعلوا شيئًا لهذه الرحمة.. أنا أفهم ما تفكر فيه، أنت لا تريد أن تتدين فعلًا، أنت فقط تريد أن تطمئن.. ولكن حظك السعيد – أو التعيس، لا أعلم بالضبط – أوقعك في مقدار كافٍ من العلم تجعلك تفطن إلى أن هذا غير موجود، أنك تمارس مع نفسك أخطر أنواع الخداع، وأنه وقت موتك لن تكون سعيدًا حقًا كما كنت تظن في أحلام اليقظة خاصتك، أنت كنت تحلم أن تموت ساجدًا، أو على دفّتي كتاب عظيم ما، حتى وإن كنت غير مؤمن فأنت كنت تحلم بأن تموت ميتة بطولية كجيفارا وتصير أيقونة مُخلّدة.. أنت الآن قد كبرت ونضجت بشكل كافٍ وعلمت أنك ستموت على الأرجح في حادث عبثي على طريق سفر غير مهم إلى هذا الحد.. لذلك أتت

لك هذه الفكرة العابرة وسألتني عنها قبل قليل: إلى أي مدى تتسع رحمة الله..؟ كنت تريد أن تتأكد إن كان ما نسجته في خيالك من قيمتك سيكون وهمًا أم حقيقة، في النهاية لا شيء سيهم حقًا بعد أن نغمض جفوننا للمرة الأخيرة غير هذا السؤال: إلى أي مدى سوف تتسع رحمة الله.. لذلك يا صاحبي صببت جام غضبك علي حين ابتسمت لك في رأفة مصطنعة، وهي مصطنعة فعلًا لأني لا أعرفك، وقلتُ لك: "المدى هو كل شيء".. أنت ظننت أن هذه أحد قصص التوبة، بينما أنا أعلم أن موقفنا الحالي أكثر دراميَّةً وحزنًا من أن تكون هذه مجرد قصة توبة أخرى"..

لم يرد عليه.. فأكمل هو: "دائمًا هناك أمل، وبخصوص حالتك أنت فهناك سببان لهذا الأمل، أول سبب أنك لم تمت بعد، وتملك كل فرص الدنيا".. ثم سكت، وبعد فترة صمت همّ بالانصراف وقال له: "وأما السبب الثاني، أنك مازلت تسأل، مازلت تهتم"..!

ثم بدأ في الانصراف فعلًا..

ناداه قبل أن يبتعد وبصوت عالٍ قال له: "أنا لا أهتم إلى هذا الحد.. سؤالي لك كان عابرًا فعلًا، مبناه الحزن لا أكثر، كسرتني الحياة قليلًا وفكرتُ فيه، غالبًا سوف أنسى كل شيء حين تعود إليّ فرحتي"..

التفت له وقال: "دائمًا الأشياء التي تخرج لنا حين يحفر بداخلنا الحزن هي تلك الأشياء التي بباطننا حقًا ونحاول أن نخفيها.. لربما أنت تهتم أكثر مما تظن"..!

أنت تنتمي

يحكي الصينيون عن زمن أثناء حكم سلالة [هيسا] (٢٢٠٥-١٧٨٢ ق.م) أنه تغيرت بيئة الكون بشكل مفاجئ، وظهرت عشرات الشموس في السماء، وعانى الناس على الأرض بشكل كبير، فأمر الإمبراطور أحد رماة السهام المهرة بإسقاط تلك الشموس الزائدة، فلما فعل كافأه بحبة لو تناولها فإنه ينال بها الخلود، ولكن زوجته سرقتها منه، ونُفيَت بسبب هذه الجريمة إلى القمر..!

ما كل هذا الإبداع؟ أم تراه الأفيون؟ ولكن على كل حال، لم يكن علينا أيها الصينيون أن نبتكر هذه القصة لنثبت أننا محظوظون بشمسنا..! فنحن نعلم الآن أن وقوع (حظنا) في نجم متوسط الحجم كان مناسبًا تمامًا للمعدّل المتوازن الذي تفنى فيه الغازات المكوّنة للشمس.. ونعلم أن الأرض أيضًا في موضع مثالي تمامًا بالنسبة إليها، فالشريط الصغير الذي تقع فيه الأرض حول الشمس والذي يُدعى باسم Goldilocks Zone ضيق للغاية، لا بد للأرض أن توجد في هذا الشريط -الذي هو صغير جدًا بالمقارنة بالمسافة التي تفصلها عن الشمس- بحيث لا ترتفع الحرارة فيها لدرجة تبخّر مياه المحيطات ولا تنخفض للدرجة التي يتجمد بسببها كل شيء.. وجود الأرض في هذا الشريط الضيّق كان بسبب حسابات دقيقة جدًا تمت لكتلتها وحجمها وشكلها شبه الكروي..

يتكون جسدك بشكل رئيسي من الكربون، ولا تستطيع أن تنجو عدة دقائق بدون الأكسجين، فيكفيك أن تعلم أن لو كانت القوة النووية الكونية القوية تغيرت بقيمة ٠,٥٪

عن قيمتها الفعليّة، لما تكوّنت أي ذرة كربون أو أكسجين في المراحل المبكرة للكون بفرض أننا اعتمدنا نموذج الانفجار الكبير..! بينما لو كانت البروتونات في ذرات جسدك أثقل بنسبة ٠,٢٪ من كتلتها لتحللت إلى نيوترونات، ولما كنتَ شيئًا مذكورًا..!

يمكنك أن تشعر في لحظات معينة من حياتك أنك عديم القيمة..! أنك لو لم تكن قد خُلقتَ لما حدث أي شيء على الإطلاق..! تشعر في لحظة من لحظات انعدام التوازن، وتذبذب اليقين، واسوداد المشاعر، أنك وببساطة غير مهم Insignificant.

لكن حين تفكر في هذه التفاصيل العلمية البسيطة، أو تفكر في قيومية الله عز وجل في كل نسبة هرمونية، أو توافقات إنزيمية، أو توازن حمضي قاعدي في جسدك، حينها تشعر بالأهمية. تشعر بإرادة الله لك أنت بالذات أن توجد، وأن تبقى على قيد الحياة، وأن تكون أنت لا أحد آخر..! بكل تلك التفاصيل الصغيرة التي تشعر بالخجل منها، أنت الذي ينام مع صوت شخير يصم آذان الجيران، أنت الذي يحتاج إلى طبقين من الأرز حتى ترضى عنه معدته، أنت الذي له مشية مضحكة، أو نظرة مرعبة، أو نكات سخيفة..!

أنت لست بغير ذي قيمة على الإطلاق.. أنت إنسانٌ وُجِدَ بمقاييس دقيقة، واختير من بين الملايين الذين لم يولدوا بعد، والذين لن يولدوا أبدًا، وأُريدَ له بالذات أن يكون هُوَ..! كما يقول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ❊ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾..

أنت رقم عند الإله! أنت معدود، أنت مراقب، أنت معتنى بك، أنت لست بدخيل ولا غريب، بل الله هو من أراد بأن يأتي بك هنا.. أنت تنتمي إلى ملكوت الإله..!

أنا آسف

يا رب أنا آسفٌ..! ها أنا ذا أتذكر نفسي وقد احترتُ حين قرأتُ في كتابك أنك سميع الدعاء.. يا رب أعلم أنك سمعتني حين تكلمت بغير صوت وقلت: ولكني كثيرًا ما دعوتُ فما وجدتُ كثير إجابة..

يا رب أنا آسف، فقد تذكرتُ الآن..! تذكرتُ حين كنت أدعوك منذ سنين لا أذكرها، أن ترزقني بالبيت الساكن، والزوجة الحنون، والرزق الحلال.. تذكرت حين دعوتك بتيسير العمل، وتيسير العلم، وتغيير الحال.. تذكرتُ حين كنت أدعوك من عدة شهور بأشياء صارت لي الآن..

يا رب أنا آسفٌ لك حين أجبتَ دعائي فنسيتُ أنا بأن هذا كان دعائي وقلتُ بلسان حالي: هذا هو المسار الطبيعي لحاجتي..! أنا آسف لأني ظننت أنها مجرد نعمة منك، ولم أذكر إلا متأخرًا بأنها كانت نعمة مخصوصة اخترتها أنا ودعوتُ بها وأنت استجبت..! ثم أتيت بعدها يا رب واحترتُ كيف إنك سميع الدعاء.. فيا رب أنا آسفٌ..

ها أنا ذا أتذكر حين كنتُ أدعوكَ جاهدًا بأشياء لم تصبح لي بعدها، أتذكر كيف دعوتُك بأن تيسر لي عملي في مكان ما، وجاءني مكان آخر، حينها تضايقت، نعم يا ربي تضايقتُ لأني كنت أريد ما طلبتُه أنا..! أتذكر يا رب الآن كيف أنك بعدها بأسبوع أعطيتني ما ييسر لي بأن أختار بين المكانين بموافقة الجهات المعنيّة، ثم راقبتني وأنا أختار بإرادتي ذلك الذي كنتَ لي اخترتَ من البداية، بعدما تبين لي بعد قليل تفكير أنه كان أفضل..! كنت يا رب

أدعوك بالحسن، فلم تعطني الحسن، ولكنك أعطيتني الأحسن! ثم يا رب ماذا فعلتُ أنا..؟ لقد احترتُ حين قرأت بأنك سميع الدعاء.. فيا رب آسف..!

آسف لأني تذكرتُ الآن كيف دعوتُك أن تنجيني من مأزق كبير، ثم التفتُّ خلفي فوجدتُه انتهى..! انتهى سريعًا حتى قلتُ في نفسي: كان الأمر بسيطًا، أتراه كان يستحق كل هذا التضرع مني؟! كانت إجابة دعائك لي أسرع من أن تدعني قليلًا كي أنتظرها..!

أو كتلك المرات الأخرى حين كنت أقول على قارعة الطريق: اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل.. قلتُ في نفسي في أحد هذه المرات، وهل يُجدي هذا الدعاء..؟ ها أنا ذا أتذكر الآن أني لم أُصب بسوء في أي سفر، ولم أرجع إلى أهلي فوجدت ضررًا أصابهم، لقد كنتَ تسمعني في كل مرة أدعوك فيها، لقد كنتَ صاحبي في السفر وخليفتي في الأهل، ولكني يا ربي أنا لما قرأتُ أنك سميع الدعاء احترت.. فيا رب أنا آسف..!

يا رب لا أذكر مرة دخلتُ فيها المشفى مع قريب لي مريض إلا ودعوتُك بأن تخرجه وقد شُفي، كان يا ربي بعد ذلك يخرج في كل مرة..! يا رب لا أذكر مرة عصيتُك فيها سرًا ثم دعوتُك أن تسترني، إلا وكنتَ تسترني في كل مرة..! يا رب لا أذكر أني دعوتُك على طعام بأن تبارك لي فيه إلا وقد شبعتُ في كل مرة..! يا رب لا أذكر أني بكيتُ في سجودي بأن تريحني من الهمّ إلا وقد ارتحتُ من همومي قبل أن أنصرف حتى من الصلاة..!

يا رب كنتُ دائمًا أسأل وكنتَ أنت تجيب، ثم إني بعدها لما قرأتُ أنك سميع الدعاء احترتُ، فيا ربُّ أنا آسف..!

الدَهْوَلة

في اللحظات التي تستيقظ فيها من نومك في الصباح تمرّ بمرحلة من حياتك أحب أن أسميها: (الدَهْوَلة)..! أنت لا تعلم من أنت ولا ما أنت..؟ هل أنا جزء منفصل عن السرير الذي أنام عليه؟؟ نعم بدأت أتذكر، أنا كائن مستقل له وجود منفصل..!

ثم من هي هذه المرأة التي توقظك والتي لم ترها من قبل في حياتك..؟ هي تصرّ على أنها أمك منذ فترة لا بأس بها من الزمن..!

تنظر لها بعينين حمراوين كالبنجر محاولًا أن تتذكر ما كانت خطة (تيمور لانك) في محاربة (دارث فيدر) على ظهر (الفيل دامبو) قبل أن تدرك أن هذا كله حلم متخلّف، وأن هذه هي أمك بالفعل..! وتبدأ حواسك كلها في العودة ببطء لتدرك أنك تحتاج إلى ملء معدتك وإفراغ مثانتك ومطّ عضلاتك..!

على مائدة الإفطار، تعال نحلل ظاهرة (الدَهْوَلَة) هذه.. أنت كنت في حالة هلامية غير مفهومة، عالم الأحلام والسبات النومي الذي هو انقطاع بحق عن الحياة التي اعتدناها..

كنت دائمًا أسخر سرًا من كُتّاب الروايات الذين يجعلون بطل روايتهم يحاول التأكد إن كان هو في حلم أم حقيقة، ويضيّع الأحمق نصف الرواية في محاولة التفكير في هذا اللغز بينما لا أحد يخلط في يقظته بين الحقيقة والحلم حقًا إلا لو كان مصابًا بـ Delirium كامل..!

أنت في واقعك تشعر بالموجودات كلها حولك وتشعر بنفسك لتدرك أن هذا كله حقيقي تمامًا، وهو الفرق بين الحالة التي أنت فيها الآن تستمتع بأكل لقيمات البيض المقليّ وبين الحالة التي كنت فيها تطير فوق فيل مكتنز كبير الأذنين لتشارك في حرب النجوم.. الحالة الواقعية التي تَخبُرُها الآن تميزها حواسك تمامًا وتجعلك تفصل بين الحلم واليقظة وبين المرض والصحة.. هي الأساس الذي تقيس عليه كل ما سواه إن كان واقعيًا أم لا..

فالقرآن كما اعتدنا يفهمك وتفهمه حين يقول الله عز وجل: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾.. أي أن ما نعدكم به من الحياة الآخرة، لا شك فيه، سيكون الأمر حقيقيًا تمامًا وواقعيًا بشدة كمثل يقينكم في أنكم تنطقون الآن وتتكلمون..! كمثل ثقتكم في حواسكم التي تشعركم بأنكم موجودون في هذا العالم.. أليست هذه اللغة التي نتحدث بها..؟ أليس هذا هو الذي نقيس عليه واقعيّة الأمور..؟

ليس هذا وفقط، ولكن القرآن أيضًا يؤكد لك أنك ستعيش مثل هذه الحالة الواقعية في الدار الآخرة للدرجة التي ستشعر فيها أنها إكمال لحياتك التي تعيشها الآن.. ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾..

ستشعر وكأن الفرق بين معيشتك في الجنة إن شاء الله ومعيشتك في تلك الغرفة الصغيرة في أحد أحياء (بولاق) كالفرق بين الأمس واليوم، حتى إنك ستتذكر كل التفاصيل، بل ستتذكر مشاعرك التي كانت وقتها، حياة واقعيّة هنا، وحياة واقعيّة هناك..

دوافع الفوتورسيك

ماذا لو قلت لك بأنه في إحدى الشركات النرويجية تعثر عامل نظافة فكسر مجموعة من الكريستالات يملكها مدير الشركة، كان يعرف أن المدير سيطرده بسبب ذلك وهو كان بحاجة للعمل لإطعام أطفاله، ولم يكن عنده حل لإتقاء غضب المدير إلا بأن كسر عمدًا يده اليمنى وزعم أنها قد كُسرت بسبب عثرته، حتى يفلت من عقاب المدير باعتبار أن المدير لن يعاقب رجلًا مصابًا بهذا الشكل وبالتأكيد سيرحمه، لم يلتئم الكسر بعد ذلك وصارت يده بعاهة طوال عمره، الجميل أن هذا العامل صار بعد ذلك رئيسًا لمصنع (فوتورسيل) أكبر مصانع النرويج لتصنيع الكريستال، وجعل (اليد) هو شعار ولوجو المصنع، إشارةً إلى يده التي فقدها في سبيل الكريستال..! قصة عجيبة جدًا ومؤثرة، وهي أيضًا غير حقيقية ومُختَلَقة بالكامل وقد ألفتُها حالًا..!

لو بحثت عن السبب الذي جعلك تصدق هذه القصة بأنها حقيقية ستجد أنه بالتأكيد ليس براعة القصة، إذ إن الكريستال ليس غاليًا لهذه الدرجة كي يضحي العامل بيده، واسم فوتورسيل مضحك جدًا كما لاحظتَ، هذا غير أن فرصة عامل نظافة في أن يصير صاحب مصنع كبير ليست سهلة إلى الحد الذي يقنعنا به روّاد التنمية البشرية..

السبب الذي جعلك تصدق القصة أنه لا داعي لها فعلًا..! كل دوافع الكذب المفهومة لا تصلح دافعًا لهذه القصة الغبيّة، لم تجعلني قصة الكريستال أبدو أظرف أو أذكى أو أكثر علمًا وثقافة، لن أجني شيئًا من اختلاقها على الإطلاق.. لذلك لابد أنها حقيقية..!

نتفق جميعًا لا شعوريًا على أهمية وجود الدافع والمحرّك لأي إثم أو فعل مشين، ولأن الله عز وجل يعلم وساوس أنفسنا فهو قد جعل أوسع مغفرته لهؤلاء الذين يملكون أكبر دواعي المعصية، وجعل أشد عذابه لهؤلاء الذين يملكون أضعف هذه الدواعي..

مثل ما ذكر لنا النبي ﷺ عن بعض المجرمين الذين لا ينظر الله حتى إليهم يوم القيامة فكان منهم: الفقير المستكبر، والعجوز الزاني.. إنهم صنف المذنبين الذين تحب أن تقول لهم: (وعلى إيه يا حسرة؟!) انتفت دواعي معصيتهم فصاروا في نظر الإله أسوأ بكثير من المعتاد، إنهم يحبون أن يعصوا الله حتى لو لم يكن هناك سبب لهذا..!

لو فتشت في نفسك لوجدت لديك الكثير من المعاصي تندرج تحت هذا النوع..! الكذبة التي قلتها لتُضحك جلساءك أو تبدو خبيرًا ببواطن الأمور، والسبة التي ألقيتها عن سائق سيارة أجرة اعترض طريقك في الشارع دون أن تكون غضبانًا حقًا من فعلته، والفيلم الهابط الممل المليء بالرقصات الذي شاهدته برغم أنه يثير اشمئزازك فعلًا.. كل هذه الذنوب مكتوبة كلها يا صديقي برغم أنك لم تشعر بكبير لذة في فعلها حتى ظننت وكأنك لن تُحاسب عليها، بينما في الحقيقة حسابك عليها حسابان، مرة لأنك أذنبت، ومرة لأن إيمانك كان أضعف من أن يحتاج إلى سبب كبير لتحريكه عن مبادئه..!

وهل معاصينا قليلة حتى نضيف إليها تلك التي ليس لها كبير داعٍ..؟! وهل ذنوبنا عند الميزان خفيفة الثقل فلا نعبأ من أن نضيف إليها المزيد بدون كبير سبب؟! وهل حبنا لله وخوفنا منه أقل فعلًا من تلك الآثام التي لم يكن الاحتراز منها صعبًا إلى هذا الحد؟!

مساكين اللامبورجيني

أظن أنه الكاتب الساخر (محمود سعدني) -ولست متأكدًا- الذي حكى عن موقفه حين كان في الحافلة العامة التي تحمل على متنها مجموعة مكدّسة كانت سابقًا من البشر وصارت كتلة من اللحوم والعرق و(الفرهدة)، وبينما هم كذلك إذ مرّ بجانبهم شاب صغير عابث في سيارة فارهة ثم نظر إليهم من شباك السيارة، وكله رضا عن نفسه بأنه (ابن الباشا) الموجود في المكان، ثم أتت سيارة أجمل وأكبر مرت بجانبه وألقى صاحبها (ابن الباشا الأكبر) عليه نفس النظرة وانطلق سريعًا.. على الفور شعر مع بقية ركاب الحافلة بالشفقة على هذا الشاب الذي يملك السيارة الأبطأ، وليس على أنفسهم..!

ربما تكون أشهر الحِكَم اللزجة هي تلك التي تقول أن السعادة ليست في المال، وهي حكمة لزجة لأنها صحيحة ولكنها غير مكتملة.. وثمّة رجل ذكي أكّد لنا أنه برغم أن السعادة ليست في المال فعلًا ولكننا نحب أن نبكي حزنًا على متن سيارة مرسيدس بدلًا من درجة قطار (مميزة) لا تتميز فعلًا إلا برائحة نشادر نعرف جميعًا من أين جاءت..

المال وغيره من (المادة) بكل ما تحويه من متعة هاتفك الحديث ومنزلك الفاخر ووجبة عشائك الدسمة وجمال زوجتك الحسناء هو من مسببات السعادة الهامة طبعًا، ولكن الإنسان -ذلك الكائن المعقّد نفسيًا- أكثر غباءً من أن يقنع بما يملكه منها، وسينغّص عليه دائمًا ذلك الشعور بالفقد والألم الناتج عن أجزاء المادة الأخرى التي يراها تمر أمامه ويضيع معها الكثير من السعادة التي كانت من الممكن أن تكون له..!

الألم في حقيقته واحد، والشعور بأن ثمّة ما ينقصك هو شعور لئيم بغض النظر عن إن كان ما ينقصك هو الركوب في درجة مُكيّفة من القطار العام أو امتلاك (لامبورجيني) بدلًا من المرسيدس..!

ولأنك لن تمتلك كل المادة في العالم، ولأنك لن تسبح في شواطئ جميع الجزر التي تزين خلفية حاسوبك، ولأنك لن تأكل كل ما هو لذيذ من الطعام، ولأنك لن تتزوج من جميع الحسناوات.. لأنه سيكون دائمًا هناك ما ينقصك، فأنت سوف تعيش في الألم باستمرار وتتلقى صفعات الحياة في كل صباح..

إلا إذا كان نظرك أوسع من تلك المتاهة الدائمة، وكانت روحك أسمى من تلك المادة المراوغة، وكان إيمانك أكبر من أن يضيع في اللهاث..! إذا لم تكن أعقل من الوقوع في فخ الجشع فسوف تحكم عليك الحياة بعقوبة أبدية تقضيها في سجن الألم، هو نوع جديد من الألم، أن تتألم بسبب ما تراه من اللذائذ..!

هذا حكم بلا استئناف أو نقض، لسبب بسيط، أنك أنت من حكمت به على نفسك..! هذا سجن ليس له باب ولا سور قد دخلته أنت بقدميك فلا يوجد من يخرجك منه لأنك لا تحتاج في ذلك إلى غيرك..! هذا جزاء وفاق من الله عز وجل لكل من زهد في بقيّته التي أبقاها له واشرأبّ بعنقه إلى كل شيء قضاه لغيره..!

ربما كان هذا هو بعض ما عناه (شعيب) عليه السلام حين نادى في قومه: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾..

الشاورما والدنانير

من بين جميع الأفعال الغبيّة للكائنات البشرية التي تملأ التاريخ، تثير عجبي بشكل خاص (سرّة الدنانير) السمينة التي يكافئ بها الملك ذلك الشخص الذي يدخل عليه ليشرح كيف أنه أعظم ملك في العالم..! وكل هذا المال هو من قوت الشعب المسكين بالمناسبة..! يبدو أن هذا هو أقدم مثال للعبارة الخالدة: (أراك تبقشش من جيب أمك)..!

لكني قدّرتُ أن الملك يحاول أن يثبت عظمته بمكافأة من يحسن إليه بما يفوق كثيرًا ذلك الإحسان.. لابدّ أن هذا أشعره أنه أعظم ملك في العالم بالفعل.

يرتبط هذا في ذهني بشكل ما بـ (شطيرة الشاورما)..! فهي ذات شعبيّة كبيرة، ولابد أن كثيرًا ممن يأكلها يشعر بمقدار من اللذة تجعله ممتنًّا بالفعل لذلك الشيف العظيم الذي مسّ شغاف قلبه.. ولكني أتساءل عن عدد هؤلاء الذين سيمتنّون لسنابل القمح التي أنتجت هذا الخبز الرقيق الهشّ.. ولحمض الخلّيك الذي سمح لهم بالاستمتاع بطعم (المخلّل).. ولاجتهاد ضوء الشمس في دوام عمله الذي لو قلّ عن ١٢ ساعة ما كانت نبتت أي حبّة بصل.. ولدرجات الحرارة العالية التي سمحت بنموّ حقول الفلفل الأخضر.. ولحموضة تربة الطماطم والتي لم تزد عن ٧ أبدًا ولو على سبيل السهو فسمحت بنموّه.. ولتلك العلاقة الحسابيّة غير المتوازنة بين وزن الدجاجة الثقيل وقوة أجنحتها الضعيفة، فجعلت ذلك الطائر اللذيذ من الدواجن الرخيصة التي تقدر على شرائها، فلابدّ أن (شاورما الحمام) كان سيكون أغلى ثمنًا بكثير..!

كم من الناس سيفطن إلى كمّ المخلوقات التي خلقها الله عز وجل، وكم الظروف، والشروط، والمعايرة، التي ضبطها وهيّأها الله عز وجل، حتى تستطيع أن تأكل هذه الشطيرة فتشعر بلذة الشبع وانتشاء الطعم اللذيذ..! لو وُجِدَ ذلك الذي فكّر في كل هذا وهو في مطعم (عبده ما) فلابد أنه قد قال بقلبه قبل أن يقول بلسانه: "الحمد لله".. ثم لابد أنه شعر بالخجل من نفسه لأنه استقلّ هذه الكلمة البسيطة..!

لذلك كان حديث النبيّ ﷺ الذي يقول فيه: "إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا" من أغرب وأجمل الأحاديث التي سمعتها على الإطلاق.. تبين لي أن الله ليس فقط قد قَبِلَ من ذلك الشخص كلمته البسيطة التي تمتم بها في ثانيتين بعد أن أتى على شطيرته في نهم..! وليس فقط أن الله قد اعتبر أن هذه الكلمة الصغيرة قد قامت مقام الشكر على كل هذه النعم..! وليس فقط أن الله قد اعتبر أن شكرك له على تلبية حاجة جوعك (عملًا) يكافئك عليه أصلًا..! ليس كل هذا فقط.. بل وكان الجزاء الذي ترتب على هذا والمكافأة التي نلتها أعظم بما لا يقاس أو يُتخيل من أي شكر قد تقوم به أصلًا..! المكافأة التي تتمثل في (رضاه)، أي الشيء الذي لا ترجو أن تخرج من دنياك إلا به..!

ذلك لأن الله ليس كذلك الملك الذي بالغ في مكافأته كي يشعر بعظمته، بل هو عظيم بالفعل، عظيم جدًا..! وعلى قدر عظمته كان كرمه.

فافرح بكرم ربك، واحرص على كرم ربك، ثم لا تغترّ بكرم ربك..!

مهندس الديكور الأحمق

بداخل كل منا طفل صغير يتمنى لو كان للحياة لوحة Keyboard..! تخيّل كم اللذات والمتع التي ستحصل عليها لو كان لديك F3 عندما يقرر هاتفك المحمول أن يختبيء أسفل المكتب، ولا يحلو له ذلك إلا لو كان صامتاً..! أو عندما تجد F5 في لحظات السأم والتعب..! تخيل لو تستطيع أن تنسخ من محبيك عدة نسخ وترفعها على بريدك الإلكتروني كاحتياط في حالة فقدتهم..! أو لو كان لديك Anti-Virus لتنظيف كل هؤلاء السخفاء ثقيلي الظل معدومي الوفاء من قلبك..!

تخيل سهولة الحياة لو استطعت أن تضغط على Ctrl+S في كل مرة تذاكر فيها بضعة صفحات من المادة الصعبة سريعة التبخّر والطيران..! تخيل لو تستطيع أن تضغط على Ctrl+Z بعد أن تتلفظ بكلمات غبية تسيء إليك أو إلى أحد أصدقائك في أحد المحافل العامة..! لو كان يكفيِ Alt + Shift كي تتحدث بعدة لغات..! لو استعضنا عن وظيفة الطبيب النفسي بـAlt + Ctrl + Delete ..؟!

أن تتحكم في حياتك، وتأخذ بزمام الأمور، لهو حلم بشري عتيد.. من منا لم يندم أو يتحسر على مفقود؟ من منا لم يتمنى وصل المحبوب؟ من منا لم يبكِ في لحظات الشعور بالضياع، وفقدان الأمل، وينظر حوله في ذهول متسائلاً: ترى ما أحضرني هنا؟

والآن تخيل لو أنك أُعطيتَ هذه القدرة في مساحة محددة هي جسدك..! حاول أن تشكّله كما تشاء..!

أستطيع أن أتخيل أنك ستتصرف بنفس الحماقة التي كنت سأتصرف بها.. ستجد أن كل عضلة من جسدك أقصر من اللازم، أقصر من المسافة بين منشأها Origin ومدخلها Insertion.. تمط شفتيك متعجبًا من ذلك ثم تقوم بمطها إلى الطول المناسب، فقط لتتسبب في ضياع الشدة الانقباضية الدائمة فيها Tone وتضمر هذه العضلات للأبد..! ستحاول تنظيف الأمعاء الخاصة بك من كل هذه البكتيريا Flora التي وجدت أنها تسكنها بشكل دائم، ولكنك ستدرك الخطأ الذي وقعت فيه حين ترى كم الالتهابات التي كانت تحميك منه هذه الطفيليات الكريهة..! ستفكر أنه سيكون لطيفًا لو امتلكت المزيد من مصانع الدم (نخاع العظام)، ستجد أن ليست كل العظام بها نخاع، ستقوم بزرع نخاع بداخل كل عظمة، فينتفخ وجهك وتبرز أسنانك وتتشوه..! ستضاعف قوة جهازك المناعي لتفرّ من أمراض العدوى بالبكتيريا والفيروسات، فقط لتقع في أحضان أمراض المناعة الذاتية حين يبدأ جهازك المناعي الشرس الجديد في مهاجمة خلاياك الخاصة..! ستقوم بإغلاق جميع الفتحات في جماجم الأطفال Fontanelles لحماية مخ الطفل من الصدمات، فقط لتتسبب عن غير قصد في تقهقر نمو مخه وذكائه..!

بعد عدة محاولات خرقاء مثل هذه ستفطن أخيرًا للحقيقة.. أنك لست أفضل من يدبر حال نفسك.. بل على الأرجح أنت أسوأ من يدبر حال نفسك..! لو أن الله قد ترك لك مهمة تدبير جسدك لتسببت في دماره في عدة دقائق.. فلماذا أيها المسكين تظن أنك قادر على تدبير أمر حياتك كلها، وتحزن لأنك لا تستطيع ذلك ..؟!

بل دبّر لنا يا رب فإنا لا نحسن التدبير..!

الفرار إلى سامرّاء

هناك قصة فانتازيّة شهيرة جدًا في التراث الغربي للأديب البريطاني (سومرست موم)، تُدعى (موعد في سامراء)..

وهي عن التاجر الذي يسكن في بغداد وأرسل خادمه إلى السوق، فيرى الخادم ملك الموت يحدق فيه بثبات، ففزع منه وشعر أن موعد موته قد حان.. فامتطى جواده وانطلق يعدو نحو سامرّاء.. فلما رأى التاجرُ ملكَ الموت بعد ذلك سأله لماذا كنت تحدق في خادمي حتى أفزعته..؟ قال لم أقصد أن أخيفه ولكني كنت متعجبًا جدًا من وجوده في بغداد، حيث من المفترض أن أقبض روحه غدًا في سامراء..!

خطرت هذه القصة على ذهني حين فكّرتُ بأن مريض السكر قد يعيش طوال حياته يعاني من ارتفاع السكر في الدم، ثم لا يموت بعدها إلا بغيبوبة نقص السكر..! بينما مرضى الضغط العالي من أسباب موت بعضهم هو (الهبوط) الحاد في الدورة الدموية بعد أن تسبب ضغطهم العالي في نزيف داخلي.. والطفل الذي يعاني من الجفاف، قد لا يقتله إلا الطبيب حين يحاول أن يعيد إليه السوائل بطريقة سريعة..

الهروب إلى سامراء يتكرر في دروس الطب، ولكنه يتكرر أكثر في دروس الحياة ..!

كم من رجل ادّخر أمواله لشراء سيارة فارهة، كانت بعد ذلك تابوته الحديدي السامرّائي على قارعة الطريق..! وكم من مجتهد للوصول إلى كلية، أو درجة وظيفية، أو

مكانة علمية، صارت بالنسبة إليه المعنى المجسّد للفشل واليأس.. وكم من حبيبين قد وصلا في الرومانسية إلى حد اللزوجة، ثم هما الآن في محاكم الطلاق، وعلى وجههما أعتى علامات البؤس والعذاب..! لقد فرّ كل منهما إلى سامراء الخاصة به.

في مدرسة الحياة نتعلم أن الإنسان لا يتعلم أبدًا من مدرسة الحياة..! أنه يسعى أحيانًا إلى جنته، ولا يدري كم ألوان العذاب التي قد تحويها جنته، أنه يهرب من شقائه ولا يتخيل لكم سيشتاق إليه..!

Ups & Downs ببساطة هما ركنا تلك الحياة.. السعادة والشقاء، العتامة والضياء، الإنعام والبلاء.. لكل إحساس يغمر قلبك، هناك نقيض..! ولكل حال أنت عليه الآن، هناك زوجٌ آخر..! يلمسك جدًا هذا المعنى في سورة الذاريات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾..

لذلك أنت في حاجة دائمة إلى الفرار..! تحتاج إلى أن تفرّ من أحدهما إلى الآخر، أن تهرب من موطن الشقاء إلى موطن السعادة.. ولكن تخاف أن تفرّ إلى سامراء..! فتجد أن الآية التي تليها تحكي عن الفرار الأمثل، والهروب المضمون: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾..

الفرار إلى الله لن تخطيءَ فيه طريق الضياء..

لن تُخدَع، لن تألم، لن تجزع، لن تندم..

لن يكون أبدًا موعدًا آخرَ في سامرّاء..

قصور الكوتشينة

تحوي مكتبتي -بحمد الله- قرابة المئة من الكتب فيما يتعلق بالإلحاد وفهمه والردود عليه، وقضيت فترة لا بأس بها في الاهتمام بالأمر وخضت الكثير من الحوارات، وألفتُ كتابًا في ذلك وحقيبتين تدريبيتين، ولا يوجد بحمد الله سؤال في ما يشتبه على الناس من أمر الإيمان إلا وأعرف الجواب عنه على الأقل في نفسي، وإن لم أحسن عرضه..

أقول ذلك –فقط- لذكر أني برغم ذلك لا أطيق ولا أتحمل أن أتابع بشكل دائم على السوشيال ميديا (فولو) أحد حسابات الإلحاد أو التشكيك في الدين، حيث يضيق صدري بكلامه وأشعر بخفقات قلبي الخائفة المستنكرة حين تُعرَض على قلبي فكرة احتمالية عدم صدق ديني، وبرغم أن نفسي لا تتعرض لأي شك بحمد الله إذ إني أعرف جيدًا مدى سخافة وسطحية وخطأ الكلام المكتوب أو المسموع، وأستطيع الرد عليه بسهولة، إلا أن انقباض صدري لا يزول إلا بالخروج من قفص هذه الظلمات التي أتعرض لها..! لذلك أجمع كل هذه الحسابات في قائمة مخصصة أدخل إليها وقت الحاجة ولا أتركها في (النيوز فيد) تأتيني وقتما شاءت دون أن تبالي في أي حالة من الإيمان أنا..!

أخي الكريم، بالله عليك، لا يكن أول ما تقرؤه عن الإيمان من كتاب يهاجم الإيمان، لا تكن أول معرفتك بالله من كلام من لا يؤمن بالله، لا يكن أول ما تعرفه عن الرسول ممن يهاجم الرسول..! لماذا حين دعاك الناس إلى تعلّم دينك ومعرفة عقيدتك قلتَ: لا أريد، والآن لما دعوْك للتشكيك فيه قلتَ: أريد..؟!

أخي الكريم، لا تظن أن هناك من الناس من هو كبير على وسوسة الناس والشيطان، وإياك أن تظن أنك بالذات طالما تعرف جواب بعض الشبهات فلن تتضرر من القفز في مستنقعات الوحل لظنك بأنك تجيد السباحة..

أخي الكريم، من فضلك لا تسمح لكل صاحب فكرة أن يدخلها إلى قلبك بكل هذه السهولة، لا تسمح لكل متكلم أن يجد عندك آذانًا مصغية، لا تسمح لكل محب للشهرة أن تكون عنده رقمًا في عدد متابعيه، وتعطي له حق الولوج الإجباري لنافذة عقلك وقلبك في أي وقت شاء بكتابة ما شاء..

أخي الكريم، والله لا يأتون بجديد، ولا يحرجون أهل الإيمان في شيء.. والله محاجّاتهم هي قصور من ورق (الكوتشينة) لا تحتاج إلى كبير عناء، كل الشبهات مجابة، كل الأسئلة معادة، كل السخرية قديمة، كل التشكيك ضعيف..! ولكن قلبك لا يعلم كل ذلك، ولم يطلع على كل المكتوب، ولم يسمع كل التفسيرات، فلا تقتله بسمومهم بيدك، ثم تقول: لماذا متُّ؟! لقد متَّ لأنك أضعف قليلًا مما تبدو، وأضعف كثيرًا مما تظن..!

أخي الكريم، لا أدعوك للتقوقع ولكن أدعوك للتميز، لا أدعوك للانغلاق الفكري لكن أدعوك للتعالي عن الرديء من الأفكار، لا أدعوك للهروب ولكن أدعوك للترقّي في طريق العلم والفهم والإيمان دون التفاتات هنا وهناك تضيع وقتك وتنقص إيمانك وتفتر عزيمتك، ثم تقف بعدها على محراب الصلاة لتجد أنك لم تعد أنت..!

أخي الكريم، إن الله اصطفى لك الدين، فلا تموتَنّ إلا وأنت من المسلمين..!

المَلَل

في معلّقة الشاعر الجاهلي الفِطَحل زهير بن أبي سلمى نجد البيت الشهير:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش... ثَمانينَ حَولًا لا أَبا لَكَ يَسأَمِ

ثم أنهى زهير معلقته بـ:

وَمَن يزل حاملًا على الناسَ نَفسَهُ... وَلا يُغنِها يَومًا مِنَ الدَهرِ يُسأَمِ

هذا رجل قد ملّ من الحياة، لا شك في هذا، وعنده كل الحق، حين تجاوزتُ العشرين عامًا من عمري شعرت أني عشت كل الحياة ثم بدأت في الإعادة والتكرار مرة أخرى..!

وشيءٌ ما يخبرني أنني لست الوحيد الذي يشعر بهذا.. الأيام متشابهة بعنف، والجمعة تأتي وترحل دون أن تنتبه.. نفس المشاجرات المتبادلة المعتادة، نفس التحليلات السياسية العقيمة المعادة، وبطولات الكرة التي يتناوبون عليها تشجيعًا..! نفس تضاريس غرفتك القابعة أمام عينك مهما حاولت تغييرها، فإنك دائمًا ستظل تراها بنفس الروح الملول، ونفس المنشورات على الفيسبوك، كل واحد منا لديه نوع ما منها لا يغيره..!

إنه كما يقول [أندريه جيد]: "كل شيء قد قيل من قبل، ولكن لأنه لا أحد كان يستمع، علينا أن نبدأ من جديد"..! بالفعل هذا هو ما أشعر به تمامًا.. مباراة معادة تحفظ كل خطأ وكل هدف فيها ومجبر على مشاهدتها كل يوم..!

يمكنك أن تلاحظ أن هذه الإعادة المتكررة هي سنة الحياة من حولك..! يمكنك أن تلاحظها في جميع خلايا جسدك التي تتجدد باستمرار باستثناء خلاياك العصبية، حتى أنك بعد فترة من الزمن تكون قد حصلت على كبد جديد تمامًا، وقلب مختلف، وجلد شخص آخر..!

تلاحظها في الفكرة الملحّة التي تأبى أن تموت، في العزيمة الراقدة على سرير اليأس تحتضر، ولكنها تتمالك وتحاول القيام من آن لآخر، تلاحظها في الدمعة التي تتساقط مرارًا لنفس الأسباب، وفي الروح المرحة التي سرعان ما تعود بعدما ظننت أنك لن تبتسم مرةً أخرى..!

التكرار قد يثير مللك، أنا أعلم هذا.

ولكن هل يمكن أن تنظر له بنظرة أخرى، بنظرة الاطمئنان والأمل..؟!

الاطمئنان بأن الهواء العليل الذي سيختفي بعد وقت الضحى سيعود فجر الغد مرة أخرى، بأن الفرصة الرائعة التي فاتتك اليوم ستأتيك غدًا ربما في صورة أفضل، بأن الضحكة التي تأخرت عنها اليوم، غدًا تجلس في انتظارها، بأن الذنب الذي اغتنمك على لحظة ضعف، غدًا يأتيك وأنت قويٌ منيع ضده.

بأن اليوم ليس مجرد نسخة أخرى مما قد سبق.

بل ربما كان فرصةً أخرى تجلّت لك في الأفق..!

اختلاف

في المرة القادمة التي تأكل فيها إحدى شرائح البيتزا فعليك أن تلاحظ ذلك المزيج الجميل في طعم المكوّنات المختلفة من صلصة الطماطم وشرائح الفلفل الأخضر وقطع الزيتون الأسود وعجين الدقيق وفطر عيش الغراب.. ما يصنع هذا المذاق الفريد هو التجاور بين المذاقات المختلفة لهذه النباتات المتباينة في فمك.. والعجيب أنها نبتت كلها من نفس التربة ونفس الماء الذي يرويها ونفس الطلّة الشمسيّة..! كما قال سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾..

بصمة اليد تشبه البيتزا بطريقة ما..! فالخبراء الجنائيون يعلمون أن الخطوط والدوائر التي تشكّل شكلًا مميزًا على جلد الإنسان لا يتكرر إلى يوم الدين، كل البشر يملك كل واحد منهم بصمة متفرّدة تميّزه عن الآخرين، وبنفس الطريقة التي يتميز بها بالنمط الفريد للاختلاف التضاريسي الدقيق على قزحيّة عينه، أو في بصمة صوته، أو في طريقة مشيته..!

وماذا عن اختلاف لغات البشر ولهجاتهم..؟ ليس فقط بين اللغات المختلفة التي يقال أن عددها يصل إلى سبعة آلاف بحسب منظمة اليونسكو.. ولكن أيضًا في اللكنات واللهجات بين أبناء اللغة الواحدة..!

كنا نظن أن هناك إنجليزيّة واحدة مثلًا، ولكننا اكتشفنا أن هناك الـPosh Accent التي يتحدثها بعض الإنجليز وهم يشربون شاي الساعة الخامسة، وهناك لهجة طبقة العمال

الفقيرة Cockney Accent ، واللهجة الدارجة Standard English، ولهجة السود BVE ناهيك عن أهل مقاطعة (ويلز) الذين ليسوا فقط ذوي لكنة خاصة، وإنما لهم لغة أخرى مغايرة للإنجليزية تمامًا. ثم هناك الإنجليزية الأسكتلندية، وهناك الإنجليزية الأيرلندية، وهناك الإنجليزية الأمريكية، وهناك الإنجليزية الأسترالية التي هي شيء مختلف تمامًا برغم أنها نفس الألفاظ اللغوية..! حين يكون (الحصان الميّت) تعبير يعني (الكاتشب)، و(لا تبصق الدمية) معناه: (أشعر بالأسف من أجلك)..! مرة أخرى نحن أمام معجزة تنويعية من الله عز وجل القائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾..

هذا التنويع يشمل أيضًا الطباع والعادات بين أهل الثقافات المختلفة، فلديك مثلًا الصوماليون الذين يقسّمون الذبيحة لأفراد العائلة حسب مواقعهم، ففخذ الذبيحة للفتيات العازبات، بينما الرقبة للمتزوجات..! ربما المتزوجات في قبائل (الهوتنتوت) أكثر حظًا حيث يقتصر حضور حفلات الزفاف عليهنّ دون العازبات..! هذه لا شك من لمحات الخالق العظيم الذي نوّع بيننا إلى هذا الحد، كما قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي نوع بينكم في الأخلاق والأحوال والصفات..

هذا الإله البديع الذي ليست لديه طريقة واحدة ولا شكل واحد للخلق ولا طريقة واحدة للأحياء في معيشتهم.. هذا الإله الذي يبدع في كل حين شكلًا جديدًا ونمطًا جديدًا للحياة.. هذا إله يحب أن يرينا من آياته، يحب أن نشعر بعظمته، يحب أن نوقن بقدرته، يحب أن نرى إعجاز صنعه وصنيع إعجازاته. ولكن الكثيرين منا غافلون..!

هانز السافل

في عام ١٩٠٥ عالج (فرويد) الطبيب النفسي الشهير، ابنًا لأحد أصدقائه كان يعاني من خوف عصابي غير مبرر من الخيول، وهو ولد صغير يدعى هانز جراف، وبعد جلسات التحليل النفسي خرج فرويد بأغرب نظرية ممكنة حيث قرر أن خوف هانز الصغير من الخيول سببه شعور الولد بالذنب الناتج عن رغبته الدفينة بممارسة الجنس مع أمه والتي كبتها في نفسه خوفًا من أبيه الغيور..! ثم ذكر فرويد نتائج هذا التحليل في كتابه: (تحليل فوبيا لدى صبي ذي خمسة أعوام) والذي ذكر تلاميذه بعد ذلك أن بوادر نظريته الخاصة بعقدة أوديب (وهي تفسير مادي مشوه لنشأة الدين لدى الإنسان) قد جاءت براهينها من خلال هذه الواقعة.. واعتبروا واقعة هانز مع الخيول تلك لحظة فارقة للبشرية ككل، كما ذكر تلميذ فرويد (كورت آيسلر).

جاء بعد ذلك (كريستوف إيشينرودر) وقدم تفنيدًا لتحليل فرويد في كتابه (هنا أخطأ فرويد)، وذكر تحليلًا مختلفًا، حيث اعتمد على واقعة حدثت بالفعل وهي أن هانز قبل أن يصاب بهذه الحالة مباشرة رأى حصانًا يسقط من إعياء العمل وهو عاجز مقيد في لثامه مما أصابه بالخوف والصدمة.. لذلك يقول (إيشينرودر) أن نظريات فرويد كانت مجرد وهم وثرثرة فارغة، ويقول عالم البيولوجيا البريطاني الحائز على جائزة نوبل (بيتر مدوّر) أن التحليل النفسي غير العلمي هو الخدعة الأكثر بشاعة في القرن العشرين، ويرى الرسام (أندريه ماسون) أن هذا النوع من التحليل النفسي يعتمد كله على الأساطير اليونانية.

نظريات فرويد قد سادت (المجتمع العلمي) لفترة لا بأس بها حيث قدمت تفسيرًا ماديًا إلحاديًا للوعي الإنساني والعقل الجمعي البشري فيما يخص الإله والدين.. وكعادة هؤلاء استمدوا نظرياتهم من (زاوية رؤية) و(اتجاه منظور) خاص بهم لملاحظات بريئة بسيطة نسجوا حولها (الأساطير العلمية)، لتتحول في النهاية مشاعر خوف صبي من الخيول، إلى نظرية عقدة أوديب التي تفسر تأليه الإنسان البدائي الأول للإله بأن هذا يرمز لشعوره بالذنب تجاه أبيه بعد قتله له لأنه كان ينافسه جنسيًا على أمه..!

العلم لم يقف موقف الضد من الإله والإيمان حتمًا، وإنما النفوس المريضة لبعض البشر هي التي أوقفته كذلك، ونسجت الأساطير حول الظواهر البريئة، وأطلقت عليها المسميات المختلقة، وأقامت البناء الهرمي الكامل على قواعد (مُختَرَعة)، وقامت بتأليف المصطلحات، ثم توفيق الأدلة على هذه المصطلحات..! لتبقى في النهاية المُؤلّفات التي بنيناها بأنفسنا في نظرنا وكأنها كيان مستقل، وكأنها حقائق مفروغ منها، لتتخذ مكانها وسط المحاجّات المنطقيّة، دون أن نتذكر أو نعبأ بأن نتذكر أننا نحن من بنينا كل هذا..!

متى يفطنون أن مصطلحاتهم لا تمثل حجة في ذاتها، وليس لها عندنا كبير قيمة؟ إن هي إلا أسماء..! إن هي إلا ظاهر من القول ليس له كبير حقيقة..! ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾..

بينما كان الصغير هانز بريئًا من كل هذا..!

سجود الفيزياء

[راندال مونرو] هو شخص أمريكي ظريف وفيزيائي شاب، قام بإخراج كتاب في ٢٠٠٩ عنوانه: [ماذا لو – إجابات علمية على أكثر الأسئلة عبثية]، في هذا الكتاب فائق المتعة يحاول الإجابة بشكل علمي بحت عن الأسئلة المتخلفة التي قد تراود أذهاننا..! منها على سبيل المثال: ماذا سيحدث لو ضرب البرق رصاصة منطلقة في الهواء..؟! لو اختفى DNAشخص فجأة، كم من الوقت سيمضي حتى يموت..؟! لو قفزت من طائرة ومعي أنبوبة هيليوم وبالون لنفخه، من أي ارتفاع علي أن أسقط حتى يتسنى للهيليوم نفخ البالون بشكل كافٍ كي أهبط بسلام..؟! كم مكعبات الليجو التي تحتاجها لبناء جسر من لندن لنيويورك..؟! ما هو أطول غروب للشمس يمكنك مشاهدته في حالة قيادتك باتجاه الغرب بالالتزام بحدود السرعة..؟! لو اتصلت برقم تليفون عشوائي وقلت: [يرحمكم الله]، ما هي احتمالية أن يكون هذا الشخص كان قد عطس للتو..؟!

كان [راندال] ينطلق بعدها في وضع القوانين والأرقام والمعادلات والرسوم التوضيحية، ليصل في النهاية لإجابة كل سؤال بشكل حاسم.. طوال الكتاب كان ينتابني شعور بالانبهار..! منبهر ببراعة الكاتب الذي كتب هذا الكتاب في وقت فراغه أثناء دراسته، بدلًا من أن ينشغل بمحاولة تحطيم النسبية كأي طالب في بلادنا يحترم نفسه.. ومنبهر بالعلم التجريبي الذي يعرف الكثير ويبدو كموظف أرشيف ينظر لك بمزيج من الخبرة والملل من فوق نظارة القراءة.. ومنبهر قبل ذلك كله بأناقة الكون نفسه..!

لماذا توجد أحكام سائدة في كل ركن من أركان هذا الكون العملاق..؟! لماذا يستطيع طالب جامعي أن يحسب مصير رصاصة منطلقة من مسدس [تسعة مللي] حين تضربها صاعقة برق..؟ لماذا يتصرف البرق أصلًا في كل مرة بنفس سرعته ونفس طاقته المعلومة..؟ لماذا يمكننا حساب قوة الجاذبيّة الشمسيّة أو حجم الأرض أو المقدار الدقيق لثابت (بلانك)..؟! لماذا نعرف أن سرعة الضوء تساوي تمامًا: ٢٩٩٧٩٢٤٥٨ مترًا في الثانية، وأن نسبة كتلة البروتون إلى كتلة الإلكترون تساوي بالضبط: ١٥ ,١٨٣٦..؟! لماذا لا تجرؤ أي واحدة من قوى الطبيعة على مخالفة القانون الثابت الموجود في كتاب فيزياء مهترئ في حقيبة طالب ثانوي نحيل ذاهب لمدرسته على ظهر [توكتوك]..؟!

إنها نفس الدهشة التي أصابت [آينشتاين] حين قال أن أكثر ما أدهشه في الكون أنه مفهوم..! إنها نفس الأناقة الكونية التي خلّبت لُب [ستيفن هوكنج] فلا يكف عن الحديث عنها بصوته المعدني.. إنها نفس المشاعر التي وقعت في قلب [كارل ساجان] لما انطلق يكتب الكتب والوثائقيات عن عظمة الكون ويبرر ذلك بأنه قد وقع في الحب..!

إتقانٌ كامل من مُوجد هذا العالم في إسباغ قوانينه، وإقرار سيادتها، وإحكام فاعليتها في خلقه..! إتقانٌ في [تقعيد] كل حركات الطبيعة، ووضع الحدود المُلزِمة لكل قواها فلا تقدر على مخالفة سيدها..! إتقانٌ يعلمنا أن الله لا يحب العناد ولا التمرد ولا الخروج عن القانون.. يعلمنا أن نخجل من عصياننا حين نرى الفيزياء شاهدةً على طاعة كل الوجود..! يعلمنا أن مخالفاتنا لن تمرّ بسهولة ولن يُغفلَ عنها على الإطلاق..! يعلمنا أن الله خبير بما نحن فاعلين..! ﴿صُنعَ اللهِ الَّذِي أَتقَنَ كُلَّ شَيءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفعَلُونَ﴾..

أبسط الأشياء

لم أستمتع بقراءة دوستيفيسكي وتولستوي وديكنز وماركيز قدر استمتاعي ببطوط وتان تان ومغامرات البحار الغبي..!

دائمًا أجد أن أبسط الأشياء هي أجملها..! قاعدة أحفظها منذ عدة سنوات وألاحظها في كل حين، الشاي بالحليب أشهى كثيرًا من الكابتشينو بالكريمة الذي يستغرق إعداده عدة مئات من السنين، والسماء الزرقاء فوق سطح بيتنا تبدو أجمل من المناظر الطبيعية المعقدة التي أضعها على خلفية الشاشة، والبسكويتة التي أتقاسمها مع زميلي تترك في النفس أثرًا أحلى من وجبة فاخرة في أغلى المطاعم.

لا أعلم لماذا ينشغل الكثير من الناس بالماكرو-نِعَم، ويغفلون عن عالم الميكرو الدقيق..؟!

أتصور أن ابتسامة أبيك الراضية في وجهك والتي تقول الكثير، هي نعمةٌ أجمل وأغلى من هاتف آيفون جديد. أو أن صوت البكاء الأول لوليدك القادم إن شاء الله هو نعمة تفوق السيارة الفارهة ذات الدفع الرباعي التي تتمناها.

أبسط الأشياء دائمًا هي الأهمّ أيضًا.. فمن العجيب أن تلاحظ أن تلك الأشياء البسيطة، وتلك الدقائق الخفيّة هي ما يتحكم فيك..!

أن تلاحظ أن أصابعك التي تجري الآن على لوحة مفاتيحك لا تستطيع تحريكها إلا ببعض ذرات الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والكلور.

تخيّل أن تنظر إلى بعض ذرات الملح على الطاولة وتفكر أن حركتك تعتمد على مثل هذه العناصر..! ثم أن كل ذرة منها تحوي داخلها عالمًا آخر، وتتحكم في تكوينها أشياء أبسط وأدقّ.

لذلك لا أتعجب أبدًا من أننا سوف نتفاجأ في يوم القيامة (يوم انكشاف معنى الحياة بأكملها) بأبسط الأشياء..!

سوف نتفاجأ بأن سيكون أثرها أكبر كثيرًا مما تخيلنا، حتى تُذكَر في كتبنا البساطات قبل العظائم ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾..!

سيتفاجأ صاحب الكذبة الصغيرة التي أضحك بها زميله، وصاحب النظرة القصيرة التي أرضى بها فضوله، وصاحب الصدقة اليسيرة ذات العملتين.

سيتفاجأ من لديه ذاك المعنى الدقيق الذي وقر في سويداء قلبه دون أن يشعر، من لديه تلك الجَزْعة الخفيفة في نفسه على كل مأمول فاته، من تصطبغ شفتاه دائمًا بظهر يد أمه..!

ستفاجئنا حتمًا يومها أبسط الأشياء.

مما نفعل، ومما نقول، وما نخاف، وما نشاء..!

رعب النشرة الجوية

عندما تركب سيارتك الواقفة في الشمس في وقت الظهيرة في أحد أيام شهور الصيف القائظة، لتفاجأ بشدة حرارة هواء السيارة، والذي لا يكتفي بإلهاب جلد وجهك، وإغراقك في عرقك في عدة ثوانٍ، بل يتسلل أيضًا مع أنفاسك مارًا بالحلقوم وبطانة أنفك خارجًا وداخلًا مع كل شهيق وزفير، حينها تشعر وكأن روحك تلتهب حقًا من الداخل..

حينها لا بد أنك سوف تتذكر قول الله تعالى عن أهل الشقاء من أصحاب النار: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.. ولربما بعدها تسعك ثقافتك أن تتذكر ما قاله القرطبيّ رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: "الزفير إخراج النفس، وهو أن يمتلئ الجوف غمًا فيخرج بالنفس، والشهيق رد النفس"..

ثم يزيدنا القرطبي بقوله: "والزفير والشهيق من أصوات المحزونين"..!

وحين تجد أن حلقك قد تحول إلى قطعة كبيرة من القطن.. تسرع إلى بيتك حينها لتتوجه أول ما تدخل إلى ثلاجتك وتفتح زجاجة المياه الباردة، وقبل أن تشرب منها تنظر لها بكل امتنان وحب وحنان، ثم تروي ظمأك..! هذا هو ما فعله عبد الله بن عمر رضي الله عنه لما شرب ماءًا باردًا، فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: "ما يبكيك؟" قال: "ذكرت آية في كتاب

الله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾..!

وحين تصطدم بأي شيء في هذه الحرارة الشديدة، فإن الحر الذي ألهب روحك، كفيل بأن تؤثر عليك هذه الخبطة أكثر كثيرًا من المعتاد على المستويين الجسدي والنفسي..

حينها لا بد أنك سوف تتذكر قول الله تعالى عمّا يضرب به أهل النار على رؤوسهم: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.. كما جاء في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: "لَوْ أَنَّ مِقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلَانِ مَا أَقَلُّوهُ (أي ما رفعوه) مِنْ الْأَرْضِ"..

فأي قوة تلك التي يُهوى بها على رأسه؟! وأي معدن ذاك الذي لا يذوب بنار جهنم؟!

وأما حين يدخل فصل الشتاء فإنك لا بد تتذكر أن العذاب بالبرد موجود في جهنم، وأنهم وقتها يهربون من النار إلى البرد: كما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "يستغيث أهل النار من الحر فيغاثون بريح باردة يصدع العظام بردها فيسألون الحر".. وعن مجاهد: "يهربون إلى الزمهرير فإذا وقعوا فيه حطم عظامهم حتى يسمع لها نقيض"..

فلما يجدوا أنها كانت فكرة بائسة يهربون من البرد إلى النار..! كما يقول كعب: "إن في جهنم بردًا هو الزمهرير يسقط اللحم حتى يستغيثوا بحر جهنم".. وعن عبد الملك بن عمير قال بلغني: "أن أهل النار سألوا خازنها أن يخرجهم إلى جانبها فأخرجوا فقتلهم البرد والزمهرير حتى رجعوا إليها فدخلوها مما وجدوه من البرد"..!

إنها دائرة جهنمية مغلقة..!

علينا أن نخاف..! علينا أن نخاف للغاية..!

القرآن لم يذكر لايارتو

لم يجد اليابانيّون القدماء سببًا قويًا يفسّر لهم القوة التي تقف خلف الشلالات ومجاري الأنهار والأمواج المتلاطمة إلا أن تكون مسكنًا للعديد من أرواح الكائنات البشريّة (الحساسة) والتي يسمّونها: (الكامي)..! وأما السبب الكامن وراء اضطراب الأمور في بلاط الإمبراطور كان الشياطين والأرواح الخبيثة، لذلك كان الحرّاس في بلاط الإمبراطور مأمورين بأن يقذفوا رماحهم بشكل دوري دائم منتظم وبطريقة عشوائية تمامًا من أجل طرد وإخافة الأرواح الخبيثة التي تحاول التسلل لما وراء الأسوار العظيمة..!

وأما البابليون القدماء فكانوا يفسّرون (سبب) المرض والوباء بأنها شياطين استطاعت أن تتسلل من أبواب البيوت والشقوق، وأما سبب مرض الأطفال المتكرر بشكل خاص عند الآشوريين فهو أن هناك شيطانًا متخصصًا في الأطفال فقط، وهو عدوّ الأطفال واسمه (لايارتو)..! ولذلك كانت مهمة الطبيب عندهم أن (يفاجئ) الشيطان الذي يسكن جسد المريض بأنه يعرف اسمه، فيأخذ في ذكر أسماء الشياطين المحتملين..! على ما يبدو كان هذا الإجراء يصيب الشيطان بـ (الحرج) من أنه قد انكشف أمره..!

وأما (الفايكنج) –وهم جدود ساكني بلاد (النرويج) الآن– فقد فسّروا ظاهرة قوس قزح، بأنها مسكن الآلهة حيث مستقرّ (أودين) كبيرهم وزوجته (فريجا) الجميلة الفاتنة..! وفي هذا المكان تقام الاحتفالات بالأبطال الشجعان الذين يموتون في الحروب.. وأما سبب السحاب من وجهة نظرهم، فهو أن (فريجا) تغزل هذا السحاب بتوكيل من بقية الآلهة.. وأما سبب البرق والرعد، فهي تعبيرات عن غضب (ثور) ابن (أودين) و(فريجا) الذي يملك مطرقة هائلة من الفولاذ ويطلقها على الأعداء والعصاة فيقضي عليهم.. ويملك (ثور) اثنين من الإخوة التوائم، وهما (بولدر) الجميل الذي يفسر لنا ضوء الشمس وفصل الصيف الرائع، و(هولدر) الكفيف الحزين الذي يفسر لنا الظلمة وفصل الشتاء القاتم..!

اعتاد القدماء –ممّن لا يملكون علمًا تجريبيًا ناجحًا ولا يملكون هدًى من السماء ولكن يملكون قدرًا واسعًا من الخيال– أن يفسّروا الكثير من الظواهر اعتمادًا على هذه الأفكار الخيالية، وبعد أن تقدم بالناس العلم، أخذوا في فهم الظاهرة العلميّة الحقيقية التي جعلها الله عز وجل (سببًا) وراء هذه الأحداث، فالزلازل ناتجة عن انزلاقات في الصفائح الصخريّة للأرض، والأمطار الغزيرة سببها التقاء رياح مختلفة في درجة حرارتها ورطوبتها، وأما اختلاف فصول الشتاء والصيف كان بسبب (ميل) محور دوران الأرض حول الشمس بزاوية (٢٣,٥) درجة.

يمكنك أن تتخيل كمّ الأخطاء العلمية التي كان سيقع فيها القرآن لو كان (اختلاقًا) من بشري عاش قبل الثورة العلمية بأكثر من ألف عام..! كم الأساطير والخرافات التي كنا

وقتها سنجدها فيه تشرح لنا (السبب) المادي الذي يقف حول هذه الظواهر..! كم (الاختلاف) الذي كان من المفترض أن نجده وقتها بين الكلام الذي يُدّعى أنه من عند الله وبين خلق الله وسننه في الوجود فعلًا..! يذكرنا ذلك بقول الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾..

المثانة الذكية

أعلم أن مثانتك -كمعظم البشر- تتغابى كثيرًا، ففي أوقات الحاجة الشديدة لدخول الحمام تكون قدرتها على التحمل كبيرة جدًا فقط إلى اللحظة التي تقترب فيها بالفعل من أحد دورات المياه، حينها تصاب مثانتك بالجنون الفوري، وتفقد كل قدرتها على التحمل..!

وسبب ذلك أن خلاياك العصبية على قدر من الذكاء يجعلها لا تستثار كثيرًا بالإشارات التي ترسلها لها المثانة حتى يكون هناك مجال لإفراغها بالفعل، خلاياك العصبية وقتها تحرص على ألا تحيل حياتك جحيمًا..!

لحسن الحظ مثانتك لا تتغابى عند النوم، برغم أنك قد تنام أكثر من سبع ساعات متواصلة إلا أنها لا تزعجك في الغالب برغبتها في دخول الحمام، هذه المرة فالسبب هو هرمون الـ ADH الذي يزداد إفرازه بشكل ملحوظ من غدتك النخامية ليلًا عند النوم،

فيعمل الهرمون على تقليل ترشيح الماء من الكلى إلى المثانة، بمعنى آخر كمية بول أقل في مثانتك تستطيع تحمّلها، حتى تواصل نومك من دون أن تبلل فراشك.

وحين تصاب بالرعشة في البرد وترتجف فإن جسدك في الحقيقة لا يقوم بعمل عابث، بل هو يعلم تمامًا ما يفعله، هذه الرعشة مسئوولة عن إكساب الحرارة بالطاقة الحركية لخلايا جسدك التي تعاني من نقص درجة الحرارة في هذا الجو البارد، فيبقى سيتوبلازم الخلايا في حالة سائلة ودرجة لزوجة مناسبة.

تتثاءب فتعلم أن جسدك يحتاج إلى النوم، يسيل لعابك فتعلم أن الطعام الشهي الذي أمامك مفيد لك غذائيًا، تعطش فتتدارك نفسك قبل أن تدخل في نوبة جفاف، وتشعر بالألم فتفهم أن هناك جرح لا تراه في ظهرك يحتاج إلى أن يُعالَج حتى لا يتلوث..

جسدك يعتني بنفسه بشكل جيد، بل بشكل ممتاز..! وربما أكثر من أي كائن حي آخر..! لا يوجد الكثير مما تقلق بشأنه بخصوص جسدك وقدرته على تكييف أوضاعه مع الظروف المحيطة، لقد خلقك الله بنظام تشغيل داخلي رائع و Updates متجددة في كل ثانية..! قد فرّغك الله من مشقة الاعتناء بتريليونات الخلايا التي تملكها، وهناك جيوش من الإنزيمات والهرمونات والأنسجة الضامّة المتخصصة تسهر على عنايتك ٢٤/ ٧..

ترى هل أرادنا الله أن نتفرّغ لما هو أهم من تنظيم جدول إفراغ مثانتنا أو ملء بطوننا؟ ترى هل أرادنا الله أن نهتم بكل تلك الأشياء الرائعة التي تكوّن جوهر الإنسان حقًا؟

التأمّل والتعقّل والارتقاء والاعتبار والتمييز والإحساس وتحمل المسئولية وإدراك المآل وإرادة العُلى، لا بد أن هذه هي الأشياء التي أراد الله لنا أن تكون شغلنا الشاغل، لا بد أنه فرّغنا من مسئوليات الجسد لأنه يجب لنا أن نتميز كبشر على أن نكون عبيدًا لأجسادنا! مثلما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾..

نعم، لأولي (الألباب)..!

٣٦٤

يحكون أن موظفًا دخل على مديره ليطلب منه يومًا إجازة، فأجابه: أنت تريد إجازة يوم واحد..! ألا تعلم أن السنة فيها ٣٦٥ يومًا؟ وخلال هذه المدة أنت تعطل يومين كل أسبوع؟ أي يبقى من السنة ٢٦١ يومًا، ولا تنسَ أنك تقضي ١٦ ساعة من اليوم في البيت، وهذه تعادل ١٧٤ يومًا، فيبقى للعمل ٨٧ يومًا فقط.. ثم إنك تقضي نصف ساعة يوميًا في الاستراحة لتشرب الشاي والقهوة، وهذه تعادل ٢٣ يومًا في السنة، أي يبقى للعمل ٦٤ يومًا فقط.. وكذلك فإنك تأخذ ساعة يوميًا للغداء، وهذه تعادل ٤٦ يومًا، وبالتالي يبقى للعمل ١٨ يومًا.. ومن عاداتك أن تأخذ إجازة مرضية لمدة يومين كل سنة، فيبقى للعمل ١٦ يومًا، وفي العيد الوطني نحن نعطل وهذا يخفض عدد أيام العمل إلى ١٥ يومًا، وشركتنا

تعطيك إجازة سخيّة مدتها ١٤ يومًا في السنة، فلا يبقى للعمل سوى يوم واحد..!! ألا أكون غبيًا إذا أعطيتك هذا اليوم إجازة..؟!

سواءٌ عليك تخيلت هذا المدير بنبرة صوت حازمة ونظرة مخيفة وسيجار كوبي، أو تخيلته بـ (بليزر) رمادي ومنديل محلّاوي وكوب شاي أسود.. ففي كل الحالات ستُعجب ببراعة هذا المدير الذي قام بالتطبيق الكامل لمعنى (القَرطَسة)، وأقنع الموظف المسكين عن غير وجه حق أنه كائن زائد على الثدييات الرئيسية لا قيمة إضافية لحياته أو لعمله..

نحن لا نملك أوقاتنا فعلًا ونعيش نفس معاناة هذا المدير مع موظفيه حين لا يستطيع أن يقتنصهم وهم يعملون.. كم مرة لم تستطع فيها أن تقوم بالمهمة التي أجلتها منذ عدة أيام لأن أحدهم قاطعك بطلب أو مكالمة هاتفية طويلة..؟ كم مرة كانت الظروف مواتية تمامًا لإكمال قراءة الكتاب الذي بدأته منذ أسابيع ولم يعطلك أحد هذه المرة ولكنك فطنت أنك أكثر اكتئابًا من أن تهتم بما يوجد في الكتاب حقًا..؟!

لحظات الحياة الجادة قليلة، معظم العمل يضيع في الدردشة، معظم الصلاة هي في الواقع شرود، معظم أوقات العمرة في النزهة وصور (السيلفي) مع الأصدقاء..!

من حسن الحظ أن الله عز وجل الذي خلقنا يعلم ذلك، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟! يعلم الله عز وجل أن معظمنا لا يملك الوقت الكافي للنجاح، وبعد أن يخصم من وقته القدر الذي لابد من صرفه على العمل والزيارات العائلية وطبيب الأسنان، أن معظمنا لا يجيد السباحة وسط أمواج الشهوات اللزجة، أن الكثيرين لا يستطيعون مقاومة ثقل

هِلب أهواء أنفسهم الذي يصر على الزج بهم في القاع، وأن الباقين الذين اجتازوا كل ذلك لربما هم ببساطة أكسل من أن ينجحوا في العبور بالفعل..!

لذلك جعل الله لنا الأبواب الخلفية ذات الوصول السريع اللازم، الثقوب السوداء التي تبتلع المسافات وتختصر الوقت..! إنها رحمة الله الذي شرع لنا صيام يوم عرفة حين يكفر ذنوب سنتين، وأذكار الصباح ذات الدقائق العشر التي تحرم جسدك على النار..! الذي شرع لنا العمرة التي تغسل الخطايا، وصلاة الجماعة التي تضاعف الحسنات..!

هذه الأبواب الخلفية هي الفرص الممتازة حقًا، هي يوم العمل الواحد بعد عام مليء بالإجازات والاستراحات المتواصلة..! ألا نكون أغبياء حقًا إن أخذناه إجازة..؟!

الفرنسيون لا يأكلون التبّولة

في أواخر القرن التاسع عشر وحيث كان (مندل) ما زال يلعب بحبوب البازلاء، لم يكن علم الوراثة الذي أسسه قد اكتمل بعد، وبرغم ذلك ظهرت في الأوساط العلميّة فكرة (اليوجينيا) لتدّعي أن علينا أن نسعى إلى التحسين الوراثي للبشر، ونعامل بني آدم بالطريقة التي عامل بها مندل البقوليات، حتى نقضي في النهاية وبالتدريج على الأنواع الغبية والمريضة والفقيرة من البشر عن طريق تحديد نسلهم نهائيًا..!

كانت فكرة أن هناك أجناسًا من البشر أفضل وأعلى وأذكى من الباقي متداولة وغير مستهجنة في السبعين عامًا التالية، وسواء كانت من ساسة مثل هتلر وتشرشل، أو فلاسفة

مثل برتراند راسل.. أو كانت من رجال علم مثل جوليان هكسلي آمنوا بها كامتداد طبيعي لإيقانهم بالتطور.. أصغى هتلر لأفكار اليوجينا وكان أشد المتحمسين للتجربة، وأمر بإخصاء نصف مليون من السود واليهود والغجر لأنهم لا يملكون حق إمرار جيناتهم للجيل الجديد. وأما في الولايات المتحدة فقد تم التعقيم القسري لـ ٦٣٦٧٨ شخصًا فيما بين عامي ١٩٠٧ و١٩٦٤ كما يقول (آلان تشيس) في كتابه (تركة مالتوس)..

بعد الحرب العالمية الثانية التي خسرنا فيها عدة عشرات من الملايين من البشر، صارت العنصرية من التابوهات المحرّمة، وصار رجل الشارع يشمئز من الشخص الـ Racist ولكن هذا لم يستمر طويلًا، فمع انحسار اليسارية بدأت اليوجينيا في الظهور مرة أخرى، ففي عام ١٩٩٤ تم نشر كتاب (منحنى الجرس) وتم اعتباره كتابًا علميًا، الكتاب بسيط للغاية ويدعو لفكرة واحدة: الذكاء صفة وراثية فبالتالي هناك من الشعوب ما هو أذكى من الآخر، لذلك علينا نحن البيض أن نشفق على السود لأنهم لن يتقدموا أبدًا ولا مانع من أن نحكمهم من آن لآخر..! وفي عام ٢٠٠١ تم نشر كتاب (اليوجينيا، إعادة تقييم) وهو كتاب عنصري مقرف للغاية، ومن جديد تم قبوله في الأوساط العلمية..

كيف ينجح رجل لا يخفي عنصريته المريضة مثل (دونالد ترامب) بالحصول على مفاتيح البيت الأبيض؟ أو كيف يقف قادة المجر بكل صراحة ويعلنون أنهم لا يسمحون بدخول اللاجئين المسلمين إلى بلادهم؟ أو كيف قامت صحفية شقراء بركل الأطفال السوريين لأنها أصيبت بالذعر لما رأتهم يجرون نحوها وكأنهم مجموعة من الفئران؟ أو كيف لم يخز الرجل البيروتي القمحي اللون الذي يزرع أشجار الأرز ويأكل التبّولة على عُشر مقدار

التضامن الذي لاقاه الرجل الباريسي الساكن في شارع الشانزليزيه، برغم أنهم تعرضوا لنفس الإرهاب في العام الماضي (٢٠١٦) من نفس الجهة في نفس اليوم تقريبًا؟

الرجل الأبيض عنصري جدًا ولكنه يحاول إقناع نفسه بالعكس، قارن سريعًا بين نظرته التي تصنّف الناس حسب كمية الميلانين في بشرته، أو العائد القومي لبلاده، أو اللغة التي ينتج بها أفلامه الدراميّة.. وبين نظرة المسلم الذي يقرأ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.. وقول النبي ﷺ: "لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى"..

حينها تعلم أن الإنسان بطبعه مريض وأن هذا الدين هو ترياقه الوحيد..!

عفة معشوق هوليود

هنا رمقه بنظرة غريبة، إنها نظرة تجمع بين الاستخفاف والعطف والغضب، وأغلق الدفتر الذي أمامه، وقال له: دعني أعلمك شيئًا عن الحياة..!

نحن يا بني في هذه الحياة أضعف كثيرًا مما نتصور، الثقة في النفس وهم بنيناه من عشرات النجاحات الصغيرة، وما أصغر هذه النجاحات..! نحن لم نخض أي اختبار حقيقي بالفعل في حياتنا، كي نطلق عليها حتى كلمة نجاحات..

هل سرقتَ من قبل يا بني؟ لم تفعل، أنت أمينٌ حقًا..!

ولكن أخبرني إلى أية درجة كانت تبلغ أمانتك لو وجدتَ أمامك حقيبة مكدّسة من الأموال في ظلام دامس وحاجة يد شديدة ومن حولك فراغ مطلق من عيون الناس..؟

هل زنيتَ من قبل يا بني؟ لم يحدث، أنت عفيفٌ إذن..!

ولكن إلى أي مدى تظن أنك كنت ستحافظ على عفتك لو كانت الممثلة الهوليودية الحسناء التي تتلصص على صورها تطاردك شخصيًا بضراوة وواقعة في عشقك؟ هل كنت ستملك الكثير من الفرص؟

هل تحافظ على صلاتك يا بني؟ هذا جميلٌ منك، ولكن لو كانت الفروض خمسين بدلًا من خمسة، إلى أي مدى كانت لتكون تقواك حينها..؟

لو حدث كل هذا، فأنت قد تنجح وقد لا تفعل. وأظن أنك تعلم من نفسك بعض النقاط الواهية التي تحافظ عليها بالكاد..! تعلم أنك لم تكن لتحتمل مزيد ضغط في هذه النقطة أو تلك.. والسبب الوحيد الذي منعك من هذا الضغط الزائد أن الله يعلم أيضًا نقاط وهنك، ويحب لك ألا تنكسر..!

هذا يا بني ما قاله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾.

فالله لم يأمرنا في الدنيا بغير الإيمان وبعض التقوى، ولو أراد أن يقسو علينا في اختباره لسألنا أن نخرج من جميع أموالنا، ولو فعل ذلك لَرسبنا جميعًا ووقعنا في فضيحة ذلك الذي ظهر على ما هو عليه حقًا..!

ننجح فقط يا بني لأن الله أرحم من أن يضعنا في اختبار كامل غير مُيسّر.

ننجح فقط لأن الله يعلم أننا أضعف مما نحسبه من أنفسنا.

ننجح فقط لأن الله يحب أن يسترنا..!

فخلِّ عنك يا ولدي ثقتك، خلِّ عنك فخرك بنفسك واعتدادك، فنحن في الدنيا ما بين راسب ومجبور، ما بين خاطئ ومرحوم، ما بين مجرم ومستور..

نحن ما بين ضعيف وضعيف، والله -وحده- هو القوي..!

الأرض المسطحة

أقنعني أحدهم أن رواية (إدوين إبوت) القس الإنجليزي الشغوف بالرياضيات، التي كتبها في العام ١٨٨٤ وتُدعى (الأرض المسطحة) هي رواية ماتعة للغاية، ومن ثمّ قرأتها بناءً على هذه التزكية، ليتبين لي أنها لا شيء أكبر من مجرد (فكرة غريبة) معروضة في قالب أقرب للإملال. على أنني وقعت في غرام الفكرة البسيطة التي قدّمها والتي سأحكيها لك حالًا إن شاء الله..!

نحن نعيش في عالم ثلاثي الأبعاد: الطول والعرض والارتفاع.. على سبيل المثال أنت تنظر إلى الكتاب الموضوع أمامك على المنضدة فتشاهد له عمقًا، فتعلم أنه كتاب، لو لم تشاهد هذا العمق لقلت عنه أنه (صورة كتاب) ملصوقة على المنضدة.. فماذا سيحدث لو كان هناك عالمًا ثنائي الأبعاد وكل ما في هذا العالم هو كائنات لها طول وعرض فقط..؟ هذا هو ما تخيله إدوين إبوت في روايته: الأرض المسطحة، رحلة إلى عالم ثنائي الأبعاد..

تذكر أنهم لا يملكون البعد الثالث، أي أننا لو شاهدنا هذا العالم من أعلى سنرى المربع والمستطيل والدائرة وهم يحتسون القهوة، بينما هم لا يستطيعون النظر من (أعلى) لا يوجد لديهم (أعلى) أصلًا، بل عندهم فقط (أمام) و(خلف) و(يمين) و(يسار).

فبالنسبة لهذه الكائنات، فإنك لو أخذت قلم رصاص وخرقت هذه الورقة التي يعيشون عليها فإنهم لن يشاهدوا هذا القلم قطعًا، ولا حتى سيشاهدون الخرق الذي سيحدثه فيها، ولا حتى سيشاهدون الفتحة وهي تتسع مكان القلم، بل كل ما سيشاهدونه من رؤيتهم هو خط يبدأ صغيرًا (في اللحظة التي يخترق فيها سن القلم الورقة) ثم يزداد (كلما ازداد القلم في اختراق الورقة) حتى يصل إلى أكبر حجم له (في اللحظة التي يخترق القلم الورقة بالكامل) حتى يدخل جسم القلم كله.. بعد ذلك لن يشاهدوا شيئًا ولن يلاحظوا أي تغيير لو أدخلنا القلم وأخرجناه مئة مرة (لأن الفتحة لن يزداد عرضها أو يقل..!).

هذا هو ما سيحدث لنا تمامًا لو زارنا كائن من بعد آخر لا نعلمه، لن نرى منه إلا انعكاس أو ظل أو آثار، ولربما لا نلحظ أي شيء على الإطلاق..!

لذلك يفكر بعض علماء الفيزياء الآن أن العالم الذي نراه الآن قد يكون مجرد صورة هولوجراميّة لعالم آخر رباعي أو خماسي الأبعاد..! هناك منهم من بالغ في الشطط وجزم بأن عالمنا يحتوي على أحد عشر بعدًا.. وكان يرى أن هذا هو الحل الوحيد لكي يتم حل معادلاته الرياضيّة..

لذلك، فحينما يتحدث القرآن عن صفات الله عز وجل التي تحارُ فيها العقول، ومنها بطبيعة الحال الطريقة التي كان الله عز وجل بها موجودًا قبل الوجود، فهو الأول الذي ليس قبله شيء.. يخبرنا القرآن أن هذا أمر طبيعي علينا ألا نقدر على استيعابه بشكل كامل..! كما يقول جل جلاله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾..

وهذا لأن حدودك الإدراكية –كبقية البشر– بالغة الضيق فعلًا والصغر، وأنه ليست لدينا أدنى فكرة عن أي شيء يقع في خارج هذا النطاق الضيق، وهذه الحدود الصغيرة..!

خواطر الشد العضلي

هل تعرف تلك الإصابات اليومية الصغيرة التي لا تكاد تخطئ أحدًا منا..؟

تلك القُرَح الفَمَوية البيضاء الأليمة التي تفاجئك بدون أن تتوقع في يوم ما حين تستيقظ من نومك مثلًا.. في هذه القرح تصبح الأعصاب الناقلة للألم مكشوفة أمام حركات لسانك العابثة.. فلا تستطيع أن تأكل أو أن تتكلم حتى..!

كل هذا بسبب نقص بعض الخلايا الطلائية Epithelium في مكان القرحة ذي البضعة ملليمترات.. بينما يغطي الـ Epithelium جميع أنسجة جسدك، دون أن تتذكر على الإطلاق أن تشكر الله على هذه النعمة..!

ماذا عن الشد العضلي الذي يصيب عضلة قدمك بعد مباراة حماسية من كرة القدم..؟ الألم المبرح الذي لا يعطيك الفرصة للكلام أو الشكوى، فقط تعض على أسنانك وتنتظر حتى ينتهي..

كل هذا الألم بسبب نقص بعض عملات الطاقة ATP في عضلتك عن مقدار حاجتها له، مما أدى إلى أن تدخل خلايا عضلتك في التنفس اللاهوائي وتنتج حمض اللاكتيك وتتألم..

فهل خطر على بالك حين تعد نعم الله عليك أن تضع في عين الاعتبار مليارات جزيئات الـ ATP التي تمرح في كل مكان من جسدك..؟!

وهل تذكر حين تصاب ببعض الاكتئاب وتتمنى أن لو كنت في عداد الأموات، ويفتت الكرب فؤادك، دون أن يكون هناك سبب واضح لهذا الحزن..؟!

تذكر أن كل هذا بفعل نقص بعض الدوبامين، الناقل العصبي الذي يمرح في الوضع الطبيعي بين نوايا مخّك القاعديّة، والذي يسبب نقصه كل هذا الاكتئاب والحزن، والذي لم نتذكره أيضًا من ضمن النعم التي أحببنا أن نحمد الله عليها..!

لذلك يعرف علماء الطب أن العضو الذي لا تشعر به هو على الأرجح سليم، والعضو الذي تشعر بوجوده في جسدك يعني على الأرجح أن فيه عطبًا ما..!

والسؤال هنا:

لماذا لا نتذكر النعمة إلا بعد فقدها..؟!

لماذا لا نشعر بالامتنان لذلك الشيء الصغير الذي نملكه في كل حين إلا بعد أن نشعر بألم فقده..؟!

لماذا نحتاج دائمًا إلى تلك التذكيرات اليومية، وهذه الدروس اليسيرة حتى نفطن إلى معنى قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾..؟

لماذا نعرض عند النعم وننسى، ثم عندما يصيبنا الشرّ نعوي بكل هذا البكاء، ونتذمّر بكل هذه الشكوى، ونلجأ لكل هذا الدعاء العريض..؟!

الهجرة إلى مدينة البط

منذ طفولتي وأنا أتمنى أن أستيقظ لأجد نفسي في مدينة البط، أو بلاد العجائب التي زارتها أليس، أو حتى عالم (أوز) المدهش.. إنه إبداع جريم وكارول وباوم وأندرسن وديزني وغيرهم، الذين أغرقوا خيال البشرية بعوالمهم السحريّة الرائعة المليئة بالغابات

الخضراء والخرفان البيضاء وكعك التفاح الشهيّ والحيوانات الثرثارة.. هذا جو غير ملائم في مصر على كل حال وغير مفهوم..! حاول أن تتخيل مثلًا ذات الرداء الأحمر وهي عائدة إلى جدتها على ظهر أتوبيس عام بعد أن اشترت لها العشاء من كافيتريا (الأنوار).. صعبة، أليس كذلك؟ أو تخيل موقف الضفدع الذي تحول فجأة إلى أمير، وهو يحاول أن يقنع مدام (سحر) في السجل المدني بأنه موجود ويستحق شهادة ميلاد..!

معظم هذه القصص هي في الأصل أساطير وحواديت كانت تحكيها الجدات لأحفادها على مر العصور حتى جمعها هؤلاء أو استوحوا منها كتابتهم.. هي إذن قصص تتحدث عن الواقع البشري كما يتخيله البشر في أبسط الصور وأكثرها رمزية.. ولعل أكثر ما قد تلاحظه فيها هو عنصر المبالغة والحدّية..! فلابد للأميرة أن تكون جميلة كالأحلام، ولابد للمرأة الشريرة أن تكون ساحرة تستمتع بقتل الأطفال، بينما تجد (عبقرينو) الرمز المجرّد للعبقرية، وعم (دهب) رمز الثراء، لديه خزينة أموال يسبح بها طوال اليوم.

هذه المبالغات تدل على الحجم الضخم للمعنى المجرّد الذي يحمله صاحب هذا التراث (الإنسان)..! الإنسان يحمل بداخلة صوره المثاليّة الصافية عن القيم، والتي تكون في العادة أكثر تركيزًا وأنقى كثيرًا من تلك الموجودة فعلًا في الواقع، وعلى مرّ أطوار حياته يتعلم الفجوة الكبيرة بين هذه القيم كما هي في وجدانه وبين نفس القيم كما هي في سلوكه وسلوك الناس من حوله..!

خذ عندك مثلًا المراهق العاشق الذي يقرأ شعر نزار قباني ويقطف الأزهار في الحديقة، هو في الواقع يملك بداخله المعنى المجرد للحب، ويبحث عن شخص يركّبه عليه، فما أن يجد أول فتاة قد تصلح لذلك حتى يهديها كل تلك المشاعر..

هناك فجوة بين القيم الصافية التي خلقها الله عز وجل في الإنسان وبين سلوكه المعتاد فعلًا، ليست التجريديات والحدّيات موجودة في واقعه كما تخيل هو في أساطيره الشعبية، إنها اللحظة التي تصطدم فيها الطبيعة التجريدية للإنسان بكل خياله السريالي ومثاليته الحالمة، بالعالم المادي الذي وجد نفسه فيه وسط رائحة العوادم وصوت نفير السيارات..

اللحظة التي يدرك فيها الإنسان أن وعاءه المادي الذي يحتوي روحه هو أصغر منها بكثير، وأن إنسانيته شيء وجسده شيء آخر..

اللحظة التي يدرك فيها عظمة الخالق سبحانه الذي أهداه منظومة قيم أوسع منه شخصيًا ويشترك في فهمها جميع أبناء جنسه، ذلك الخالق الذي قد تفرّد بمصدريّة القيم والأخلاق، ثم تفرّد بالدلالة عليها..! القائل سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾..

شبيه الموز

المكان الذي ذهبت إليه لإصلاح (فرامل) السيارة كان منطقة مليئة بأبناء أشياء ما..! سعيد فرامل ومحسن خراطة وعادل شكمان..! هذه ليست شتائم، بل هو مرتاح بتعريف نفسه لك بأنه سعيد فرامل..! تبين أن هناك مشكلة في (الطنبورة)، لا يمكنك أن تثق في شيء اسمه طنبورة على كل حال، بالتأكيد سيكون شيئًا وغدًا يعطل طوال الوقت..!

وهناك (التيل) أيضًا الذي كان لابد أن يستبدله سعيد ولكن لا يوجد مثيل له عنده فكان عليه أن يأخذه إلى المخرطة حتى يجري بعض التعديلات عليه كي ينسجم روحيًا مع طنبورتي العجوز.. كل مصنع من مصانع السيارات المختلفة قد قرر أن يضع اللمسة الخاصة به على كل قطعة من السيارة ليجعلها متفردة عن باقي أنواع السيارات، صواميل العجلات والسيفتي فالف والبوجيهات وغيرها من الأشياء ذوات الأسماء الشريرة التي يمسكها (الصنايعي) في احترافية ليصارحك بحقيقة (أنها مش بتاعتها)..!

مشكلة التوافق المصنعي هذه تجدها بشكل أكبر في هواتفنا وحواسيبنا الذكيّة، وبعد المشكلة رقم أربعين تبدأ في الإدراك بأنها ليست ذكية إلى هذه الدرجة..! كم مرة وجدت نفسك في مشكلة مع (كارت) الشاشة الخاص بك الذي لم يعد يعمل بسبب تحديث سريع للويندوز جعله لا يتعرف عليه؟ تدخل إلى موقع الشركة لتحميل التعريف وتتوه قبلها وسط مئات التعريفات لمئات كروت الشاشة يملكها أناس (محتاسين) مثلك في جميع أنحاء العالم..

يمكنك أن تفطن أننا لا نجد هذه المشكلة في مخلوقات الله عز وجل، فنحن -كبشر- مثلًا جميعًا متشابهون، بل ومتماثلون في جوانب كثيرة.. لولا هذا التشابه لكانت الحياة أصعب كثيرًا مما تعودتَ عليها.. يمكنني أن أؤكد لك أن طبيب العيون لن يستطيع أن يفصّل أي نظارة لو كان شعاع الضوء يسلك سلوكًا مختلفًا داخل كرة عين كل إنسان..! وأن الجرّاح لن يجرؤ على شق الجلد لاستئصال أية مرارة لو لم يكن يعلم أننا جميعًا نملكها في نفس المكان بالضبط منذ أن تعرّفنا على علم التشريح..! يمكنك أن تتأكد أنه لا يوجد أي طبيب نفسي قد يفهم مشاعرك المعقدة المتداخلة تجاه (سها) إلا لكونك أنت نفسك عدة صفحات محفوظة في كتب علم النفس..!

التشابه يكون أعجب من ذلك حين تفكر في المزيد من المخلوقات..! فالـ DNA الخاص بك يتشابه بنسبة خمسين بالمائة مع DNA الموز وبنسبة ٦٧٪ مع DNA الذرة..! والسلوك الدوراني العجيب لإلكترونات ذرة الكربون في معطفك الخريفي هو ذات السلوك العجيب للذرات التي تكوّن جميع خلايا جسدك القابع أسفل هذا المعطف، وهو بالمناسبة سلوك دوراني مشابه لدورانات الأفلاك البعيدة التي تلمع في سماء ليل أبريل..

الأمر بسيط، فالصانع واحد إذن..! وصنائعه بديعة ومتفردة بشكل مذهل، مع كونها أيضًا متشابهة بشكل عجيب.. وجود هذه الصنائع يؤكد لنا وجوده، وتفرّدها يؤكد إبداعه، وتشابهها يؤكد وحدانيته، وإحكامها يؤكد حكمته، ونقصها يؤكد كماله، واحتياجاتها تؤكد رعايته.. ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾..

العائدون من الموت

الجمال النائم ليس في قصص (ديزني) فقط، بل من الممكن أن يُصاب به الناس في الحقيقة..! مثل المصابين بمتلازمة (كلاين ليفين) الذين يعانون من اضطراب في النوم يصل إلى درجة الغياب عن الوعي تمامًا لمدة تتراوح من ثلاثة أيام إلى ثمانية أشهر..! في هذه الفترة هم قد يضحكون ويبكون بلا سبب ويأكلون بشراهة ويتصرفون كالأطفال، ولكن في داخل رؤوسهم هم لا يفعلون شيئًا سوى مجرد حلم طويل يستيقظون منه بعد أشهر وكأنهم كانوا نائمين فحسب..!

هناك اضطراب نومي آخر نعرفه جميعًا وهو السير أثناء النوم.. لكن ما يثير العجب أن هناك بضعة حالات تم تسجيلها لأناس خطوا خارج نوافذهم وهم نائمون، مثل مراهق وقع من الدور الرابع في ٢٠٠٧ حين كان يسير وهو نائم ثم لما وقع إلى الأرض أكمل نومه بشكل عادي جدًا..!

هناك (لي هادوين) الذي كان يعمل ممرضًا ولكنه كان ينام فيبدأ في الرسم..! الغريب أنه كان يخرج لوحات فنية فعلًا والأغرب أنه لم يهتم بالرسم في أثناء يقظته إطلاقًا..! وهناك مرض (أمبين) الذي يصاب به بعض السائقين حين يدخلون في نوم كامل ومع ذلك يستمرون في القيادة بأعين مفتوحة..

وهناك طبعًا حالات القتل التي تتم أثناء النوم، فحتى عام ٢٠٠٥ تم تسجيل ٦٨ حالة قتل وقعت أثناء نوم القاتل وهو لا يدري شيئًا، مع العلم أن المحكمة لا تحكم للقاتل بهذا

إلا بإثبات قوي مثل فحص كهربيّة المخ أثناء هذه النوبات العنيفة لديهم والتي تثبت أن مخّهم الآن في حالة نوم كامل، بل وهادئ أيضًا..

اضطرابات النوم كثيرة، حتى إن أحد فروع الطب في الدول المتقدمة مختص فقط في أمراض النوم ومحاولة علاجها..

وغالب هذه الاضطرابات غريب جدًا، وهي تفوق كل المواقف الغريبة التي نحفظها جميعًا عن أشخاص قاموا بأفعال غير معتادة أثناء نومهم، تلك الحكايات التي نرددها في جلسات السمر حول أكواب السحلب..

النوم يشبه الموت فعلًا، في حتميّته وقهره وقدرته على إفقاد صاحبه وعيه وبكل هذه السرعة والسهولة..! والله عز وجل وضّح لنا أن ما يحدث لنا عند النوم شبيه بالفعل لما يحدث لنا عند الموت، كما يقول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾..

ما يحدث لنا إذن كل صباح هو في الحقيقة مثال على إحياء الله عز وجل للموتى، نستطيع أن نفهم حينها أن إحياء الله عز وجل للموتى يوم القيامة ليس بأمر معجز لله سبحانه، وأن استردادك لذاتك حين البعث سيكون بنفس السهولة التي استرددنا فيها وعينا مع أصوات خطوات الباعة في الشارع أو رائحة الإفطار الخارج من مطبخ الوالدة..!

وديعة الحنان

غُصّة هي في حلقي في كل مرة أجد فيها من يأتي إلى الكشف مصطحبًا أمه وطفله، إنه موعد الكشف عند الطبيب فيأتي بالعائلة وهذا يحدث أكثر مما تظن، بالكشف على عيني أمه العجوز يتبين أنها تعاني من لائحة طويلة من الأمراض، قرنية معتمة ومياه بيضاء وزرقاء وجميع ألوان المياه المتخيلة.. ولكنه حين عرف كان لا يبالي بحق، كان باردًا متململًا ينظر في هاتفه ولم يسأل عن إمكانيات العلاج أو الجراحة، فقط طلب علاجًا ملطفًا لها وعلى الأرجح كان كل ما يهمه ألا تشتكي له من عينيها مجددًا..!

وأما طفله الحبيب فكان يعاني من قصر نظر بسيط يحتاج إلى نظارة، وعند سماعه الخبر، انتفض بذعر حقيقي من أن يلبس ابنه النظارة، وأخذ يسأل عن احتمالية عملية تصحيح الإبصار لابنه الصغير..!

لم تكن هناك خدعة ما، الأمر كان واضحًا للغاية، هو بالفعل لا يخفي عن نفسه ولا عن أمه العجوز أنه لا يبالي بحقيقة أنها لم تعد ترى تقريبًا بقدر ما يبالي بأن ابنه لا يرى كل الموجودات المملة من حوله بصورة سليمة.. إنه يتصرف مع أمه كأي شيء آخر من (الكراكيب) التي لا يُعرف لها فائدة، فقط إلى اللحظة التي ستموت فيها وحينها سيعزيه الناس في فقدانها وسيصطبغ وجهه بطابع الجدية الحزين وهو يقول: سعيكم مشكور..

هذا ليس برجل شرير إلى هذا الحد، بالأحرى هو ليس أكثر ولا أقل من إنسان وغد، ولو دققت لوجدت أن معظمنا كبشر في الحقيقة أوغاد..

نحب أن يبقى آباؤنا بجانبنا طوال العمر، من ذلك الشرير الذي لا يتمنى أن يتمتع بصحبتهما طوال حياته؟! ولكن الكثيرين منا قد يتردد في الحقيقة قليلًا لو فطن إلى أن هذا معناه أنه سوف يكون مسئولًا عن صحتهما الآخذة في التدهور، وسوف تزداد أعباء الحياة بالنسبة إليه في كل يوم جديد يعيشونه في الشيخوخة المتعبة..!

وحين يصبح الأمر غير محتمل بالنسبة إليه، حين يضطر إلى حمل أبيه المشلول أو الصياح طيلة اليوم في أذن أمه التي لم تعد تسمع تقريبًا، حين يحدث ذلك فإنه قد يفكر على استحياء خافت وبشكل سري للغاية في أنه سوف يصبح أكثر راحة بعد فراقهما.

وحين يحدث ذلك بالفعل سيقف على قبرهما معزيًا نفسه بأنهما قد استراحا من عناء المرض، وسوف يتجاهل ذلك التساؤل الخافت الذي سيأتي من أعماق الضمير قائلًا: تقصد أنت الذي استرحت..؟!

كنت أتمنى أن أصرخ فيه حينها أن أمه -ككل أمهاتنا- كانت طوال حياتها عفيفة عن طلب الحاجة من أولادها، كانت تعتبر نفسها هي الراعية وليست المرعيّة..

كنت أريد إخباره أنها فعلت ذلك لأنها كانت تدّخر كل حاجاتها للحظات ضعف الشيخوخة حين يغدر بها الزمان، فقط كانت أحمق من اللازم حين فكرت أن تضع ثقتها فيك كي تحفظ لها مدخراتها ..

كانت تظن أنك أمين ولا تضيّع الودائع..!

سمكة مونزا الذهبية

منذ عدة سنوات تم إصدار قانون في مدينة (مونزا) الإيطاليّة يقضي بعدم جواز احتفاظ محبو الحيوانات الأليفة بالسمكة الذهبيّة في أحواض السمك الكروية، وفسّر مجلس المدينة السبب وراء هذا القانون بأنه شيء وحشي الاحتفاظ بها في حوض مقوّس الجوانب، لأنها حين تحدّق إلى الخارج ستتكون لديها صورة مشوّهة عن الواقع..! هذا مثال آخر على الرحمة عند الإنسان الغربي والتي لسبب ما لا تظهر كثيرًا إلا مع حيوان الباندا وحمايته من الانقراض، أو السمكة الذهبيّة التي سيتم تشويه صورتها عن الواقع..

بينما قد تجد أنه لا يهتم الإنسان الغربي كثيرًا في الحقيقة بأطفال العراق المقتولين بالقذائف، قدر اهتمامه بالحفاظ على كمية النفط الذي يسمح له بالاستمتاع بصوت ضخ البنزين في محرّك سيارته الـ(كاديلاك)، وقد لا يهتم بأطفال أفريقيا العاملين في مناجم الماس بقدر اهتمامه بحجم الماسة في خاتم الزواج، وقد لا يهتم قطعًا بأطفال البرازيل العاملين في حقول البنّ بقدر اهتمامه بكوب القهوة الصباحي الذي سينعشه بعد نوبة Hang-Over بسبب إفراطه في الشراب البارحة..!

مجلس (مونزا) يرى أن السمكة سوف تتشوه صورتها عن الواقع لأنها ستنظر للعالم من خلال حوض مقوّس الجوانب.. فماذا عن تشوّه صورة الإنسان عن الواقع إذن..؟!

يمكنك أن تظن أن ما تراه أمامك من الموجودات، هو كل ما هو موجود فعلًا حولك.. بينما في الحقيقة شبكيّة عينك لا يمكنها أن تشعر إلا بنطاق معيّن (ضيّق جدًا) من الأطوال

الموجيّة للأشعّة الضوئية يقع بين ٤٠٠ و ٧٦٠ نانو متر.. وكل ما يقع خارج هذا النطاق لا يمكنك رؤيته، ناهيك عن بقية نطاق الأشعة الكهرومغناطيسيّة والتي تقع خارج حدود الضوء أصلًا بين موجات الراديو ذات الطول الموجي الكبير (١٠^{٥} نانو متر) وموجات الكوزميك (تلك القادمة من الفضاء وناتجة عن بقايا للانفجار الكبير) ذات الطول الموجي الدقيق جدًا (١٠$^{-٦}$ نانو متر) هذا هو النطاق الذي نعرفه فقط حيث لا يمكننا التعرّف على شيء منها إلا ما تسمح أجهزة رصدنا بالتعرّف عليه..

يمكنك أن تظن أيضًا أن كل ما تسمعه هي كل الأصوات من حولك.. بينما في الحقيقة أذنك لا تستطيع التقاط موجات صوتية إلا في حدود ترددات معينة تقع ما بين ٢٠ هرتز و ٢٠ ألف هرتز (يقل هذا المدى الأقصى إلى ١٢ ألف هرتز فقط في حالة كبار السن).. هناك من الحيوانات ما يستطيع سماع نطاق من الترددات أكبر من ذلك بالمناسبة، وتبقى في النهاية الفكرة التي نريد إيصالها ثابتة: أنت لا ترى ولا تسمع ولا تشعر إلا بنطاق ضيق جدًا من هذه الحياة، وحواسك محدودة بالفعل..!

وبالعودة إلى السمكة الذهبيّة، فإن حواسنا تقوم معنا بالدور الذي تقوم به جدران القفص الزجاجي المقوّسة: إعادة تهيئة للواقع بما يتناسب مع كيفية إدراكنا له..! هذا ليس هو الواقع كله، ولكن هذا هو مقدار الواقع الذي تمّت (تهيئتنا) على أن نعلمه..!

مثل كيفيّات صفات الله عز وجل الواقعة خارج نطاق حواسنا المحدودة، كما قال سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾..!

أسباب الموت في أستراليا

الروايات الخيالية تختلف عن الواقع في عدة أشياء، منها الأسماء مثلًا، كل أبطال الرواية يملكون أسماءً مميزة متفردة رنانة، خليل ومراد وأكرم ورشا، بينما في واقعنا الحقيقي كلنا تنويعات على نفس الأسماء تقريبًا، وليست الحياة غير مجموعة من محمد وأحمد ومصطفى وشيماء وبضعة أشخاص آخرين..

ولكن الاختلاف الأكبر بين الرواية والواقع أن بطل الرواية لا يموت -إن مات- إلا في آخر صفحاتها غالبًا. يموت البطل عادة في نهاية القصة بعد أن مرّ بأركان الرواية كاملة: الذروة والعقدة والحل، وتكون ميتته مليئة بالدراما وتأخذ وقتها بشكل كامل، حين يدخل على الأشرار في وكرهم ليحرر ابنه المخطوف فيموت في النهاية بطلقتين تسمحان له بأن يثرثر له بكلماته الأخيرة ثم ينظر له بحنان وينظر للسماء مرتين ويبدأ في الكلام مرة أخرى... باختصار يقتلك أنت بالملل قبل أن يموت فعلًا..

هذا غير أنه لا يموت طبعًا قبل أن يفهم هو ونفهم نحن جميعًا ماذا كانت وظيفته في الرواية وأتي إلى الحياة يفعل أي شيء، لقد كان لحياته معنى كبير احتجنا إلى بضع مئات من الصفحات حتى نستوعبه..

بينما الواقع يختلف كثيرًا عن ذلك، حيث ذكرت لنا إحدى الإحصائيات أن عدد الذين ماتوا في أستراليا بسبب الحوادث الإرهابية فيما بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠١٢ هو ثلث عدد الذين ماتوا في نفس المكان خلال نفس الفترة الزمنية بسبب الوقوع من على السرير..!

نموت غالبًا لأسباب عبثية تمامًا في ظاهرها وبشكل مفاجئ للغاية في توقيتها.. ما رأيك أن نأخذ هذه الغرزة في الطريق السريع لتختصر علينا المسافة؟ بوم! لقد متّ.. أو: ما هذا السعال المتكرر فلنذهب للطبيب، بوم! سرطان، لقد متّ أيضًا.

في الواقع نجد أن حياتنا قد تنتهي في أحيان كثيرة قبل أن نعرف ماذا كان معناها..! وقبل أن نختبر الذروة المثيرة فيها حين نحقق ذلك الإنجاز الذي كنا نظن أننا أتينا الدنيا لأجله..! في الحياة الواقعية يموت البطل في موضع عشوائي تمامًا من الرواية قبل أن يفهم هو ما الذي يجري في قصة حياته، وربما قبل أن يستوعب أصلًا أنه هو بطل القصة..!

ولكن لربما نحن لم ننتبه كثيرًا حين أقسم لنا الله بالعصر، وبالليل، وبالنهار، وبالضحى، أن هذه الأوقات تعني الكثير عنده.. لربما لم نفهم أن السبب الذي يجعل من موتنا المفاجئ صباح الغد مفهومًا أن مساء اليوم -وكل يوم- كان ذروة جديدة للملحمة التي تمنيناها..! فقط ننتظر كثيرًا قبل أن نصنع حياتنا، ننتظر أكثر من اللازم، ولا أدري ماذا ننتظر؟؟ ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾..

لربما كانت الرواية تحكي الكثير عن البطل في كل صفحة ولكننا أسأنا القراءة، ربما عشنا حياة كاملة ننتظر على هامش أحداثنا الكبرى، ولم نفطن إلى أن هذه الأيام المنقضية كانت هي أحداثنا الكبرى.. لربما اليوم، الحاضر، الآن، اللحظة الحالية، هذا هو كل ما هو موجود، هذه هي كل فرصنا، هذه هي ذروتنا المتخيلة قبل لحظة موتنا المفاجئة والتي -برغم ما قد نظن- ستكون في موعدها تمامًا، بنهاية طبيعية وغير مبتورة..

أن تكون حزينًا باليابانية

لاحظ الفيلسوف الإنسان [علي عزت بيجوفيتش] أن الصورة الكتابية اليابانية للفعل (يفكر) تعني (يكون حزينًا)، ثم تساءل في عحب إن كانت هذه مجرد صدفة أم منطق خفيّ..!

التفكير يوقفنا على الحقيقة المزدوجة لهذا العالم ويبعدنا عن ظننا القديم بحدّيته، حين كنا نحسب أن هناك مسار واحد يفصل بين النجاح والفشل، أو بين الحرب والسلم، أو بين الراحة والعناء.. ثم لما تأملنا في الوجود أكثر وجدنا أننا بالأحرى في نظام زوجي متكامل..!

فكما نحمل بداخلنا ما يدفعنا للفلاح من العزيمة والإرادة ووازع الله في صدورنا، فنحن نحمل حتمًا ذلك الذي يجرّنا إلى أرض اليأس من سهولة الشعور بالإحباط والرغبة في التقاعس وحب الكسل.. كما نجد الخير مبهرًا في نقائه وصلابته وصلاحية منطقه، نجد الشر جذّابًا في بهرجه وسهولته ووعوده غير المنقطعة باللذائذ..! يجعلنا ذلك نشعر بالحزن وضعف الحيلة والانهزام من قبل البدء والاستسلام قبل كثير صراع..

التفكير يشعرنا بهذه الزوجية التي وجدنا عليها العالم من حولنا، وبشكل أخص، تلك الزوجية التي وجدناها في أنفسنا نحن..! النور والظلام، القبح والجمال، الأمل والقنوط، الخوف والسرور، وحب الدنيا والرغبة في سرعة الفناء.. هذه الزوجية التي قال عنها الله عز وجل: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾..

لا بد إذن أن يغرقنا هذا التفكير في الحزن، الحزن الأليم النابع من تقبل حقيقة أننا لم نفهم أنفسنا بعد، وعلى الأرجح لن نفعل ذلك أبدًا..

الحزن العدمي الذي يشعرنا بلا جدوى سعينا نحو الكمال في اتجاه ما، إذ إننا نعلم أننا نسعى بقوة مماثلة وبسرعة ثابتة نحو العدم والنقائص ولكن في اتجاه آخر مخفي عن عيون الناس..

الحزن المتلذذ بتقبل حقيقة الضعف الإنساني الذي وُلدنا عليه والبحث عن بديل آخر لغطرسة الأمل بالتغيير الذاتي..

نعم، فالأمل قد يكون متغطرسًا في كثير من الأحيان، والحزن هو حين تدرك ذلك..!

لذلك فلا عجب من أن نجد أن الآية التالية كانت: "فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ"..! لا عحب إذ إن من جرّب حزن المتفكرين، لعلم أن التواجد في نظام زوجي متكامل لن يصل به أبدًا إلى باب الخروج منه إلا بالفرار إلى ذلك الفرد الأحد الذي تعالى عنه وتكبّر..

ذلك الإله الذي جعل الحياة كلها أزواج ليكون هو الفرد الصمد وحده..! ليست لديه اتجاهات متضاربة، وإنما هو الحق وليس يشوبه الباطل، هو الجميل وليس يدركه قبح، هو المحسن وليست تقربه القسوة..!

الفرار إلى الله الفرد، هو فقط ما سيكفل لك أن تدخل متفكرًا إلى هذا العالم الزوجي المتناقض ثم لا يدركك أي حزن..!

بانوراما الغزال

أحيانًا تشعر وكأنه يستمتع فقط بتعذيبك بلا سبب.. فحين تسمع الصراخ المجرم صادرًا من طفل رضيع شرير يدعي البراءة، ثم تذهب إلى الطفل لترى ما الذي يريده بالضبط حينها تقع في مشكلة..! فأنت لا تعلم بالفعل ماذا يريد..! قد يكون جائعًا أو مريضًا أو يريد أن يخبرك بأن هناك مفاجآت سارة في حفاضته، أو يريد أن يخبرك بأن هناك مفاجآت سارة قد خرجت من حفاضته، أو يريد النوم أو يشعر بالبرد أو بالملل أو بأزمة وجودية غامضة.

المشكلة أنك لن تعرف أبدًا ماذا يريد حتى تجرب له كل شيء..! عليك أن تلبي لهذا الشيء الصغير لائحة أمنياته كلها وبالترتيب حتى يسكت أخيرًا فتعرف ماذا كان يزعجه.

لو لم تكن رغباتنا نحن قد لُبِّيَت منذ الأزل لكنا نبكي كالأطفال برغم هيئتنا الوقور وسنين عمرنا الثلاثينية. تخيل لو لم تكن قد عرفت الماء منذ صغرك، لو لم يكن هناك ماء رأيته من قبل، كيف كنت ستصف شعورك بالظمأ؟ لم تكن لتعرف أن هذا ظمأ أصلًا..!

بالنسبة لك أنت فوضعك أفضل لأن الذي يدبر أمورك يعرف كل شيء عنك وعن رغباتك.. فلم يضطرك إلى البكاء لحظة..! لست أنت وحدك بالمناسبة، ولكن كل إخوانك وأخواتك في (الخليقة) حصلوا على نفس العناية والرعاية الفائقة..! فالغزالة قد حصلت على عينين في جانبي رأسها يمنحانها رؤية بانورامية واسعة لأكبر مجال بصري ممكن.. بالتأكيد كان هذا هو عين ما تحتاجه لأخذ الحيطة والحذر من تربصات الفهد الجائع الذي

يشتهيها..! بينما حصل الصقر على عينين متجاورتين في مقدمة رأسه يمنحانه رؤية متداخلة ممتازة ثلاثية الأبعاد.. لو لم يكن قد حصل على هذا لبكى الصقر كالأطفال لأنه لا يستطيع اقتناص أي فرخ طائر من اليابسة.

لو لم يكن الإنسان قد حصل من ماشيته على اللبن الطازج ليحوله إلى جبن وزبد وسمن وقشدة، فلربما صار الكثير من الناس على موعد دائم عند طبيب العظام مع كل هذا الكالسيوم المفقود، وكانت سفرته لتكون أقل متعة بالتأكيد.. كان ليشعر بأن هناك شيئًا يحتاجه لكنه لا يدري ما هو، ناهيك عن حيرة البقرة وهي تتساءل عن ذلك الشعور المؤلم لضرعها المحتقن الذي يفتقد إلى من يعتصره بانتظام، من جديد فالبقرة لم تكن لتعرف أن هذا هو عين ما تحتاجه إلا بعد أن حصلت عليه بالفعل.

هذا المدبر الكبير لم ينتظرك لتبكي أو تطلب، لأنه يعلم أنه مهما بلغ ذكاؤك فلن تخمن أبدًا ما الذي تحتاجه..! لن تستطيع مهما بلغ بك العمر أن تسمي رغبتك قبل أن يذيقها لك أولًا، لتفهم أن هذا هو ما كان ليسد ذلك الألم بداخلك.. الألم الذي لم تشعر به أبدًا لأنك لم تحرم من هذه الرغبة أصلًا..!

لذلك يمكنك أن تعتبر كل لحظة من لحظات النعيم أنها كانت (سؤالًا) منك له، ولكن مع فارق، أنك قد حصلت على الإجابة قبل أن تسأل السؤال أصلًا..! أنك قد حصلت على ما تريده قبل أن تسميه..! حينها تعلم أنك لم تُخذَل منه قط.. لم تُنسَ منه قط.. لم تُهمَل منه قط.. كما قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾..!

استخراج

يحكون أن (تشرشل) كان يستقلّ سيارة أجرة إلى مقر الـ BBC لإجراء مقابلة إذاعيّة فقال للسائق انتظرني هنا ٤٠ دقيقة وسأجازيك، قال له السائق: "لا يمكنني ذلك، فأنا أريد أن أذهب لبيتي لأستمع إلى تشرشل في الإذاعة".. بالطبع هذا كان قبل انتشار التلفاز، فلا يعلم الناس ما هو شكل تشرشل أصلًا، ومنهم هذا السائق.. فرح تشرشل بما أظهره ذلك السائق من حب حقيقي في غيابه له، وأحب أن يكافئه فأخرج له عشرة جنيهات أسترلينيّة، من ثمّ قال السائق: فليذهب تشرشل وخطاباته إلى الجحيم، سوف أنتظرك هنا اليوم كله لو أردت مقابل هذه الجنيهات العشرة..!

الولاء والصدق والحب هي أشياء لا تباع ولا تشترى، ولا يمكن الاستدلال عليها إلا لو تركت صاحبها يعبر عما بداخله دون خوف أو هلع.. لا يمكن للإنسان أن يُظهر ما هو عليه فعلًا لو لم يكن لديه (الخيار) لذلك.

لذلك يقول (أوسكار وايلد) أيقونة الأدب الأيرلندي: "الإنسان يكون في أقل أحواله مشابهةً لنفسه حين يتحدث بالنيابة عن نفسه، ولكن أعطه قناعًا وسوف يقوم بإظهار من هو بالفعل..!"، ويقول كاتب الرعب الأمريكي (روبرت بلوك): "حين تُزَال كل الأقنعة يبدأ الرعب..!"، ويقول الفيلسوف الألماني (ميستر إيكهارت): "اذهب إلى حديقتك الخاصة، وتعلم هناك أن تعرف من أنت حقًا..!"، ولربما هذا هو السبب في قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "خذوا حظكم من العزلة"..

الوقت الذي تقضيه بمفردك عن أعين المراقبين هو الوقت الذي تقرر فيه من أنت، ما هي القيم التي ستحتفظ بها، ما هو الوجه الحقيقي الذي تملكه..! كما يقول الله عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.. وعدّها ابن حجر الهيتميّ الكبيرة رقم ٣٥٦: "إظهار زي الصالحين في الملأ، وانتهاك المحارم في الخلوة"..! وكان يقول (سحنون) رحمه الله: "إياك أن تكون عدوا لإبليس في العلانية صديقا له في السر!.."

لو لم يكن هناك غيبٌ لما ظهر أي أحد على حقيقته، ولما ظهر ذلك الذي يخاف مقام ربه ويرهب مكانته حقًا من ذلك الذي يدّعي، كما قال جل جلاله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.. لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي يرجو رحمة الله وثوابه ولو بعد حين من ذلك الذي لا يريد إلا شهوات نفسه العاجلة، كما يقول سبحانه: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾.. لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي ارتبط قلبه بالحق والخير، فما أن يبتعد عنه قليلًا إلا ويسرع في العودة إليه وينيب، كما يقول جل جلاله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾..

وبرغم أن الله يعرفنا جميعًا ويعلم ما نسر وما نعلن، إلا أن ظهور علمه فينا أمام الناس وأمام أنفسنا هو من إقامة الحجة التي ارتضاها مظهرًا من مظاهر عدله الإلهيّ ..

الغيب إذن يستخرج من الإنسان أحسن ما فيه وأسوأ ما فيه، فيظهر من هو فعلًا، وما معدنه حقًا، وبطريقة يشهد بها الإنسان على نفسه، فلا يلوم حينها أحدًا إلا نفسه..!

اقتلوا جودو

كتب (صامويل بيكيت) مسرحية كاملة يدور محورها حول انتظار مجيء رجل يُدعى (جودو)، وتنتهي دون أن يظهر على الإطلاق..! كانت هذه فلسفته عن الحياة، أنها مجموعة من التوقعات الرائعة والانتظارات المرجوّة التي تخيب في غالب الأحيان..

إذا أردت أن تختبر فلسفة (بيكيت) فما عليك إلا سؤال الصائم هل كان دائمًا الكوب الأول من الماء عند الإفطار بنفس الروعة التي كنت تتوقعها تحت شمس الظهيرة المتوحشة..؟ أو اسأل أي زوجين شابين مرّ على زواجهما عدة أسابيع، هل شعرت أنك كنت تبالغ قليلًا في تخيّلك لروعة الزواج..؟ اسأل كل ناجح في دراسته إن كان قد شعر وقت النتيجة بنفس المشاعر التي كان يتوقعها وقادته إلى مواصلة الليل بالنهار، واسأل الذي ادخر أمواله وصرف إجازاته في سبيل رحلة مصيف إن كانت القاذورات التي داس عليها في قاع البحر وحبات الرمال التي التصقت بفروة رأسه كانت في نطاق توقعاته..

أحيانًا أشعر أن الإنسان مخلوق بجهاز أحلام داخلي أجمل بكثير من واقعه، أن تصميمه الداخلي يجعله دائمًا يبالغ في توقعاته.. وكنتيجة لذلك تعتاد خيبةُ الأمل عتبةَ بابه، ولربما اعتادت بابه أكثر من اللازم فتصبح صاحبة بيت، ويبدأ الإحباط يفكر له بدلًا منه، ويتحول إلى النقيض، فيبدأ في توقع الأسوأ دائمًا.

جودو وغد..! عليك أن تدرك ذلك. في أغلب الأحيان لا يأتي، في أغلب الأحيان لن تكون دنياك بنفس مستوى روعة أحلامك، كثيرًا ما ستشعر بصفعة على أحد خديك،

وغالبًا ستكون مؤلمة، وسيتناسب هذا الألم طرديًّا مع المسافة التي تفصل واقعك المرّ بحلمك السابق.. قانون فيزيائي لن يتغير لأجلي ولا لأجلك.. لن يحابي أحدًا ولن يراعي أنك لطيف وطيب القلب.

الحل بسيط، علينا أن نكف عن الأحلام وننزل إلى أرض الواقع. لكن الكلام رخيص، فنحن لن نستطيع أبدًا أن نكفّ عن الأحلام والتوقعات العالية..! ببساطة لأنها ألذّ من اللازم، وأجمل من أن تُترك..! لأننا نحتاجها حتى نشعر بالحد الأدنى من الحماس الذي يُنهضنا من على مرقدنا صباحًا.

فلو لم نستطع تغيير الحلم، فلنغيّر الواقع نفسه إذن..! والجميل أن هذا مقدور عليه..! يمكننا ألا نصاب بخيبة الأمل على الإطلاق.. يمكننا أن نجعل أقدار الله لنا بنفس الروعة التي في أحلامنا..! ولربما أروع. يمكننا أن نصاب بنوع من التعالي الصحي على الحياة الدنيا، فنشعر أننا أكبر وأهم من أن تأتينا دنيا سخيفة بشيء على غير مرادنا، أو أن تسبب لنا إحباطًا أو يأسًا. يمكننا أن نخدعها فتفعل بنا الأفاعيل فنفاجئها بأن هذا ما أردناه أصلًا، وأنها لم تفعل شيئًا بهذه المصيبة أو تلك إلا تحقيق رغبة أخرى من رغباتنا.

حينها سيموت جودو إلى الأبد. لأن الواقع ولو خالف حلمنا، فلن يخرج عن كونه متعة أخرى ولذة أخرى وأجر أكبر..! أمر عجيب فعلًا، حتى النبي ﷺ نفسه تعجب منه حين قال: "عَجَبًا لأَمرِ المؤمنِ، إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليسَ ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابته سراءُ شكرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر، فكان خيرًا له"..

خلف أعمدة الإضاءة

لا بد من يقين..

يقينٌ أن ذلك السفّاح، مدمن الخمر، ملازم النساء، الذي لم يدع ذنبًا إلا ولازمه، ولم يدع واجبًا إلا وقد تركه، الذي نظر له أهله وجيرانه متسائلين عن اللحظة التي يموت فيها كي تستريح منه البلاد والعباد..

يقينٌ بأن هذا الرجل إلى مغفرة الله ليس بأحوج منك..!

يقينٌ بأن ذلك المسكين في عرض البحر وقد غرقت عنه سفينته، وتكشّف له ظلام البحر الأوليّ البكر، ويشعر في أصابع قدميه بدغدغة أسنان الأسماك، متعلقًا بخشبة مسكينة مهترئة، وينظر إلى السماء الواسعة التي ترثي لحاله..

يقينٌ بأن هذا الرجل إلى عون الله وغوثه ليس بأحوج منك..!

يقينٌ بأن تلك الفتاة التي قد ذهب عنها عرضها في لحظة ضعف تبعها ندم، وتسير في شوارع ظلماء ساكنة، تحاول أن تختبيء خلف أعمدة الإضاءة الرماديّة وتحت الأشجار النحيلة، شاعرة بالخوف من الغد والرغبة في الفرار والعجز عن إكمال المزيد من تلك الحياة..

يقينٌ بأن هذه الفتاة إلى ستر الله ليست بأحوج منك..!

يقينٌ بأن تلك الأرملة الكسيرة، التي ذهب عنها زوجها في لحظات قاسية، ولها من الأطفال بضعة نفر، وتحولت آمالها من الوسع إلى الضيق، وصار كل همّها وأكبر أمانيها أن تحصل على وجبة أطفالها التالية، واضطرت إلى أن تقف لأول مرة في حياتها أمام باب المسجد، وقد ارتدت نقابًا يغطي وجهها، واختنق صوتها من البكاء فلا تطلب من الناس شيئًا، وتتسوّل في صمت..

يقينٌ بأن تلك المرأة إلى جبر الله لكسرها ليست بأحوج منك..!

يقينٌ بأن ذلك الرجل البائس، الذي يدعو الله كل ليلة بعد صلاة العشاء، رافعًا يده إلى السماء مطرقًا ببصره إلى الأرض، بأن يرزقه ذلك الذي يحلم فيه منذ عدة سنوات، طفلًا صغيرًا يصنع بوجوده هدفًا له في المعيشة، إن لديه الكثير في عقله يريد أن يعلمه له، ولديه الكثير في روحه ينتظر أن يعطيه له..

يقينٌ بأن هذا الرجل إلى رزق الله وهبته ليس بأحوج منك..!

يقينٌ بأنك الأفقر بين عباد الله، وأنك الأرجى لأن يكون معك.. يقينٌ أنك هالك لو تركك لنفسك، وأنك ضائع لو تبعت هواك.. يقينٌ بأنك الضعيف وهو القوي، وأنك الكسير وهو الغنيّ.. يقينٌ بأنه يقدر ولا تقدر، وأنه يعلم ولا تعلم، وأنه علام الغيوب..

يقينٌ يا رب.. أني أحتاجك..

على الطريقة الأمريكية

"أنت إنسان بشع"..! هكذا ردت واحدة من أعضاء المجموعة التي يتعالج فيها نفسيًا على الطريقة الأمريكية حين صارحهم بواحدة من شناعاته.. الحقيقة التي كانت تؤلمه أن له أفعالًا أكثر شناعة بكثير.. هو فقط سرّب أقلهم سوءًا ليختبر ردود فعل الناس عليه.

طوال حياته كان يقابل هؤلاء الذين يحاولون إقناعه أنه شخص طيب وأن كراهيته لنفسه ليس لها مبرر حقيقي، في أحد المرات فقط قابل شخصًا حكيمًا حقًا، رآه ذلك الشخص وهو يسب نفسه في المرآة، فقال له: "إذن أنت حمار آخر من الذين يظنون أن هذا السب كافٍ لما يستحقونه، على الأرجح أنت أسوأ كثيرًا حتى مما تعتقد" ثم رحل..!

حين يتحدث مع صديق له ليخبره أنه إنسان سيء، كان صديقه يؤكد له أن كل الطيبين يظنون ذلك، لم يشأ أن يصارحه بحقيقته، الأفعال التي يرتكبها حين لا ينظر أحد، الأفكار التي يحملها، أمنياته السوداء والتي لا يمنعه عنها إلا العجز عن الوصول لها.. بعد فترة من تكرار كلام صديقه له أخذ يفكر أن لربما كان على حق، ربما هو فقط قاسٍ مع نفسه أكثر من اللازم..! صدق ما كان يقوله له صديقه دون أن ينتبه إلى أن صديقه قال ذلك فقط لأنه لا يعلم ما الذي كان يفعله البارحة..! مع الوقت كوّن اعتقادًا، هو إنسان شنيع بالفعل، الآخرون فقط ليس عندهم مقدار كافٍ من العلم كي يدركوا ذلك.

في الحقيقة هو كان يحتاج إلى شخص واحد يستطيع أن يصارحه بكل شيء سيء بخصوصه، كل أفعاله الحمقاء، كل آثامه الخفيّة، كل أمنياته المخجلة، يريد من هذا

الشخص أن يعرف عنه كل هذا، ثم ينظر له في عينيه بثبات ويسأله: والآن، هل تستطيع أن تسامحني..؟ لربما لو استطاع أن يسامحه، لربما لو استطاع أن يظل لطيفًا معه، لربما وقتها يعقد السلام مع نفسه أخيرًا، لربما حينها فقط يقدر على أن ينظر لنفسه في المرآة دون أن يتذكر كلمة الرجل الحكيم: "أنت أسوأ كثيرًا حتى مما تعتقد".

ولكنه يعلم أنه لن يستطيع أبدًا أن يفعل ذلك مع أي شخص.. كانت هذه أسوأ فكرة حملها عن نفسه يومًا، أنه أسوأ من أن يستطيع أن يكون صريحًا حقًا مع أحد.. هو في الحقيقة جاوز في شناعته حدود المسامحة البشرية المعتادة، يعلم أن حقيقته التي يخفيها عن الجميع خارجة عن قدرة البشر عن التفهم والقبول.

لم يكن يعلم أن هذا الشخص المتفهّم الذي كان يبحث عنه هو موجود دائمًا، فقط هو ليس شخصًا متفهمًا فعلًا، ولكنه إله..! إله قد قال عن نفسه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، إله خبير بكل شناعاته، لطيف مع ذلك معه..!

إله يعلم أننا جميعًا أسوأ بكثير مما نبدو لبعضنا البعض.. وبرغم ذلك يكون رده على كل واحد منا: فإني قريب..!

لو كان يعلم هذه الحقيقة لربما سكنت نفسه أخيرًا، لربما استطاع أن يبتسم، لربما غير هذا من رؤيته لنفسه، يعلم أن له أفعالًا شنيعة بالفعل، ولكنه لم يخرج أبدًا عن حدود السماح والرحمة.. بل إنه حتى لم يبتعد عنها..!

كيف يكون قد ابتعد، بينما صاحب هذه الرحمة نفسها هو من يقول له أنه قريب..؟!

مغمضو الجفون في القطار السريع

في عام ١٩٠٧ قام الطبيب الأمريكي (دونكان ماكدوجال) بواحدة من أكثر التجارب العلميّة تخلّفًا وانحيازًا ولا أخلاقيّة..! حيث عمد إلى ستة من المرضى المصابين بالسل في دار للعجائز وكان يعرف أنهم سيموتون فثبّت بأسفل كل واحد منهم ميزانًا وقام بوزنهم قبل وأثناء وبعد الاحتضار كي يثبت أن هناك جسمًا قد خرج منهم عند الموت: الروح..!

كانت النتائج غير مبشرة، حيث أعطى كل واحد منهم نسبة اختلاف ضئيلة وغير متساوية مع بعضها البعض إطلاقًا.. هذا بالطبع كان كفيلًا بإجهاض تجربته (العلميّة) حيث إنها غير خاضعة للقياس بهذا التفاوت الكبير، إلا أن ماكدوجال لم يستسلم وقام بجمع هذه النسب المتفاوتة وقسمتها على ستة، ليخرج بمتوسط (وزن) الروح وهو ٢١ جرامًا..! لم يتم أبدًا اعتبار تجارب ماكدوجال علمًا.. لكن هذا لا يمنع من أن هذه النتائج قد تسرّبت إلى وجدان العامة بشكل أو بآخر..! وأنت إن بحثت عن الـ (٢١ جرامًا) لوجدت أنها عنوان فيلم درامي من إنتاج هوليود سنة ٢٠٠٣ يتحدث عن نفس المبدأ..!

لم يكن الوعي البشري يحتاج إلى تجارب ماكدوجال حتى يوقن بوجود (الروح) على كل حال.. فقد كان الإغريق القدماء مثلًا يضعون في فم الميّت قطعة معدنيّة، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن (شارون) سيطلب من الميت أجرًا على عمله.. حيث شارون هو عامل (المعدّية) على نهر (ستيكس) الذي ينقل الأموات من عالم الأحياء إلى مملكة (هاديس) حيث يمكث الموتى في انتظار أن يتم الحكم عليهم وعلى مصيرهم الأبدي.. والقدماء المصريون

كانوا ينزعون أحشاء الميّت كلها ويتركون قلبه، لأن القلب هو ما سيتم وزنه على ميزان الآلهة بعد البعث ليتقرر مصيره.. وأما الهندوس والبوذيّون والكثيرون من وثنيي أفريقيا فيعتقدون بتناسخ الأرواح بأن الروح لا تذهب إلى عالم آخر ولكن تدخل في جسد وليد جديد، وأنه على حسب أعمالك يتم اختيار هذا الحاضن الجديد لروحك، فبالتالي قد تكون حياتك الأولى في جسد زعيم القبيلة ولكن لأنك لم تكن ذا أخلاق حميدة فإن حياتك الثانية قد تكون صرصورًا يعيش في المراحيض ومصاب بالتهاب المفاصل..!

نحن إذن أمام اطّراد بشري جديد، في هذه المرة الاطّراد يتعلق بوجود شيء لطيف في الكائنات الحية، وهذا الشيء يذهب بعد الموت إلى مكان ما..! وعلى الأرجح يتضمن هذا المكان ثوابًا وعقابًا لصاحب هذا الجسد الذي مات.. ونحن كمؤمنين بالقرآن –ومعنا طائفة كبيرة من أصحاب الديانات الإبراهيمية– نعلم أن هذا المكان هو يوم القيامة الذي سيجمعنا فيه الله عز وجل ليحاكمنا ويحكم بيننا ويلقى كل إنسان مصيره الأبديّ..! كما يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.. هذا يتطلب إذن الكثير من الاستعداد لهذا اليوم كما ترى..!

ولكن الكثيرين من البشر فضّلوا أن يتعاملوا مع هذه المسألة بطريقة طريفة وذكيّة للغاية: أغمضوا أعينهم..! وبنفس منطق من يركب القطار السريع في مدينة الملاهي فلا يريد أن يرى المهابط المخيفة ولا الارتفاعات الشاهقة التي هي أمامه، يفضل حينها أن يغض طرفه عن كل ذلك ويتجاهله تمامًا..! لا يعلمون ما المكان الجديد الذي سيذهبون إليه، وهم لا يبالون كثيرًا بذلك، واختاروا أن يُغمضوا أعينهم في القطار السريع..!

جراب الجلوكوز

خزينك من الجلوكوز والأحماض الأمينية والحديد والفوسفور وحمض الفوليك والماغنسيوم وبقية المعادن هو مخزون صغير ينفد سريعًا، لذلك عليك أن تأخذ هذه العناصر بشكل مستمر مع وجبات غذائك..

هذا ما يعرفه كل طبيب تغذية حين يقابل شخصًا نباتيًا فيخبره أن عليه أن يكمل غذاءه بفيتامين B12 الذي لن يجده في أي نبات..

وأما الجزيئات الأهم لجسدك مثل الماء والأوكسجين مثلًا فليس لديك مخزون منها أصلًا.. ولربما هذه من أسباب رحمة الله عز وجل علينا بأن جعل الماء والهواء من النعم المشاع لكل البشر في كل وقت وبلا كلفة تذكر..

النعم الأساسية الموجودة في جسدك تتحصل عليها بشكل مكتسب ومستمر في كل لحظة سوف تتنفس فيها أو تشرب فيها الماء أو تأكل وجبتك التالية..

هذا شبيه بنعمة ضياء الشمس مثلًا، هو حرفيًا يذهب كل ليلة ويعود كل صباح، لاحظ أننا لا نتحدث عن شيء موجود دائمًا، ولكن عن شيء يتجدد دائمًا..!

ربما كان هذا هو السبب الذي ذكرنا القرآن لأجله بأن علينا أن نعيد الانتباه كل يوم لنعمة تجدد سكينة الليل وضياء النهار: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾..

إن هذه أمثلة جيدة على أن نعم الله في الواقع تتجدد عليك بشكل كامل في كل لحظة، أنت الذي حسبت أنها كانت أشياء أعطاكها وكفى، لم تفطن إلى أن عملية الإعطاء مستمرة..!

لم تفطن إلى أنك ما زلت واقفًا تملأ جرابك المحدود بنعمه غير المحدودة، فقط من طول وقفتك قد نسيتها تمامًا، بينما لو أصخت السمع لاستمعت إلى صوت تلك النعم التي لا يتوقف دخولها في جرابك كصوت رتيب مستمر دافئ تعتاد عليه أذنك حتى تنساه، مثل صوت ثلاجتك الصاخبة الذي لا تنتبه له إلا حين يتوقف.

هذا يذكرك بأن ربك ليس صانع ساعات خلق الكون وضبطه ذاتيًا ثم رحل، بل ربك ما زال يحوطك بعنايته وإحسانه في كل لحظة ويلاقيك في كل حين بعين ما تحتاجه..!

لذلك تجد أن الله لم يهملنا لحظة، يطعم جائعًا، ويستر عاصيًا، ويجبر مكسورًا، ويرزق محرومًا، ويرحم يائسًا، ويرزق الجميع من حيث لا يحتسب أحد.. كما يقول عز وجل: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾..

في المرة القادمة إذن التي تشعر فيها من داخلك باليأس من أن تنالك تلك الهبة من الله، بالخوف من أن يخيب ظنك في كرم المنّان، بالشك في رحمته لحالك ورأفته بمبتغاك، فعليك أن تتذكر جراب نعمك الذي لا يتوقف عن تلقي حصتك من العطايا اليومية المعتادة..!

فما الذي سيحجز ربك الكريم عن أن يُنزل عليك هذه العطيّة مدسوسةً بين هذه العطايا أو تلك..؟!

معيار التيفاك

في المطاعم الفاخرة لا ينبغي لك أبدًا أن تنسى ثلاث نصائح... أولًا لا تصدق الصور الموجودة على القائمة.. فما تراه أمامك هي دجاجة كبيرة شهية وأوسم منك شخصيًا، بينما ما سيصل إليك هي نفس الدجاجة ولكن بعد أن تجير عليها الدنيا والأزمان وأصابع عم أشرف.. ثانيًا لا تثق في المادة اللزجة بجانب حوض الحمام، من فضلك لا تفترض أنها صابون لمجرد أنها (تزحلق)، عليك أن تتذكر أن كمية لا بأس بها من المواد الكيماوية (تزحلق) أيضًا، ونصفها أرخص من الصابون في نظر إدارة المطعم بالمناسبة.. ثالثًا لا تفتح زجاجة المياه ولا علبة المناديل على الطاولة، قد تظن أنك طالما ستدفع مائتي جنيه في الفاتورة، سيسامحك صاحب المطعم المليونير على شربة الماء هذه، لكنك مخطئ للغاية..!

المشفى الفاخر الذي يكسب الآلاف كل ساعة يحاسب مرضاه على قطعة القطن الأبيض التي مسحت بها الممرضة موضع الحقنة..! والطبيب فاحش الثراء وقور الهيئة يطلب من مرضاه ثمن الشاش واللاصق الطبي..! وهناك من طلاب المدارس من يحرص على عدم ترك وجبته المدرسية التي يكرهها، فقط لأنها مجانية، يفضل أن يأخذها لتتعفن في حقيبته بين كتابي المنطق وعلم النفس على أن يتركها لزميله الذي يريد أن يأكل وجبتين..! إن كلًا من المنطق وعلم النفس لن يفسرا لنا بسهولة سبب هذا السلوك..!

مشاعر كثير من البشر تجاه بعضهم البعض لا يمكن تلخيصها ببساطة في البخل، ولكن في عشق البخل..! عليك أن تكسب من كل شيء، عليك أن تأخذ المزيد، لا تترك للناس

شيئًا.. هذه هي قواعد الحياة البسيطة التي نتوارثها منذ القدم عن أجدادنا الأولين.. وفي القرون القادمة ستتغير الكثير من العادات والتقاليد والقيم لكن ستبقى أمثال هذه القواعد (النذلة) باقية محفوظة لا تُمَس.

غير أننا لا نبخل على الناس بكل شيء، هناك الكثير من الأشياء التي نراها مجانية فنبذلها بلا عناء.. لا أحد يبخل بإعجابات الفيسبوك، أو بكلمات المواساة، أو بنظرات الشفقة.. ربما يصلح هذا في الحقيقة كمعيار لمدى قيمة الأمور لدينا، فالأشياء التي لا نرى لها كبير أهمية نعطيها بسخاء.

فحين يقرر أحدنا في أن يرائي بعمله عيون البشر في عباداته فهو قد جعل العبادة الشريفة التي هي حق الله عز وجل من الأمور الرخيصة التي يتصدق بها أحدنا على الناس بسخاء، ولا يساويها حتى بتلك الجنيهات القليلة التي نتقاتل عليها..!

مثلًا في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.. يتبين لك أن هناك من سيهب أجر الصلاة نفسها لعيون جاره، فيجمّل صلاته لأجله حين يراه في المسجد يوم الجمعة.. وبرغم ذلك فحين يطلب منه نفس الجار (ماعونًا) كإناء الطهي ليستعمله ثم يعيده، فإنه سيبخل عليه به..! لذلك استحق المرائي أن يبغضه الله كل ذلك البغض، واستحق أن يبطل عمله مهما كانت عظمته، واستحق أن يكون هو أول وقود جهنم.. لأنه أعطى حق الله عز وجل عليه هدية لنفس الشخص الذي يبخل عليه بـ (حلة التيفال)..!

فما هو يا ترى قدر الله عنده..؟!

عضلي أجوف

منذ اللحظات الأولى لطفولتنا كنا نرسم القلوب الحمراء بكثرة غير منطقية في دروس الرسم، ثم مررنا بفترات المراهقة حيث أحب البعض أن ينحته على الأشجار، ثم هناك بالطبع (إيموشونات) السوشيال ميديا.. نرسم هذا الشكل دون أن نبالي أن جميعنا يعلم بالفعل أن شكل القلب الحقيقي ليس كذلك.

القلب مميز بالفعل في كل شيء، فهو العضو الوحيد الذي يُحرّك نفسه بنفسه دون حاجة إلى تعليمات المخ، وهو العضو المانح الموزّع لكل احتياجات الجسد، وبرغم أنه من الناحية التشريحية عضو عضلي أجوف إلا أننا ندرك تمامًا أنه بالطبع أكثر من ذلك..!

يكفي أنه يفهمنا حين يتسارع في عمله في أوقات صعوبة الشك أو الحيرة، ويرأف بنا حين يتباطأ قليلاً وقت أن تفتر رغبتنا عن الحياة فيرسل كمية أقل من طاقة الحركة لعقلنا كي يكف قليلاً عن الضجيج، ثم أنه في النهاية يفضحنا بالنبضات حين نهتم لشيء ندّعي من داخلنا أننا لا نهتم له..!

عضو عضلي أجوف؟

لا أصدق حقًا أنه أجوف، لربما كنا لا نرى ما بداخله ولكننا نَخبره قطعًا.. نشعر بكل هؤلاء البشر الذين يسكنون بداخله ، لو لم يكونوا بداخله فكيف نرى صورتهم دائمًا أمامنا

من دون أن تراهم العين؟ نشعر بكل هذه المبادئ تنحشر بداخله، لو لم تكن بداخله فلماذا نوقن بها إلى هذا الحد من دون أن نتعلمها في المدارس؟

فوائد القلب كثيرة هي إذن.

لربما لم يكن هو العضو الذي يفكر حقًا ولكنه يتفكر أكثر مما نظن، لربما لم يكن هو من يُحرّك أطراف أجسادنا ولكنه هو المسيطر عليها بالتأكيد، لربما ليس فيه مركز الضحك والحب والنشوة والأمل، ولكننا حتمًا نعلم أنه دائمًا هو أول من يعلم بمشاعرنا، ربما قبل أن نعلم بها نحن.

على أن فائدة القلب الأكبر هي أنه حلقة وصل المادة والمعنى، بوابة الربط بين الواقع والحقيقة، نقطة تسجيل الخروج من وحل (الدنيا) وتسجيل الدخول إلى مملكة (الحياة).

القلب، ذلك الذي يفكر بداخلك حقًا عوضًا عنك، تلك الأمنيات الباطنة القوية، اختلاجات المشاعر الفاضحة، واضطرابات الفكر الناضجة، هذا القلب هو الموضع الذي ينظر إليه الله منك، هو الميزان الذي يخبرك أنت من هو أنت فعلًا، هو شهادة الضمان التي تدخل بها إلى ملكوت الرحمن يوم القيامة حين لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

القلب هو مرآة تنظر بها إلى مكانتك عند ربك، فأنت ستعرف قدرك عند الله بالقدر الذي ستراه لله في قلبك..!

سر صلاح الدماطي

لا بد أنه في مقر أحد الصحف المحلية شديدة (الصُفرة) يقبع صحفي تَعِس وسط عدة صراصير تعِسَة بدورها، ويبحث عن شيء ما لكتابته، هنا يتذكر ما درسه في (كورس البؤس الإعلامي) من ضرورة استخدامه لمصطلح (كشف المستور) أثناء كتابته للخبر مرتين أسبوعيًا على الأقل..! إن الصحيفة الصفراء التي لا تحتوي على خبر بعنوان (كشف المستور عن ...) ليست بائسة بالقدر الكافي ولا تجيد عملها على الإطلاق.

لسبب ما يعشق الناس هذه الكلمة، سارع إلى معرفة السر الذي عرفه الفريق صلاح الدماطي من المشير عبد الحكيم عامر شخصيًا.. هل أنت مستعد لمعرفة (المستخبي)..؟ إن عبد الناصر كان يعشق صيد البط وهو يلبس (الفانلة) الداخلية البيضاء..! ثم بعد أن تعرف السر تدرك أن المعرفة عبء بالفعل..! أن تعيش في مجتمع من السُذّج ممن يظنون أن عبد الناصر كان يصيد البط مرتديًا بزّته الأنيقة بينما أنت وحدك تعلم الحقيقة.

وبرغم هذا الفضول البشري الخرافي، فإننا نتقبل بسهولة أن تكون هناك أسرارًا غير مفهومة فعلًا.. بل وقد نجد لذة لهذا الجهل أو ذاك ويصبح مادة خصبة لإثارة الخيال الشعبي.. أتحداك إن كنت ستتذكر من هو (كينيدي) لو كان قاتله قد عُرِفَ وقتها..! أو إن كان (جاك السفاح) سيحصل على هذه الشهرة لو كان قد تم القبض عليه بالفعل..! نتقبل كل هذا لأننا برغم أنوفنا ورغم فضولنا لمعرفة كل شيء، وكل سر، وكل مستور.. فإننا نتعلم دائمًا أننا محدودون بقدراتنا البشرية التي هي أكثر مسكنةً مما يظنه الكثيرون.

على أن معظم الناس لديها ثقة كبيرة في هذه القدرات وأنا منهم، لن أغضب كثيرًا من علماء الفيزياء عندما لا أستطيع فهم (نظرية النسبية) بشكل كامل مهما حاولت، لن أغضب طالما يحدد هاتفي مكاني بتقنية الـ GBS المعتمدة في تعديل دقتها على نفس النظرية..! طالما ستقوم بإرشادي بنجاح إلى مقابر قرية (المِربّعين) -وهو مكان حقيقي بالمناسبة- فإني سأثق بها وأعتبرها حقيقية حتى لو بدا إثباتها الرياضي أشبه بطلاسم سحرة الفودو، وبدا إثباتها الفلسفي أشبه بقصص تان تان..!

لا نحتاج إلى فهم كل شيء إذن حتى نحصل على الثقة..! لا نتضايق إن (تشابه علينا) أو التبس.. يكفينا أن نتأكد من وجوده، يكفينا أن نرى آثاره، يكفينا أن نفهم (الكثير) من الأشياء الأخرى (المُحكَمة) التي أتت لنا من (نفس المصدر)..! جميعنا يقوم بذلك فيما يختص بعلوم البشر.. لكن حين نأتي إلى علوم الإله، فيما يختص به، وبكينونته، وصفاته، وما يفعله بنا من خير أو شر، وما سنه من سنن في قدره، وما شرعه لنا من أمر ونهي، حينها يصر بعضنا على أنه يجب أن يكشف المستور عن كل شيء، لابد أن يفهم كل التفاصيل والأسباب، ولو لم يفهمها فالأمر بسيط، يشطبها من قاموسه كأنها لم تكن..!

يمكننا أن نكشف من هذه المفارقة أن هؤلاء احتاجوا إلى طريق قرية (المِربّعين) أكثر من احتياجهم إلى طريق الآخرة..! وأنهم كانوا الفريق الخاسر في أحد هذين القِسْمين: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾..!

التلاميذ

في أوائل السبعينيات قتل (هربرت مولين) ثلاثة عشر إنسانًا في كاليفورنيا.. حين تم القبض عليه ادّعى أن على الشعب الأمريكي أن يشكره على فعلته..! والسبب وراء ذلك يرجع إلى اعتقاد مولين أن خسائر الأمريكيين من حرب فيتنام كانت المانع الوحيد الذي يمنع زلزالًا مدمرًا سيبتلع كاليفورنيا ويلقي بها إلى المحيط، ولما هدأت الحرب وقلت الخسائر البشرية أمره الله أن يزيد من عدد (الضحايا) البشرية حتى يمنع هذا الزلزال..!

هذا نوع من القتلة المتسلسلين المعروفين باسم Visionary serial killers أي الذين دافع قتلهم هو الرؤى والهلاوس، أغلب هؤلاء يعتقدون أنهم ينفذون ما يأمرهم به الرب في هذا القتل..! وهذا شبيه بنوع آخر هو Missionary Serial Killers وهم الذين يعتقدون أنهم يقومون بـ (مهمة الرب) في الخلاص من بعض الناس.. وربما هذا النوع من القتلة المتسلسلين يمثلون صورة شديدة التطرف لمن يلقي باللوم على الإله في كل ما يفعل من مظالم وآثام، لكن هذا لا يعني أنه لا توجد صور أقل تطرفًا من ذلك التصرّف المدلّل..! فالقرآن يحدثنا عن أن إبليس حين عصى الله ألقى باللوم على ربه في ذلك..! كما يقول: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾..

ولأن هذه هي الطريقة التي يفكر بها الشيطان، فإنه من الطبيعي أن يعلّمها لتلاميذه حين يثرثر معهم على مآدب الشهوات والعصيان، لذلك كان القرآن على علم بأن هذا الفعل سيصدر من أولاد آدم من قبل أن يقوموا به..! كما يقول الله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ

أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾..

لا يحق لإبليس ولا للإنسان أن يقوموا بذلك، لأن الإرادة التي أعطاها الله لهم إرادة غير منقوصة، والدليل على ذلك أنهم اختاروا الفعل طواعيةً، ثم لما اختاروه نسبوه لله، من أدراهم أن الله لم يكن ليريد لهم الطاعة؟! هل اطلعوا على علمه؟! لذلك يقول الله تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.. لماذا لم تختاروا أن تقوموا بالطاعة ثم تقولوا هذا قدرنا الذي أراده الله..؟!

لذلك قال النبي ﷺ: "ما منكم من نفس منفوسة إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار، وإلا كُتِبَ شقية أم سعيدة" فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فقال ﷺ: "أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فيُيَسَّرون إلى عمل أهل الشقاء".. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾..

نبّهنا النبي ﷺ إلى أن هذه الآيات قد أعطتك الإرادة الكاملة التي تجعل التيسير أو التعسير من الله سبحانه (نتيجة) على (مقدمة) أنت فاعلها، وهو العمل الذي تقدمه، فمن اختار أن يقوم بالعمل الصالح فالله عز وجل ييسره له، ومن اختار غير ذلك الله عز وجل ييسره له، حتى يسير الناس في النهاية إلى أقدارهم التي كتبها الله عز وجل ولكنهم مع ذلك يسيرون إليها طواعيةً من دون أن يجبرهم أحد..!

ميلودراما الإحصائيات

يحكون أن ملكًا كان سمينًا و (مقلبظًا) بشدة، فجمع بعض الحكماء يسألهم مساعدته في إنقاص وزنه، فقال له منجّم أنا آتيك بالحل غدًا بعد أن أنظر في طالعك، فجاءه وقال له أنه وجد أن للأسف جلالته سيموت بعد شهر، وقال لو لم تصدقني احبسني عندك شهرًا فإن كذب الخبر اقتلني، فحبسه الملك وانتظر الموت في كآبة وانعزال حتى هَزُلَ وزالت سمنته، فبعد أن مر الشهر ولم يمت استدعى المنجم فأخبره أنه لا يعلم الغيب وإنما وجد أنه لا شيء إلا الهمّ يحرق الشحم.. فكافأه الملك، وفرح المُنجّم، وغرّدت العصافير.

لما قرأت هذه القصة وجدتها سخيفة للغاية، من أدرى المنجم أن الملك كان ممن يصاب بفقدان الشهيّة مع الاكتئاب..؟! لربما كان العكس تمامًا هو الصحيح، لربما كان من الذين اعتادوا قضاء اكتئابهم داخل برميل من (النوتيلّلا)، حينها كان سيخرج له بعد شهر ليفاجئه بخطته العبقريّة فيجده قد تضاعف ميتوزيًّا، لابد أن الملك كان سيجلس عليه حتى الموت انتقامًا. ثم لماذا أراد الملك العبقري الاستعانة بمنجم لعلاجه من السمنة..؟!

وهكذا تجد أني لم أقف في القصة إلا على ثغراتها المنطقيّة وغبتُ بالكامل عن العبرة المختبئة بداخلها وهي تقريبًا: (احزن كثيرًا وافقد وزنك) أو شي كهذا..! نفس ما حدث حين سمعت من يحكي عن ذلك الذي ماتت أمه فأخذ يبكيها في جنازتها فقال له رجل: لماذا تبكي؟ قال: كيف لا أبكي وقد أغلق عليّ اليوم بابٌ إلى الجنة.. تجد نفسك قد انصرفت تمامًا عن العبرة الجميلة في القصة إلى التفكير في ذلك الأحمق الذي وجد رجلًا يبكي في

جنازة أمه فقرر أن يسأله عن السبب..! تبسيط مُخِلّ أدى إلى ثغرات منطقيّة زاعقة، فصار من العسير أن تُؤخذ بالجدية المطلوبة..! هذه سمة مميّزة في قصص الأطفال عمومًا، فالمفترض أن تجد قمة الرومانسيّة في جميلة رضيت بالزواج من وحش لأن لديه قصرًا به ألف غرفة! هذه رومانسيّة مصريّة جدًا! وفي مكان آخر من العالم هناك أمير قد قرر أن أفضل وسيلة في التاريخ للبحث عن فتاة قابلها في حفل، هو مقياس قدميها.

بينما القصص الجيدة فعلًا المصنوعة للكبار تحوي كمية لا بأس بها من الواقعيّة والبؤس والميلودراميّة والتشابك والتعقيد، ببساطة لأن هذه طبيعة الحياة أصلًا..! لابد أنك لاحظت أنك لستَ مدللًا تمامًا في هذه الدنيا، وأن النهايات الدراميّة السعيدة متوفرة بكميّات مُرضية في أحلام اليقظة فقط.

هناك إحصائيات تقول أن الناس لا يصدقون أنهم يقعون تحت الإحصائيات..! أننا جميعًا نصدق أن الأشياء السيئة تحدث وبكثرة، ولكن للآخرين فقط.. وأنه -كما يقول الدكتور أحمد خالد توفيق- لو قال القائد لجنوده قبل المعركة: أتوقع ألا ينجو ٩٠٪ منكم.. لنظر كل واحد منهم إلى زملائه وقال في نفسه: سوف يُؤلمني فقد الرفاق.

ونتيجة لهذا التبسيط المُخِل في نظرنا إلى الواقع، نقع بسهولة في قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾..! تكون صدمتنا أكبر حين نصاب بما لابد أن نصاب به، لأننا ظننّا أن قصة حياتنا هي حكاية أخرى من والت ديزني، بينما في الواقع الحياة الخالية من المنغّصات، هي في الجنة فقط..!

الكثير من عدم التأكد

في أحد أسئلة موقع Debate المختص بالتصويتات الشعبية، كان هناك سؤال: "هل يُعتبر المراهقون دومًا أحد مُغيّري قواعد اللعبة في الأحداث السياسية؟؟".. كانت إجابة ٨٠٪ من الناس على هذا السؤال بالموافقة..

المراهق يثور على كل شيء بالفعل، بدءًا من الطريقة التي ربّاها عليه والداه والتفضيلات الشخصية التي اختاراها له طوال عمره، ومرورًا بالقيم والأعراف السائدة في المجتمع والتشكك فيها، وانتهاءً بطريقة اختيارهم لملابسهم، ولعل الأخيرة هذه من أكثر الأشياء التي نودّ لو كنا نستطيع التحكم فيها بالفعل..!

المراهق هيّأه الله في هذه السن بأن يكون على قدر غير عادي من التفرّد باختياراته، فيخرج عن الحدود الوراثيّة المألوفة، ويخرج عن طور الشبه بوالديه، كما يقول عالم السلوك (لورانس بيتر): "الوراثة هي ما يجعل كلًا من أبوي المراهق يتساءل بتعجب عن الآخر"..! بينما يصفه الكاتب (جون باتيل) بقوله: "المراهق لا يملك أي نوع من الولاء المسبق تجاه أي شيء"..! ويقول الدكتور (عبد الكريم بكار): "لا يتقبل المراهق ما تحدثه به عن ذاته بيسر "..! وتقول (جيمي كرتيس): "أنت لو رأيت مراهقًا فأنت ببساطة ترى الكثير من عدم التأكد"..! وتقول (جوان تشين): "كل المراهقين لديهم رغبة في الفرار"..!

اعتدنا على أن ننظر للمراهق بنظرة مُبسّطة خالية من التعقيدات، نراه مجرد باحث عن متع الحياة، ولكن الحقيقة أن المراهق يبحث أول ما يبحث عن ذاته هو..!

إن المراهق هو مجرد طفل بدأ أول طريقه في الشعور بالمسؤولية والتفرّد.. إنه لا يختلف عن الكبار –الذين يشعرون دائمًا بهذه المسؤوليّة– في أي شيء إلا أنه فقط (يبدأ) طريقه، بكل الحماس الذي يعتري كل من يبدأ طريقه في شيء ما..! حيث خلق الله عز وجل الإنسان مخلوقًا بداخله جهاز الشعور بالمسؤوليّة والانفراد بالذات والقدرة الداخليّة على تمييز الصواب بشكل منفرد بدون تحيّزات مسبقة أو ولاءات خادعة.. ثم جعل هذا الجهاز لا يعمل إلا في مرحلة عمرية معيّنة، ثم يستمرّ معه هذا الجهاز مفعّلًا بقية عمره.

لذلك فلا عجب من أن جعل الله عز وجل هذه السن (سن البلوغ المتزامنة مع مرحلة المراهقة) هي السن التي تم تكليفه فيها بحقائق هذا الوجود..! أنت لم تعد طفلًا الآن يتلقى تعليماته من والديه..! بل يمكنك الوصول بنفسك للحقيقة، يمكنك السعي خلف الدين الصحيح، والأخلاق الحسنة، والقيم السويّة، يمكنك التفكّر والتعقّل وإعادة النظر بكل ما رباك عليه أبواك، يمكنك أن تعقل الآن ما هو الصواب، وما هو الخطأ، حتى لو كان هذا يخالف البيئة المكانيّة أو الزمانيّة التي نشأت فيها، حتى لو كان هذا يعني أن تتحدى جميع الأعراف والتقاليد..!

أنت الآن قادر على تمييز الهدى، ومن باب أولى من المفترض أنك (تحب) أن تتبع الهدى، وأنك لو وجدت ما هو أهدى مما وُلدتَ عليه فأنت مطالبٌ باتباعه.. كما حكى لنا القرآن أنه قد قال بعض الناس لرسولهم لما جاءهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.. فما كان جوابه إلا أن قال لهم: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾..

عصر الخبز الليّن

في روما القديمة كان الأغنياء فقط هم من يملكون القدرة على أكل الخبز الليّن، برغم أنها ملكت نصف العالم تقريبًا. ولكن هذا ليس بغريب، لأن قيصر نفسه كان مسكينًا بالمقارنة بحالنا..! لو أراد بعض الهواء البارد فأقصى ما يمكنه الحصول عليه هي النسمات التَعِسة الناتجة عن مروحة الريش مختلطة برائحة عرق ذلك العبد الأسود الذي يحركها له. أرخص أنواع مراوحنا الكهربائية تنتج هواءً أفضل من هذا، بل وخالٍ من العرق أيضًا..!

ولو أراد التنقل فهو قد بلغ من السؤدد والمكانة ما يجعل أربعة رجال يحملونه على محفة فاخرة إلى أي مكان يريده، لكن بالتأكيد هذا لا يساوي شيئًا بجانب أقل سيارة متهالكة في زماننا. والفارس الهمام الذي يُهلك نفسه في الصحراء عدوًا حتى لا يؤخر عنه رسائله المهمة بضعة أيام، بالتأكيد لم يكن أسرع من بريدنا الإلكتروني في أقصى درجات بطئه و(تهنيجه). وشيء ما يخبرني أن طعام قيصر كان رائعًا، ولكنه بالتأكيد كان لينبهر بـ(البيتزا) و(الكريم كراميل)..!

أي أن قيصر الذي غزا العالم كان سيموت من الصدمة لو علم أن أقل موظف في مجلس الدولة من زماننا يعيش عيشة أهنأ مما عاشها هو بالفعل.. وأنه سيأتي على الناس زمان يتنعّمون فيه بالكثير من المتع الجديدة تمامًا والتي لم يفكر فيها أسلافهم.

على أن الكثيرين منا لا ينظر للأمر بهذه الطريقة، يرى أن العالم أصبح أسوأ، وأنه امتلأ أكثر بالمجاعات والأوبئة والحروب. لم يفطن هؤلاء إلى أن شيئًا لم يجدّ..! فالطب لم يخترع

الإيبولا ولا السرطان مثلًا، فقط مات الناس من قديم الأزل بهذه الأمراض دون أن يعلم الأطباء في عصرهم شيئًا إلا أنهم ماتوا بالحمّى والانتفاخات..! والحروب والجرائم في الواقع صارت أكثر رقة وأقل وحشية، فالتتار مثلًا دخلوا بغداد ليقتلوا مليونين من المسلمين، وبالسيف البطيء وليس بالقنابل الذرية..! بينما كانت المجاعات في الماضي في كل مدينة وفي كل حضارة، فعصر ما قبل الثورة الصناعية عاش على إنتاجية أقل بكثير مما يحتاجها فعلًا، والفجوة بين (الحاجة) و(المنتج) كانت في موقف يُرثَى له..!

لو نظرت إلى حال البشرية ككل لوجدت أننا في (عصر النعيم)..! عصر سادت فيه أدوات الراحة، وقلت فيه الكثير من المشقة.. عصر قد ظهر تفضّل الله علينا بتعليمه البشر الكثير من أسرار المكتشفات الحديثة كما فعل مع داوود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾.. عصر قد مكننا الله فيه من البنيسلّين، والديجيتاليز، والأتروبين..! عصر قد منّ الله علينا فيه بالمحرّكات والترانزستور والستالايت..! عصر زاد فيه ظهور منة الله على الإنسان، وظهور حنانه، وظهور رحمته.

ثم ماذا كان رد الإنسان على هذا..؟ الكفر، والإلحاد، والغفلة، والشهوات، والغرور، والتكبر على الخالق، والسخرية من الدين، والتطاول على الإله..! هذا هو حال الله، وهذا هو حال الإنسان..! ثم لم يوقف الله خيره النازل، ولم يبدل الكثير من نعمته، ولم ينزل علينا عقاب الغضب، ولم يملّ من ندائه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾..

فكيف لك ألا تحب هذا الرب الرؤوف..؟!

حينما أفرح

أرشميدس لم يكتشف قانون الطفو في الحمام، هذه قصة مشكوك فيها بقوة.. وأيضًا لم يكتشف نيوتن قانون الجاذبية حين سقطت تفاحة على رأسه..! لقد سادت هاتان القصتان في الوعي الشعبي لأنها تحقق أحلام كل واحد منا: يمكنك أن تصبح مكتشفًا جبارًا بحمام بخار، وشجرة تفاح، وقليل من الحظ..!

بالمثل فهناك خرافات أخرى، مثلًا نظرية آينشتاين لم تقل أبدًا أن بوسعك العودة بالزمن للنجاح في مادة الكيمياء، والزواج من ياسمين، وقتل مديرك في العمل وهو في رحم أمه، لتصبح حياتك رائعة.. في الحقيقة النظرية ليس لها علاقة بآلة الزمن ولم تتعرض لحياتك على الإطلاق ولا لحياة ياسمين أو أم مديرك في العمل.

ولكن ماذا لو كانت آلة الزمن حقيقة..؟! لو حصلت على آلة الزمن في يوم من الأيام بالفعل فأتخيل أنني لن أستخدمها إلا في إصلاح أخطاء الماضي، وهي كثيرة عمومًا..! وفي كل مرة كنت سأنسى بالطبع أني قد استخدمتها.

ربما أنا سافرتُ للعمل في مجاهل أفريقيا كما كنت أخطط، وأُصبت هناك بملاريا حمى الماء الأسود، ثم عدت بآلة الزمن لأتخذ مسارًا آخر لا يتضمن الماء الأسود في آخره.. ربما أنا في بداية شبابي دخلتُ الكلية التي كنت أحلم فعلًا بها، فتعرفت على مجموعة منحطة في الكلية انتهت بي إلى مقعد وثير تحت كوبري ١٥ مايو بحفنة بيضاء على ظهر إبهامي، فعدت مجددًا بآلة الزمن ودخلت كلية الطب، ثم نسيت كل شيء عن هذا الموضوع.

ربما أنا صباح اليوم تعرضت لحادث سيارة بشع انتهى بي إلى فقدان عيني اليسرى، فعدت بعدها بالآلة الرائعة إلى صباح اليوم مرة أخرى لأبتعد عن طريق بلبيس نهائيًا دون أن أعلم لماذا فعلت ذلك..! ربما أكلت غدًا طبق (البامية) المسبوك الذي أتمناه، ثم استلقيت على الأريكة وقد قرر مريئي أن يشتعل ذاتيًا بلا سبب مفهوم، حينها لربما أنا قمت ودخلت الآلة إياها وعدت إلى اليوم وأوعزت إلى أمي أن غدًا هو يوم مناسب جدًا لمعلبات السردين التي أكرهها بطبيعة الحال.

الكثير جدًا من السوء كان بإمكانه أن يحدث، ولكني لم أتعرض له، بل ولم يخطر على بالي أصلًا..! في كل دقيقة تمر يمكنني أن أتخيل مئات الكوارث الضخم منها والصغير، التي كان من الممكن أن تحدث فيها..!

حينها أفرح بأن الله عز وجل قد وضعني في مسار مغاير انتهى بي إلى اللحظة السالمة التي أعيشها الآن بعيدًا عن كل تلك المصائب المتخيلة.. أفرح بأن الله عز وجل لم يعبأ بتأففي من هذا التقدير أو ذلك، لمّا علم في علمه السابق أن الخير فيه.. أفرح بأن الله لم يستجب للكثير من دعائي الذي دعوته وأنا على جهل عظيم..

حينها أفرح بأن الله العظيم جعل من نفسه مقدّرًا لأمور حياتي الخاصة..! أنا الإنسان التافه الذي لا يساوي شيئًا..! أفرح بأن الله يختار لي، وأفرح بأن الله لا يختار لي إلا الخير..

حينها أفرح بأنه لم يرضَ بأن يشاركه غيره في ذلك الاختيار..! كما قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾..

الشرود في الدبابير

اعتقد السكان الأصليون القدماء لجنوب شرق أستراليا أن أحد الأشخاص من قديم الأزل قام بإلقاء بيضة نعامة إلى السماء ففقست منها الشمس..! ثم أشعلت الشمس المفقوسة حديثًا النارَ في كومة خشب تصادف وجودها هناك لسبب ما..! فكانت هذه هي قصة نشأة الشمس..!

طبعًا أول وأهم سؤال يخطر على ذهنك هو: لماذا البيضة..؟! لماذا لم تكن أصل الشمس ليمونة مثلًا أو (ترمساية)..؟! مخترع القصة المُبدع لابد أنه قد اختزل كل ما يعرفه عن الشمس بما تلمسه حواسه فعلًا: شكل صفار البيضة ووهج النار التي اشتعلت في ذلك الحطب الكوني الغامض الذي كان يتسكع وحده في السماء.. لذلك، وبالرغم من أنه كان يملك قدرًا واسعًا من الخيال كما يبدو، فإنه كان مازال حبيسًا لحواسه البدائية الظالمة..

في اللحظات التي كتبتُ فيها السطور السابقة كنتُ أتحكم في درجة حرارة مُكيّف الغرفة ببضعة أزرار في يدي. وهذا شيء عظيم فعلًا..! أعظم من أن أتعامل معه بمنطق من حسب أن الشمس بيضة مشتعلة، لمجرد أنه يراها بيضة مشتعلة..! لذلك شرعت في الشرود فيما وراء تلك الأزرار.. ربما تكون الشريحة الإلكترونية المبدعة التي تسكن خلفها، وربما أفكر أبعد من ذلك إلى الموجات الكهرومغناطيسية نفسها..! شيء غريب أن تعبث في أزرار جهاز التحكم بمكيّف الهواء، فتتمتم بحمد الله على نعمة الموجات الكهرومغناطيسية..! شيء غريب فعلًا ولكنه منطقي جدًا..!

تلبس قميصك الأبيض قبل الذهاب للعمل فتفكر في حقول القطن التي رواها الله عز وجل بالمطر..! تجلس على مائدة طعامك فتفكر في البحر الذي سخره الله لنا والذي لولا ما يمدنا به من ملح لكنت تأكل الآن شيئًا شبيهًا بالصابون..! تقرأ في صفحات كتابك البيضاء فتفكر في الدبابير التي أوحى الله إليها بأن تمضغ لحاء الأشجار ثم تصنع منه بيوتًا كرتونية، ليتعلم منها البشر كيف يصنعون الورق..! تعبث بأصابعك على شاشة هاتفك الذكيّ فتفكر في السليكون الذي أسكنه الله الأرض وجعل له صفاتٍ كهربائية خاصة للغاية، لنتمكن من تحويله إلى الترانزستور الذي تقوم عليه صناعاتنا الإلكترونية..! تجلس على الكرسي الخشبيّ فتفكر في الأرنب الذي خلقه الله عز وجل، والذي نصنع من حافره الغراء الذي يُعاون المسامير في ربط أجزاء هذا الكرسي بعضها ببعض..! تشرب من زجاجة المياه فتفكر في الغزال الذي خلقه الله عز وجل ثم أقبره في باطن الأرض من ملايين السنين ليتحول إلى نفط يستخلص منه البشر (الإيثيلين) ويحولوه إلى تلك الزجاجات البلاستيكية..! تنظر إلى مرآة سيارتك الجانبيّة لتتفادى الصدام مع الشاحنة العملاقة فتحمد الله على خلقه لضوء يتمتع بخاصية الانعكاس على الأسطح اللامعة..!

يمكنك أن تقوم بهذا التأمُّل طوال اليوم.. تنظر إلى كل شيء في حياتك بنظرة مختلفة، وتتجاوز حدود تفكيرك القديمة إلى حدود أبعد.. وتنظر إلى كلمة (نعمة) بشكل أوسع مما قبل.. لتصل في النهاية إلى الحقيقة التي أودعها اللهُ الكونَ من حولنا.. وهي أن كل شيء منه وإليه، وأن له الملك وحده، وأن له الأمر وحده، وأن له الحمد وحده.. حينها تفهم مدى عظمة هذا التساؤل القرآني: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾..؟!

الأعراض الفيسيولوجية

هل جرّبت أيام اختبارات الجامعة أو أيام العمل المضغوطة حين كنت تضطر إلى شرب عدة أكواب من القهوة..؟ وسواء كانت قهوة أمريكية مائعة أو قهوة تركيّة ثقيلة ذات رائحة زكيّة وقوام سميك، ففي كل الأحيان أنت تعلم أن الإكثار منها سيؤدي بك إلى الإكثار من زيارة الحمام..! إنه تأثير القهوة المدرّ للبول (Polyurea) وهي تأثيرات مزعجة دائمًا.. ولكن هذا يجعلك تتساءل عن كُنه النشاطات اليومية غير المحببة للنفس التي يبذلها مكرهًا مريض السكر (Diabetes Mellitus) أو بشكل أشد مريض السكر الكاذب (Diabetes Insipidus)، والذي قد يصل به الحال إلى إفراغ عشرين لترًا من البول يوميًا..!

المحاولات المثيرة للشفقة التي تقوم بها بالسيارة عندما تكتشف فجأة أنه يوجد مطب وقح لم تره من قبل على بعد عدة أمتار بينما أنت تسير على سرعة ٩٠..! تتذكر حينها معاناة المصابين بقِصَر النظر (Myopia) حين لا يستطيعون رؤية الموجودات البعيدة، والذين قد يتعرضون لمثل هذا الموقف عدة مرات يوميًا حتى لو كانوا يسيرون على الأقدام..!

وعندما تستيقظ من نومك من الاختناق والحاجة للهواء لأن الغطاء الذي كان عليك التفّ أثناء نومك حول رقبتك بالخطأ فحرمك من الهواء، تتذكّر حينها أن المُصابين بالتهاب الجيوب الأنفية أو ضيق الشعب الهوائيّة، كثيرًا ما يستيقظون من نومهم أيضًا بحثًا عن الهواء..!

هذه الأمثلة التي حكيتها تقع في نطاق يسمّى (الأعراض الفيسيولوجية)، وتعني هي الأعراض التي تشبه الأعراض المرضيّة في صورتها ولكنها تقع لأسباب طبيعية تمامًا.

أتخيل أن الله عز وجل من حكمته في خلق هذه الأعراض الفيسيولوجية أن يذيقنا جزءًا من المعاناة التي عند غيرنا، ولو مرة، ولو بشكل مخفف للغاية، ولو على سبيل التذكرة وليس الابتلاء.

يذيقنا ما يشعر به هذا وذاك من الذين حرموا شيئًا بسيطًا جدًا أنت تتمتع به ولا تدري لكم هو عزيز حقًا..!

إذن نحن أمام نظام متكامل من النعم التي نحن غارقون فيها ولا ندري، في الواقع نحن نفطن إلى هذه النعم فقط حين نُحرم منها.. حينها نتساءل عن رحمة الله عز وجل في أن يحرمنا من هذه النعمة أو تلك، دون أن نفطن إلى كم النعم الأخرى التي نحن غارقون فيها دون أن نعيرها انتباهًا.. كما يقول الله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾..!

إن الأعراض الفيسيولجية تخبرنا بقاعدة يسيرة تتمثل في أن كل لحظة تمر عليك في عافية لهي هدية ثمينة قد عرفت أنت الآن قيمتها، وأنها محض فضل من الله عز وجل الذي قد يلحقك بهؤلاء الذين منها قد حُرِموا..!

قاعدة قد نصّت عليها الآية: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾..!

تحسّس الجماجم

كانت مفاجأة لكثير من علماء الفيزياء والفلاسفة الملحدين والذين قدّموا الأدلة والبراهين لمئات السنين على أن الكون قديم منذ الأزل ثم تبين خطؤهم حين فاجأهم (فيستو سليفر) و(إدوين هابل) و(ميلتون هيوماسيون) باكتشافهم العلاقة بين الانزياح الأحمر للمجرّات (Red Shift) وبين المسافة، ويعني ذلك الطريقة التي يتغير بها ضوء المجرّات حين تبتعد عن أجهزة المراقبة، هذا أثبت بعد ذلك أن الكون في الواقع يتمدد، وهي الملاحظات التي أدت إلى نظرية الانفجار الكبير (Big Bang Theory) ، وتعني أن الكون المشاهَد بدأ في التكوّن منذ ١٣,٧ مليار عام تقريبًا، والتي بقيت مجرد فرضيّة حتى أتت الدلائل عليها من قياس الخلفية الإشعاعية الكونية عام ١٩٦٤..

هناك الكثير من الإثباتات العلميّة الأخرى التي تبيّن بعد ذلك أنها كانت خاطئة..! مثل القنوات المريخية Martian Canals والتي لاحظها أول مرة الفلكي الإيطالي (جيوفاني سكياباريلي) عام ١٨٧٧، ومن بعده الكثير من الفلكيين، وهي شبكة من القنوات تظهر على سطح المريخ، وأخذ الأيرلندي (تشارلز بورتون) في عمل خريطة كاملة لهذه القنوات، وبعد كل ذلك تبيّن للجميع في بدايات القرن العشرين أن هذه القنوات مجرد وهم بصري Optic Illusion ناتجة عن التلسكوبات العتيقة..! وهناك أيضًا الـPhrenology أي علم معرفة الدماغ، الذي كان سائدًا في القرن التاسع عشر وسط الأطباء وعلماء النفس، ويعني القدرة على استنتاج أبعاد الشخصية وما يحب وما يكره الإنسان فقط من شكل

تضاريس جمجمته من الخارج، فتجد الطبيب يمسك برأس المريض و(يحسّس) عليها حتى يدرس شخصيته..! مات هذا العلم تمامًا الآن وتم اعتباره من خرافات العلم الهامشي (Fringe Science).. وهناك نظرية الفلوجيستون Phlogistion theory الذي كانوا يظنونه جزيء غير مرئي لا يظهر إلا بالاشتعال ويفسّر عملية الاحتراق.. ونظرية الطبعة الأموميّة Maternal Impression، حيث تؤثر الأم في شخصية جنينها من خلال أفكارها الداخلية..!

وغير ذلك الكثير من الأمثلة على الطريقة الغريبة التي يتم بها تضليل المجتمع العلمي بفكرة خاطئة قد تستمر لمئات السنين قبل أن يتبين أنها مجرد حماقة..!

حين نتحدث عن خطايا التعامل مع العلم التجريبي، فإليك الخطيئة الأولى: الغرور والتعالي، والظن الأجوف بدون كبير داعٍ أننا قد وصلنا إلى القمة العلمية التي ليس من بعدها بعد..! هذا الغرور الذي نبّهنا القرآن على قبحه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.. والغرور سيقودك إلى الخطيئة الثانية: الجدال بعلم ناقص، والعجز عن التفرقة بين المساحة المضيئة بـ (الحقائق) العلمية، وبين المساحة المُغَيَّمة بـ (الفرضيّات) والتي ليس لك أن تثق فيها إلى هذا الحد: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.. وهذا يذكرنا بالخطيئة الثالثة: الخلط بين (اليقين) و(الاحتمال)، وبين (القانون) و(النظريّة).. وهذا ما ربّانا عليه القرآن حين ذكرنا أن نفرّق بين (العلم) و(الظن الواهم): ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾..!

الصفاقة

بشكل حقيقي تمامًا أتت هذه الفكرة في ذهني: "تبًا..! هل سأصعد كل هذا السلم بنفسي حقًا..؟!"، هذا حين وجدت السلم الكهربائي في السوق التجاري الكبير لا يعمل.. كانت هذه من اللحظات التي شعرت فيها بعدها بأنني كتلة من الأنسجة الدهنية اللزجة عديمة النفع.. في الماضي كانوا يصعدون بالتسلق أو بالحبال ربما، والآن أركب سلمًا آمنًا يتحرك بطريقة سحريّة ما بينما أتصفح هاتفي لأرى آخر إشعارات السوشيال ميديا حتى أصل للطابق المُراد، ثم أتأفف حين يعطل هذا السلم ويضطرّني إلى الصعود بنفسي والقيام بمقدار قليل من الجهد.. كيف يجرؤون..؟!

لم يكن هذا هو أسوأ كسلي.. في الواقع كنت أكتب مرة على محرك البحث (جوجل) جملة شائعة لأبحث عنها، من المعتاد أن يتوقع (مستر جوجل) ما أريد قوله ويكمل الجملة نيابةً عني، لكنني فوجئت بأن هذا لم يحدث، تقريبًا كان هذا خللًا في الاتصال بالانترنت أو شيء من هذا، كان رد فعلي وقتها هو ضيق حقيقي من مُطوّري الموقع الذين سيضطرونني إلى كتابة كل ما أريد بنفسي..! كنت أشعر فعلًا وكأن العالم يدين لي بهذا بشكل ما..!

لربما كانت هذه من صفات الإنسان المدلل بطبعه، والذي يعتبر كل تلك الأشياء الجميلة التي اعتاد عليها حقًا ثابتًا له، فقط لأنها تكون دائمًا هناك..!

يعتبر الإنسان ذلك الذي يحسن إليه بإحسان ما لمرة واحدة أنه كريم، ولو مرتين أنه جواد، ولثلاث مرات أنه طيّب.. وأما لو أحسن إليه ألف مرة فيعتبره بشكل ما يقوم بتأدية

واجبه نحوه وليس تفضلًا منه أو منة..! بل ويتهمه بالتقصير ويصب جام غضبه عليه في اللحظة التي يتوقف فيها عليه إحسانه.. أين حقي يا هذا..؟! ربما لهذا مثلًا قد نشعر بالامتنان للصديق الذي يعد لنا وجبة الطعام في السفر، وقد لا نشعر بهذا الامتنان لأمنا التي تعده لنا في كل حين..!

وفي مقام الإحسان والمنن والعطايا فلا يوجد مثال أوضح من ذلك الرب الرؤوف ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾، أي أعطى خلقه كل شيء..! منن الله عز وجل وعطاياه اعتدنا عليها في حياتنا دائمًا، ليس لأننا نستحق ذلك بشكل ما، ولكن لأن رحمة الله عز وجل وكرمه كانا أكبر منا ومن حقوقنا بكثير..! فحين نفقد أحد هذه المنن في وقت ما نتلفّت حولنا بغضب ونقول: أين هي؟ أين الصحة التي كنت أملكها؟ أين المال الذي فقدته؟ أين كبريائي الذي تبعثر في هذا الموقف المحرج؟ أين درجاتي التي فقدت كرامتها في ذلك الاختبار العسير؟ أين سعادتي التي تاهت عن الطريق لقلبي منذ عدة أسابيع؟

لذلك تجد أن شعور السخط والغضب حينها هو أمر شديد الصفاقة والوقاحة منا..! نحن اعتبرنا كل منن الله علينا من أساسيّات حياتنا وواجباته نحونا، سبحانه عن ذلك.. اعتبرنا أننا قد ظُلِمنا أو بُخِسنا حقنا حين نفقد بعض هذه النعمة في يوم ما بعد آلاف الأيام من امتلاكها.. كما يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.. كفران النعمة كانت من طباع هذا الإنسان دائمًا الذي لم يهذب نفسه بالإيمان.. ولكن ما يخيفنا حقًا، أن الله عز وجل على كل هذه الوقاحة منا: شهيد..!

السكر في شاي قارون

في الماضي حين كانت أمي الغالية تطلب مني كوبًا من الشاي، كنت أستخدم ثلاث ملاعق، واحدة للتقليب، وواحدة أخرى للشاي، وواحدة مخصوصة للسكر، والسبب في ذلك أنه يجب ضبط مقدار الشاي والسكر جيدًا.. ومع ذلك، في ٣٠٪ تقريبًا من الحالات تطلب مني بعد أن تذوقه أن أضيف القليل من السكر، وبيد مرتعشة، وتقدير متردد أحاول ضبط الكمية القليلة المطلوبة، ثم كما لابد أنكم توقعتم، يصبح الشاي عصيرًا من البنجر بالنسبة لها، ولا تقوى على احتمال حلاوته الزائدة..!أتخيل حينها أني ورثت مستقبلات التذوق الخاصة بي من زوجة عمي مثلًا..!

إجادة العثور على النقطة الفاصلة بين (قليل جدًا) و (أكثر من اللازم) والوقوف عليها (راضيًا)، فن لا يتقنه إلا القليل.. ربما الكثير من الناس يظنون أن (الأخذ) أفضل دائمًا من (المنع).. وأن كل ناقص لديهم سيكون أجمل لو اكتمل.. بينما في الحقيقة قد يكون النقص هو عين الحسن..!

الغمّازات التي تجمّل الوجه هي في الواقع ضعف أو انشقاق في عضلة من عضلات الوجه تدعى بالـZygomaticus Major ..! والعيون الزرقاء كان جمالها بسبب فقرها من الخلايا الصبغية Melanin في قزحيّتها..! بينما الشعر الناعم الأملس أصبح كذلك لأنه ليس لديه طبقة نخاعية Medulla غنية بالبروتين كتلك التي تملكها الشعور الخشنة المجعدة..!

هناك أمثلة كثيرة للفكرة الفلسفية ذاتها.. أحيانًا كثرة الموارد أسوأ من قلتها، أحيانًا بطر النعمة لا يقل سوءًا عن ألم الفقد، أحيانًا يكون عدم كمالك هو سبب جمالك..!

قد تكون مُنِعتَ شيئًا كنت تريده لأنه كان (أكثر من اللازم) بالنسبة لك، وكان سيحوّل شايك المقبول طعمه الآن إلى عصير من البنجر غير مستساغ..! لذلك كان بعض الحُكماء يقولون: "واعلم أن نعمة الله فيما منعه عنك أعظم من نعمته فيما أعطاك"..! غير أنه من العسير علينا تصديق ذلك.. أو على الأقل من العسير أن نصدق ذلك الآن.. ولكن لمّا نصاب بالفعل بتجربة أو اثنتين سوف نتأكد من هذا بأنفسنا ..

هذا ما وقع للناس الذين عاصروا مال (قارون) ورفاهيته فتمنّوا ما كان عليه من هذا النعيم.. هذا التمنّي الذي كان شديدًا لدرجة أن هناك من العقلاء من نصحهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.. فلم يأبهوا كثيرًا بنصيحتهم..!

ولكن لمّا رأوا بأعينهم أن رفاهية قارون جعلته مفسدًا في الأرض، وأن هذا الفساد جلب عليه الوبال والغضب الإلهي والعقاب الشديد.. لمّا رأوا بأعينهم كل هذا وشاهدوا بيت قارون مخسوفًا به الأرض، حينها فهموا وأدركوا: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾..!!

الآن رأوا أن حرمان الله عز وجل لهم كان نعمة ومنة..! الآن شاهدوا فضل الله في منعه بعد أن كانوا يشاهدونه فقط في عطائه..!

الحب في زمن الكليشيه

كنت أرى دائمًا أني أميز الحب من اللوعة التمثيلية الفارغة..! وكنت أشعر أن الحب يظهر باحتمال الألم أكثر مما يظهر بالابتسامة الواسعة والآمال العريضة.

كنت أرى الحب في نظرة قريبتي الحزينة وهي تطبب زوجها المريض دون أن تظهر أي عاطفة أخرى غير مجرد الحزن الكتوم، أراه في احتمالها الصامت لكل المتاعب التي تمر بها جرّاء الاعتناء برجل بالغ بعد أن بات بسبب عجز المرض كالطفل الرضيع..

كنت أراه في ذلك الذي كان يشتكي ألمًا بالغًا من سوء معاملة صديقه له، كل هذا الألم كان ليختفي في اللحظة التي ينسى وجوده فيها، ولكني كنت أرى الحب يمنعه..

لم أجد الحب كثيرًا في سرب الفراشات أو زهور الحديقة أو كلمات الأغاني العاطفية، ولكني رأيته حتمًا بالأمس في ضحكات ذلك الرجل العالية وهو يستمع إلى حكايات ابنته الصغيرة عن المدرسة وهو يقلّها عائدًا إلى بيتهما على ظهر دراجة نارية فقيرة..

لم يكن حب النبي ﷺ هو ما أراه في احتفالات الصوفية بالمولد النبوي، أو رقص الحضرات، أو تواشيح الإذاعة، ولكني رأيت حب النبي ﷺ حتمًا في إقبال ذلك الشاب الصغير المتحمس على أكلة (الكوسة) لأنه علم أن النبي ﷺ كان يحبها، لم أشأ أن أخبره أنه لا يؤجر بذلك لأنها ليست من الأمور التي نقتدي بالنبي ﷺ فيها، لم أشأ أن أخبره بهذا لأني كنت أستمتع برؤية الحب في كل مرة أراه يأكل فيها الكوسة التي لا يحبها كثيرًا..

لم أكن أجد الكثير من الحب في نظرات (الكوبلز) الجالسين على رصيف الجامعة، ولكني كنت أجد قدرًا كافيًا منه في ضحكات زوجين قديمين في اجتماع عائلي على نكتة سخيفة لم يضحك عليها سواهما مع نظرة ذات معنى يلقيها أحدهما للآخر، على الأرجح كان هذا (ثيمًا) بينهما لا نعرفه..

لم أعرف الحب كثيرًا في الهدايا الغالية ذات الغلاف الأحمر، ولكني عرفته بالطبع في كاشير سوبر ماركت حين رأيت الرجل العجوز بجانبي يحاسب على الكثير من الحلوى، الكل يعلم أنه اشتراها لأحفاده، ونظرة الفخر على وجهه وهو خارج كانت لا تقدر بثمن، فخور بنفسه لأنه سيفرح أحفاده اليوم إلى هذا الحد.

لم يكن الحب أبدًا بالبساطة والـ (كلاشيهيّة) التي يدعونها، كنت أراه أعمق من هذا بكثير.. الحب يعني القدرة على التضحية بسعادة، والشعور بالألفة والارتباط، والشعور بأن بوصلة قلبك تتجه إلى مكان ما رغمًا عن أنفك..! الحب يعني أن ينطبع إنسان إلى الأبد في البطانة الداخلية لذاتك.. يعني أن تتلاقى نغمتك الروحيّة بمعجزة غير مفهومة مع نغمة أخرى ذات تردد مختلف تمامًا عنك وبرغم ذلك تتشكلان من جديد لبعضكما البعض..! الحب ببساطة يعني أن تصبح إنسانًا أفضل..!

الحب هو أقرب لشفرة تفاهم بين أنواع خاصة من البشر، أنواع أنقى من أن تختزل هذا الحب في ما يظهر للناس، وأتقى من أن تستغل اسمه لتُخفي حبها للشهوات العاجلة..

والحب بالمناسبة ككل شيء جميل في هذه الدنيا، يكون أجمل بحُمرة الخجل..!

لربما أنت لا تحب رمضان

هاك سرٌّ آخر لم تخبرني به ولكني أعلمه، لربما أنت لا تحب رمضان..!

تراقب الأيام المتبقية عليه في قلق، تتضايق حين ترى زينته، تعتبر هؤلاء الذين يبالغون في الفرحة بقدومه أنهم مدّعون، لا تفهم ما المقصود بـ (اللهم بلغنا رمضان)، ما هي المزية الكبيرة من هذا؟

الشياطين التي تُصفّد؟ أنت راقبت نفسك عدة سنوات ولاحظت أن ذنوبك لا تتأثر بهذا، بل ربما تزيد.. الصيام الذي سيأجرك الله عليه؟ أنت تشعر من داخلك أن شيئًا ثقيلًا على نفسك كالصيام لا يمكن أن يأجرك عليه ذلك الإله الذي يطلع على مكنونات الصدور.. صلاة التراويح والقيام؟ ها أنت ذا تتذكر حين تنهض متثاقلًا عن مائدة إفطارك وكل أملك في أن تنام أو تستلقي ولكنك تذهب بدلًا من هذا إلى المسجد لتقف ساعة أو ساعتين، تتساءل الآن بصوت خافت: هل حقًا أحب صلاة القيام؟

قالوا لك أن رمضان شهر القرآن والتعبد والدعاء والتوبة والإنابة إلى الله.. المشكلة أنك لا ترغب في أن تفعل ذلك الآن، لم تستعد نفسك بعد بأن تدخل إلى محراب العبادة الآن فقط لأنه من المفترض لها أن تفعل ذلك، أنت لا تشعر بكبير رغبة في أن تقترب من الله الآن، ولكنك تشعر بالعبء في أنك لو لم تقترب منه أكثر في رمضان فأنت أسوأ بالفعل مما تعتقد، وأسوأ من معظم المنافسين من حولك.. بالمناسبة، أنت تكره المنافسين من حولك، فهم يشعرونك بأنك أسوأ دائمًا..!

يا حبيبي هوّن على نفسك.. فالأمر ليس كذلك..!

لا تفكر في رمضان على أنه موسم مشقة ونفير وحرب، فكّر فيه على أنه هدية مجانية من السماء تأتيك وأنت في أشد الحاجة إليها، حين نظر إليك الله فعلم أنك لا تقدر على كثير عبادة واجتهاد فخصّص بعض أيامه بأجور مضاعفة، فتجتهد في القليل لتحصّل به كل ما فاتك طوال العام ويزيد.

لا تفكر في رمضان على أنه منافسة بيننا بمن قد فاز ومن قد خسر، وتشعر بالحسرة والغبن كلما رأيت من هو أنجح منك، بل فكر فيه على أنه اختبار جماعي نخوض فيه، فما تراه من نجاح الناس من حولك ينبئك بسهولة الاختبار حقًا، وأن عليك أن تستبشر بأن نسبة اجتيازه أعلى مما تظن.

لا تفكر في رمضان على أنه محطة انطلاق من شخصك المتواضع إلى نسختك العصريّة من أبي بكر أو خديجة، أنت لست صحابيًا ولست متنسكًا ولن تكون كذلك في الساعات التي تفصل مغرب آخر أيام شعبان بأول صلاة تراويح.. فكر فيه على أنه محطة تحلية من نسختك الحالية إلى نسخة أجمل منك بقليل.. فكر فيه على أنه محاولة يسيرة منك لأن تكون أفضل قليلًا من ذي قبل، هي فروقات يسيرة في أعيننا ولكنها في عين الإله أكبر من ذلك بكثير، إنها إرادة النجاة.. والله ينجّي دائمًا ذلك الذي يريد النجاة.

لا تفكر في رمضان على أنه مجرد وقت يجب فيه أن تقترب من الله، ولكن فكر فيه بأنه وقتَ أن أحب الله أن يقترب منك..!

للبيع

بأسعار زهيدة لا تصدق:

– شريط صوتي مسجل عليه حوار يومي معتاد وممل بين أفراد عائلتك يظهر فيه صوت أبيك بوضوح ثلاث مرات، وصوت أمك بجودة متوسطة مرتين.. السعر: فقط ٣ آلاف جنيه..

– خدمة في شركة المحمول التابعة لك بعمل اتصال عشوائي ثلاثة مرات شهريًا من رقم هاتف والدتك القديم، مسجّل فيها رسالة بصوتها تطلب طلبًا ما، ملحوظة: الاتصال سيكون غالبًا في أوقات غير مناسبة لك، السعر: ٩٠٠ جنيه شهريًا..

– شريط فيديو مدته دقيقة وعشرون ثانية، يظهر فيه أبوك وهو يعلمك القيادة، ومسموع فيه بشكل واضح صوت صراخه فيك بسبب سرعتك الزائدة.. السعر: ٤ آلاف جنيه..

– طبق من الأرز الأبيض بنكهة شبيهة بطعم الأرز الذي كانت تطبخه أمك بنسبة تقترب من ٩٠٪.. السعر: ٧٥٠ جنيه للحجم الوسط، ١٠٠٠ جنيه للحجم الكبير..

– (سكرينشوت) لتعليق بسيط من والدتك على صورتك على السوشيال ميديا، التعليق لا يحمل أي إعجابات منك حيث أنه قد أحرجك وقتها بشدة.. السعر: فقط ١٢٥٠ جنيه..

– دقيقة كاملة من عناق متصل مع مانيكان صناعي مجهّز بمحاكاة لنفس تضاريس جسد والدك، ومفاجأة العرض: المحاكي الصناعي مزوّد ببصمة صوت والدك وهو يقول لك: "معلش".. السعر للدقيقة ٢٠٠٠ جنيه فقط..

– صورة فوتوغرافية مهترئة تعرض لأول مرة تظهر فيها أمك مبتسمة وعلى وجهها أمارات السعادة.. السعر: فقط ٣ آلاف جنيه..

– زجاجة عطر كاملة من العطر المفضل الذي كانت تضعه والدتك، ومفاجأة العرض: أضفنا عليه رائحة الكمّون والبقدونس والبصل الذين كانوا يلطّخون ملابسها في العادة، السعر: فقط ٤ آلاف جنيه..

– محفّز عصبي يؤدي إلى احتمالية ٤٠٪ بأن تحلم بأحد والديك في المنام في خلال أسبوع ، السعر: ٣٠٠ جنيه للكبسولة الواحدة..

– صندوق عتيق مهترئ به مجموعة من (الكراكيب) عديمة النفع كانت ملكًا لأمك، ونسيت أنت كل شيء عنها منذ زمن.. السعر: ٢٠٠٠ جنيه فقط..

ملحوظة: عروض الشركة خاصة فقط بمن فقدوا والديهم، فإن شركتنا تعلم أنهم فقط من سيقدّرون بضائعنا..!

من جديد: بِرّهما قبل أن تندم..!

رئيس أركان العجز

تتنافس الدول على تنظيم المونديال، لأسباب كثيرة لعل من أكبرها الانتعاش الاقتصادي [السياحي غالبًا]، مثلًا دخل البرازيل من مونديال ٢٠١٤ –آخر مونديال تم تنظيمه حتى وقت كتابة الكتاب- حوالي ١١ مليار دولار من ٦٠٠ ألف سائح خارجي، و٣ ملايين سائح داخلي، فرصة العمر هي إذًا بالنسبة للبرازيل..

لكن السعودية مثلًا ولأنها تمتاز بميزة دائمة وهي البيت الحرام، يبلغ عائدها المادي من رحلات الحج والعمرة في عام واحد فقط حوالي ١٦,٥ مليار دولار، من ١٢ مليون زائر في العام، وهذا كل عام بالمناسبة.. هذا غير دخلها من النفط، وهو حوالي ٣٣٦ مليار دولار في عام واحد فقط، يعني تقريبًا تريليون ريال وأكثر.. وماذا عن مستقبلها الاقتصادي؟ تملك واحدًا من أكبر احتياطي النفط في العالم، بالإضافة إلى كميات كبيرة من اليورانيوم حتى يستمر اقتصادها على خير حين يتحول العالم إلى الطاقة النووية..

ذكرتُ هذا لمعرفة ماذا فعلته دعوة إبراهيم عليه السلام لما قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.. فقد كانت مكة وما حولها واديًا قحطًا لا زرع فيها ولا ثمر، ولكن الله أجاب دعوة عبده فساق إليها أموال وثمرات العالم كله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾..

هذه آثار دعوة واحدة..! من ذا الذي يعجز عن دعوة واحدة..؟!

عندما تجد المُقعَد على كرسيه المتحرك يجاهد كي يصل إلى قلم أوقعه على الأرض، ولا يستطيع، بينما أنت تفكر أن القلم قريب منه جدًا، وبينه وبين ذراعه ذراع، ومع ذلك لا يقدر على الوصول له، حينها تفطن إلى معنى من معاني العجز..! ليس العجز أن تعجز عن الوصول للشمس، ولكن أن تعجز عن الوصول لشيءٍ يسير عليك جدًا أن تصل إليه.

وحين تجد من له ابن قد أسرته حفنة من (البودرة)، ويشعر أن فلذة كبده الذي هو رأس ماله في هذه الحياة والذي أنفق ما مضى من عمره في صناعته، يضيع من بين يديه، حينها تدرك معنى آخر من معاني العجز..! ليس العجز أن تعجز عن شيء قليل الأهمية والقيمة بالنسبة لك، ولكن العجز فعلًا أن تعجز عن قمة أولوياتك وأقصى أمانيك.

وبينما تراقب رضيعًا صغيرًا يبكي بسبب ذبابة تقف على حاجبه، وتأبى أن تتركه ينام في سلام، بينما تلويحة يسيرة بيدك تكفي لإراحته من همّه، حينها تقف على معنى آخر من معاني العجز..! فليس العجز هو أن تعجز عن رفع الأطنان، ولكن أن تعجز عن شيء يحتاج منك إلى أقل الجهد وأيسر القوى.

فلو جمعت ماسبق من تلك المعاني الثلاثة، لعلمتَ أن أعجز الناس من يعجز عن شيء قد ضمن الله له نتائجه، فصار يسيرًا جدًا عليه تحقيقه.. من يعجز عن شيء يحقق به كل آماله وأولوياته في الحياة الدنيا وفي الآخرة.. من يعجز عن شيء لا يحتاج منه إلا لثوانٍ قليلة، وقلبٍ مخلص، وتمتمة لسان..!

أو كما قال النبي ﷺ: "أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ"..!

الملاريا وأنيميا الفول

الأزمة الاقتصادية الراهنة هي عدو الشخص القلوق بطبعه مثلي..! أسير في الشارع أتأمل في عدد المحلات التجارية المفتوحة تنافس بعضها البعض، والأطباء الذين يتخرج منهم كل عام الآلاف ليحاولوا حشر أنفسهم وسط الأطباء القدامى بعياداتهم الجديدة..! أقول في نفسي: ومن يضمن لكل هؤلاء النجاح..؟!

المنافسات دائمًا تقلقني، والمثير للسخرية أن الحياة الدنيا كلها منافسات، الموارد تبدو من حولنا محدودة للغاية، القليل من فرص العمل في الدولة المتسوّلة أصلًا، القليل من الأخلاء الأوفياء، القليل من شركاء الحياة لطيفي المعشر صالحي الديانة.. القليل من الفرص، تعني غالبًا الكثير من الحسرات..!

ولكن مما علمني الطب أن هذا القلق لا مبرر له..! فخلايا جسدك لا تعيش على هذا التنافس المقلق، فكل ما تحتاجه تحصل عليه تمامًا.. لديك مثلًا مريض أنيميا الفول الذي يملك نقصًا في إنزيم (مختزل الجلوكوز سادسي الفوسفات) G6PD والذي لا يمكنه بسبب ذلك أن يتناول أي عوامل مؤكسدة.. ولكن من ضمن العوامل المؤكسدة هي الأدوية المضادة للملاريا، فماذا سيحدث لو أصيب هذا المريض بالملاريا؟! الحقيقة أنه لا داعي للقلق لأن دودة الملاريا لا يمكنها النجاة في جسد العائل بدون دورة أيضية معينة تدعى: Pentose Shunt والتي لا تتم بدون إنزيم G6PD نفسه..! أي أن دودة الملاريا تدخل إلى جسد ذلك الذي لا يستطيع تناول علاجها فتموت من تلقاء نفسها..!

هرمون الكالسيتونين Calcitonin يضمن لكل عظمة في جسدك ألا تُظلَم وتُسلَب ما تحتاجه من الكالسيوم.. والقُطر المناسب للأنابيب الطحالية Splenic Tubercles يحافظ على حق خلايا الدم صغيرة السن الشابة في الحياة، فلا تتكسر إلا الخلايا العجوز ذات الأربعة أشهر من العمر.. بينما لا يمكن أن تتذمّر خلايا مخك من كثرة الأعباء لأنها الأوفر حظًا بحصولها على خمس الدورة الدموية بالكامل..

هذا هو عدل الله عز وجل وإنصافه.. فلا يوجد داعي للقلق..!

ولكن هل شعرت يومًا بشعور المدلل، حين يكرمه أحدهم بأكثر ما يحتاج، أكثر من الحد الذي يتوقف عنده قلقه، يتخطاه إلى ذلك الحد الذي يجعله في أمان واطمئنان كامليْن..! إن كبدك الذي يعمل بـ ٢٠٪ من طاقته، ويراقب في كل يوم مخزونه الاحتياطي رباعي الأخماس، يشعر بهذا التدليل..! كليتاك التي تعمل بدلال واسترخاء وهي تعلم أن نصف كلية واحدة قادرة على الوفاء باحتياجاتك، تشعر بهذا التدليل..!

سُئِلَ عليٌّ رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ فقال: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضّل.. نعم عدل الله رائع، وأروع منه حين تذوق إحسانه..! لما يتفضل عليك بأكثر من حاجتك، لما تصيبك عطاياه دون أن تحتسب، لما تُفاجأ بخيراتٍ إضافية، بينما أنت مازلت في خيراته القديمة..!

فلا أقلّ من أن نحاول أن نقوم بالمثل في عبادتنا ومعاملاتنا مع الناس، ألا نتوقف عند ما أوجبه الله علينا، ونتخطاه إلى الإحسان..! ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾..

عدني ألا تنسى

بكاء الطفل الرضيع أمر يبعث على القلق والتوتر ويثير العاطفة بشدة، أنت لا تحب لهذا الكائن اللطيف أن يتألم.. وبرغم ذلك فإن بكاءه من ألذ ما قد تسمعه في لحظة الولادة، حين يصافح بوجهه الصغير دنيانا الأصغر منه ، وحين يبدأ بأنفاس متلاحقة وصرخات مرتابة رحلة حياته الأشد تلاحقًا وارتيابًا.. بكاؤه في تلك اللحظات هو الطبيعة التي لا طبيعة غيرها، ونزوله من الرحم هادئًا يدل على مشكلة في تنفسه..!

ومنظر الدماء أمر مخيف ويثير في النفس الرهبة والارتياع، ولكن حدثني ماذا سيكون شعورك لو جرحت إصبعك جرحًا غائرًا ثم لم تر نقطة واحدة من الدماء..؟ حينها سيكون الأمر أشد رهبة وخوفًا بما لا يقاس.. من المفترض أن تنزل الدماء وإلا كان هذا معناه خلل غير طبيعي في شعيراتك الدموية أو صفائحك البلازمية..!

والألم الحارق المستفز الذي يعكر مزاج يومك بعدما تخطو بقدمك على مسمار صغير مشاكس هو الأصل.. لو لم تشعر بهذا الألم لكان هذا خبرًا مزعجًا يتمثل أنك في مرحلة متقدمة من مرض السكر أو أنك مصاب بالجذام مثلًا لا قدر الله..!

في سنن الحياة القدرية نتفهم وندرك أن أذى الألم قد يعني أحيانا شذى الأمل، وأنه بالعناء قد يقوى الرجاء، وأننا قد نستدل على قدوم اليسر بما نلاقيه من العسر، وأننا قد نحسب الشر في حادثة قدرها الله للخير، وأننا لا نعلم شيئًا إلا ما يرينا الله إياه، وأنه ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾..

سنن الحياة القدرية تخبرنا أن علينا ألا نتوقف مع صورة الألم الظاهرية وننسى الرحمة المختبئة بداخله، تخبرنا أن علينا أن ننصت جيدًا لصوت العِبرة المصاحب لأصوات عَبَراتنا، تخبرنا أن علينا ألا ننسى أن كل هذا قد أُنزِل بعلم الله. فعدني ألا تنسى هذا..!

هل تذكر يا صاحبي يوم كذا وكذا حين استيأست؟ حين ظننت أن هذا على الأرجح آخر يوم تريده من الحياة؟ حين كنت تتساءل في تعجب: وهل سيأتي علي يوم أبتسم فيه من جديد؟ حين كنت ترمق كل من يطمئنك بأن الغمة سوف تنكشف بنظرات الكراهية والتكذيب؟ أتذكر هذه الأيام؟ لقد انتهت يا صاحبي، عدني ألا تنسى هذا..!

عدني بالله عليك..! عدني أن تكون عادلًا مُنصفًا شاكرًا حافظًا لجميل صنع الله فيك، عدني أنك لن تكون صاحب ذاكرة متحيزة ناقمة لا يعلق بها إلا مواضع الألم والحزن وتطرد منها عامدًا كل شيء لطيف .. عدني ألا تتذكر المرات التي دعوت الله فيها فلم تجد الإجابة العاجلة وتنسى كل تلك المرات التي وجدت إجابة دعائك أسرع مما ظننت.. عدني ألا تنظر إلى من حولك نظرة من يقول: يا ليتني كنت مثلهم، ثم لا تنصت السمع لأصوات نظراتهم المصوبة إلى بعض نعمك الخفية وهم يقولون: ويا ليتنا كنا مثله..

مثلما قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّه﴾..

فحين تأتيك البشرى بعد الإياس، فعليك أن تنظر حينها إلى آثار رحمة الله ..

عدني يا صاحبي ألا تنسى أنك رأيت يومًا آثار رحمة الله..!

عنق أنبوبة الاختبار

منذ أن كنّا في الثانوية العامة ونحن نقنع أنفسنا أن القادم أفضل وأننا الآن في عنق الزجاجة، ثم كبرنا وأدركنا كما يقول د. أحمد خالد توفيق أن هذه أنبوبة اختبار وليست زجاجة أبدًا..! فأنت بعد الليالي الطويلة في الاستذكار الجاد تدخل الكلية التي تريدها أخيرًا، فتراقب الأيام الباقية على الخلاص منها، وبعد أن تنتهي منها بالفعل تفاجئك فترة الامتياز، وهي أولى خطوات دخولك إلى عالم العمل الحكومي الرحب، حيث تكتشف حقيقة أن (إمضاء الحضور والانصراف) هو ليس فعلًا يُقام به ولكن مكان يُذهَب إليه..!

إحساسك بذاتك مفقود تمامًا حيث تقوم في عز البرد لا للعمل ولكن لوضع توقيعك التعيس في ورقة أتعس أمام عيني موظف مكتئب..! محاولًا ألا تتقيأ وأنت تشمّ في الصباح رائحة طهي (الكبد) الشريرة القادمة من كافيتريا المستشفى.. لماذا يسمحون لأناس يأكلون شطائر الكبد في التاسعة صباحًا بالدخول لحرم المستشفى..؟!

بعدها تبدأ فترة (التكليف الإجباري) في الوحدة الصحية التي تذهب فيها إلى عملك راكبًا حمارة صغيرة متسخة..! ثم تبدأ في التدرّج الوظيفي وتنطلق في رحلة عملك الروتينية المملة، يتحول يومك إلى رحلة شاقة تهدف إلى الوصول للفراش ليلًا.. وعندما تصل تتساءل في تعجب عن السبب الذي قد يدفعك إلى القيام ثانيةً..؟!

تتزوج غالبًا من كائن مجهول تمامًا بالنسبة إليك، ولربما تكتشف أنه كائن مجنون كذلك، تنظر إلى الكبار نظرة رعب واستعطاف للمساعدة فيبتسمون في تشفٍّ غامض..!

تنجب طفلًا صغيرًا تحبه في البداية، سرعان ما ترجع عن رأيك حين يكبر قليلًا ويتحول إلى آلة محطمة لكل ما هو جميل في الحياة بصوت صراخه المزعج.. وبعد أن يكبر أكثر يجعلك تمر معه بكل الأطوار التي كرهتها في حياتك ثانيةً: المدرسة ثم جحيم الثانوية ثم الكلية والعمل والزواج.. وعندما يستقل أبناؤك بحياتهم، تكون هي اللحظة التي تفر فيها من متاعب الحياة لتقع في أحضان سرطان البروستاتا وضيق الشرايين التاجيّة..!

أنت قد اخترت لنفسك عذابها لو كنت تنوي أن تكون هذه هي حياتك..! مجموعة من المراحل المؤلمة التي تنتظر نهايتها، تعيش في بحث مستمر عمّا يكفل لك المزيد من العيش، وكأنك في حلقة مفرغة ودائرة لا نهائية.

بينما الله عز وجل قد دعانا أن نكون أكثر عقلانيّة، أن ندرك أننا أتينا لهدف أعظم من ذلك.. وأنه ليس لأحدنا من هذه الدنيا إلا ما أكل فأفنى، ولَبِسَ فأبلى، وتصدق فأبقى.. وأن تكون في الدنيا كعابر سبيل يوشك أن يرحل عنها، وأنه لا عيش إلا عيش الآخرة، وأنه من أرادها وسعى لها سعيها وهو مؤمن فالله يحييه حياةً طيبة سعيدة ويوم القيامة هو أسعد، وأنه من كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا..!

هذان خياران غير متكافئيْن إطلاقًا، فالدنيا التي نحيا فيها سريعة الفناء والتحوّل والتغيّر، وهي قطعًا لا تستحق..! مثلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾..!

الثقة في عقل سيد شحاتة

أتعلمون..؟

أفكر في أننا نثق في أمور غريبة لا تستحق الثقة ..!

نثق في ذاكرة ذلك الطبيب الباطني أن يتذكر معلومات طبية لربما لم يمرّ عليها منذ عدة سنوات.. أن يتذكر العلاج المناسب لحالتنا وألا يختلط في ذهنه بـ"سيانيد البوتاسيوم" على سبيل السهو..

قد كانت ذاكرته وخبرته العلمية وتعابير وجهه التي تدل على منتهى الحكمة والرضا الكامل عن النفس يكفون من وجهة نظرنا أن نسلّم له مستقبل غدتنا الدرقيّة ..!

نثق بعدها في خطه الذي يشبه تعاويذ سحرة الويكا بأن يقرأه بشكل صحيح ذلك الصيدلي.. ولربما لم يكن الصيدلي موجودًا واعتمد على "سيد شحاتة" العامل الشاب الذي يفكر في زواجه وأمه المريضة وصاحبه "متولي" الذي يدينه بعدة مئات من الجنيهات.. ومن جديد نحن نسلّم مستقبل كِليتنا إلى عقل "سيد شحاتة" وقدرته على التركيز..!

نثق في محركات الطائرة الاثنين وهي تطير بنا على ارتفاع عدة كيلومترات فوق سطح البحر.. لو قرر أحدهما أن يداعبنا بماس كهربائي لوجدنا أنفسنا نتعرّف على الذبحة القلبية في عز شبابنا حتى لو نجت الطائرة بعد ذلك ..!

نثق في مكابح السيارة التي نقودها بسرعة ١٤٠ اعتمادًا على سلاسة الطريق السريع مع تأكيدات من "حسين" بأنه لا يوجد رادار..

نثق أنه في اللحظة التي سنحتاج فيها إلى ضغط المكابح أن نجد "التيل" سليمًا غير متآكل من كثرة الاستخدام، أن نجد (زيت الفرامل) في ماكنه بدون تسريب، أن نجد (ديسك الفرامل) متحملًا للاحتكاك المباشر مع الحديد..

إن مصير ذلك الحضن الغالي مع تلك الشاحنة العملاقة يعتمد على كل هذه الثقة العمياء..!

نثق في أشياء غريبة..

غير مرئية، غير ملموسة، غير واضحة، غير مُعتَمد عليها في الواقع..

ومع ذلك لو طُلِبَ من أحدنا - وجميعنا كذلك- أن يثق ولو مرةً واحدةً بأن ما يدبره الله لنا في الخفاء أفضل مما نتمناه لأنفسنا..

أن ما ينتظرنا في تلك الكواليس المخفيّة هو تقديرٌ من الجميل اللطيف..

أن الله يحب لنا الخير على عكس ما قد يبدو لنا من أول وهلة..

لو طُلِبَ من أحدنا ذلك لربما وجد صعوبة في الثقة بهذا الموعود فقط لأنه لا (يراه)..!

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾..!!

اعتذارات حقيرة

بعد أن تمت إبادة معظم السكان الأصليين لأمريكا المعروفين بالهنود الحمر، وبعد بضعة مئات من السنين، قامت حكومة الولايات المتحدة أخيرًا في ٢٠١٠ بـ (الاعتذار) عن تلك الأفعال العنيفة والتهميش والعنصرية، ولكن الحقيقة أن هذا الاعتذار جاء محشورًا في الصفحة رقم ٤٥ من مشروع قانون مكون من ٦٧ صفحة..! أظن أن الاعتذار هو أشد وقاحة من الجرائم نفسها..!

لربما كان هناك اعتذار أوقح من ذلك حيث قام اثنان برفع فيديو على الانترنت يقومان فيه بفصل رأس شخص ما، ولكن تبين بعد ذلك أنه كان الشخص الخطأ..! من ثمّ قاما بعمل فيديو آخر يعتذران فيه عن ذلك الخطأ غير المقصود، ويطلبان المسامحة والتفهم من أهل المقتول..!

غير أن هذا لا يعد شيئًا أمام اعتذار (توني بلير) الذي كان رئيس وزراء بريطانيا أيام الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، وبعد أن تسبب بقتل مليون عراقي على الأقل بسبب الحرب وتداعياتها وبناء على معلومة خاطئة ادّعوها بشأن أسلحة العراق النووية، خرج توني بلير بعدها بسنين ليعلن أنه (آسف) على ذلك.. بالمناسبة هو كان يتأسف على قتلى البريطانيين في الحرب طبعًا وليس بقية البشر لا سمح الله..

هناك نوع أكيد من الصفاقة في بعض الاعتذار، بالنسبة لي كإنسان فسأظل متذكرًا دائمًا لأشياء هي أكبر بكثير من كلمة (آسف) مهما كان صدقها البادي، هذا لا علاقة له بقلبي

الأسود، ولكن لأن مقدرتي على الغفران والتسامح محدودة كمحدودية حكمتي وجمالي وقدرتي العضلية..! لا تتعامل معي كإنسان ناقص، ثم لما تخطئ ترجو مني عفوًا كاملًا..

الحذر في معاملة الناس أمر له كبير الأهمية إذن، فأنت لا تعرف ما هو الذي سيكون أكبر من اللازم بالنسبة له..! لا تعرف ما الخطأ الذي سوف يتعدى بقيمته قمية اعتذارك اللاحق، لا تعرف How much is too much ..

من حسن الحظ أن إلهنا الذي في السماء ليس بشريًا ولا يحمل من صفاتنا المحدودة شيئًا، بالنسبة للإله لا توجد حدود للخطأ المتبوع بالتوبة لأنه لا يوجد حدود للغفران..!

إن قدرة الله على التجاوز عن السيئات غير نهائية، وكأي شيء غير نهائي (Infinity) لا نستوعبه بسهولة..

الله يقول لك بوضوح وفي عشرات الآيات القرآنية: أنا أغفر كل شيء، أنا لست كالبشر الذي تراهم حولك، فقط اعتذر عن هذا الخطأ أو ذاك، استغفرني من هذه المصيبة أو تلك، اندم على سابق أفعالك، احزن على ما سبق وفرطت فيه، اطلب مني أن أعفو عنك، سوف أفعل، سوف أسامحك، لا تقلق من محدودية مغفرتي بعد ذلك..!

أتعلمون ما المخيف والعجيب في كل ذلك؟

أننا جميعًا نعلم هذا..

فقط نحن لا نريد أن نعتذر..!

الأجزاء الصغيرة

من الصعب تحديد ما هو أبلغ ما قاله شعراء العرب، على أن معلّقة امرؤ القيس من ضمن المرشّحات لذلك بالتأكيد، تلك التي تبدأ بالبيت الشهير:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ... بسقط اللوى بين الدخول فحوْملِ...

هذا رجل قد هام حبًا بحبيبته، بمنطق: إذا كان يحفظ العنوان التفصيلي للبيت الذي كانت تسكنه، فما بالك بما هو أهم من ذلك وأعظم..؟!

يشيع هذا المنطق لدينا ويعرفه كل واحد منّا حين يقال له: (فلان يحضّر الدكتوراه في لبن العصفور).. فما دام يعرف في لبن العصفور فلا بد أنه يعرف إذن كل شيء..!

حين يحدثنا القرآن عن مثل هذه الأجزاء الصغيرة فإنه لا شك يترك المجال لخيالنا البشري –وما أوسع الخيال– لتخيّل ما أكبر منه من الأجزاء.. وما خفي كان أعظم..

مثلًا يقول الله جل جلاله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.. وهو هنا يوجّه فكرك إلى ملك الله وإحاطته بتلك الأشياء الساكنة الخفية الصغيرة في الليل، مثل دبيب أقدام النمل على رمال الصحراء، أو حفيف أوراق الشجر اليابس في غابة مهملة على حدود سيبريا..

فما بالك بإحاطته بما يتحرك في وضح النهار، بما هو أظهر لأعيننا ووعينا..؟!

ويقول الله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.. حينها لا تتساءل عمّا هو أكبر من ذلك، تقلبات الأمم، ونزوات الأفراد، وغلبات الشهوات، وتضرعات الليل.. كل ذلك كان أظهر وأسهل في أن يعلمه الله عز وجل من علمه لتلك الثمرات التي تخرج من قشرتها..

وفي مجال الإنعام والفضل والتكرّم من الخالق، فحين تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.. تفكر في كرم الله سبحانه وتعالى الذي يذكرك بفضله في خلق هذا النبات البسيط وتلك الفاكهة الصغيرة حلوة المذاق والتي لو لم تكن موجودة لما أثّر ذلك على حياتك المادية ولا وجودك في شيء.. ولكن منّ الله عليك بها لأنه هو الأكرم الذي يعطي بسبب وبلا سبب، يعطي من يستحق ومن لا يستحق، يعطيك ما تحتاجه وما لا تحتاجه..! حينها تتذكر كرم الله عز وجل في ما هو أكبر من التين ومن الزيتون.. وهذا كثير لا يحصى..!

أجزاء صغيرة ذكرك الله عز وجل بها في ما يتعلق بصفاته، حلمه وعلمه وقدرته وإحاطته وملكه وكرمه ورحمته، كل هذه الصفات العلى لا تُكال عند الله عز وجل بالمكاييل الضخمة المضيّعة للمواقف الصغيرة..! ولكن تُكال بالذرة..! ينبهك القرآن إلى أنك سوف ترى في حياتك ربوبية الله عز وجل في الأجزاء الصغيرة لتنظر إلى الصورة الأكبر والأشمل من باب الأولى، حينها يصل لك الجواب في نفسك بشكل أضخم بكثير مما قيل في اللفظ بالفعل..! وتصل إلى الجواب عن تساؤلاتك بشكل أوضح مما كان يبدو ظاهرًا على هذه الآية أو تلك..!

نَسَب الجبن الرومي

في أحد المطاعم الفاخرة طلبت طبقًا بسيطًا من حساء العدس ، فأشار لي النادل إلى قدر عدس عملاق في جانب المطعم حيث من المفترض أن أساعد نفسي بنفسي وأذهب إليه لأغترف منه ما أريد، هذه من التغيرات الحضارية الأخيرة، صار من الرقيّ أن تقوم لتحضر طبقك و (تهلهط) منه على نفسك وأنت سائر به..! أين العصر الفكتوري الجميل الذي كان النادل فيه يساعدك على الجلوس وهو يؤكد لك أنها (سعيدة مبارك)..؟!

بنفس الطريقة أيضًا اخترع الإنسان الحديث رحلات (سافاري)، دعنا نستمتع قليلًا بتسلق الجبل وركوب الجمل، ونقطف بعض التوت البرّي ونصطاد الأسماك..! دعنا نتجاهل حقيقة أن السبب الوحيد الذي يجعلنا نستمتع بهذا هو أننا اشتقنا إلى الحياة البدائية التي حجبناها نحن عن أنفسنا بكل هذه المربعات الخرسانية.

عملية التمدّن هذه ساعدتنا كثيرًا ولكنها آذتنا بأن أخفت عنا أصول كل شيء، حتى صار عليك من العسير أن تتذكر بأن حياتك بأكملها تعتمد على قطرات الماء المتساقطة..!

فسواء كنت تشرب ماءك من صنبور بيتكم أو كنت تشربه من زجاجة مياه معدنية، ففي كل الأحوال أنت لا تشرب إلا ماء المطر..! فمنبع نهر النيل عبارة عن بحيرة فيكتوريا العملاقة التي تتكون من الأمطار الاستوائية الغزيرة، وبنفس الطريقة التي ينبع بها نهر الأمازون من الأمطار المتساقطة على جبال الإنديز.. وتدّعي شركات المياه المعدنية أنها استخلصت ماءها من الآبار العميقة وليس من (الترعة) أمام مصنعهم، وعلى فرض أننا

صدقناهم فمياه الآبار أيضًا ليست إلا تجمعات الأمطار التي تساقطت فوق حيوان الماموث من آلاف السنين..!

أنت تشتري عشاءك من البقالة في صورة معلبات الفول والجبن الرومي وشرائح البطاطس، ولكنك لم تكن لتنعم بهذا العشاء لولا المطر الذي أنبت البطاطس والفول والعشب الذي تغذت عليه أنثى البقر التي تأكل لبنها في صورة قطعة جبن رومية صفراء.

ماء المطر مسئول أيضًا عن قميصك الذي تلبسه وسواء كان من الكتّان المزروع أو من الصوف المأخوذ من خروف لم يكن ليحيا لولاه.. وعن الخشب الذي يكوّن أجزاء سريرك أو مقعدك الذي تجلس عليه الآن.. بل وحتى عن الوقود الذي يملأ خزان سيارتك، فما هو إلا زواحف عملاقة مدفونة منذ ملايين السنين كانت في شبابها أيضًا تحيا بماء المطر..!

إنها القوة التي أودعها الله عز وجل في قطراتٍ بسيطة وأخبرنا عن هذا السر العجيب: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.. إنه الخيط الذي يربط عرائس الماريونيت المغرورة التي تدعي أنها كائنات ذكيّة قادرة على غزو الكون.. إنه دليل الرحمة الذي لم يقطعه الله عنا منذ خلقنا برغم كل ما نقوم به من إمعان في الفساد في الأرض.. إنه برهان الفقر والضعف، إنه دليل العجز والحاجة، إنه التذكير لنا بأننا وبرغم شهادات الـ MIT ومصانع طوكيو وناطحات سحاب دبيّ، سنظل دائمًا في حاجة إلى إمدادات السماء التي اختص الله وحده بعلمها: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾..!

إنه الدليل على أننا لا نملك شيئًا ولكننا برغم ذلك لا نحتاج إلا لله..!

ناصية محمد البغدادي

تعلمون أن درجات شهادة الثانوية العامة تحدد الكلية التي تدخلها بعد ذلك، ومن ثمّ أصدقاؤك وعملك ولربما زواجك أيضًا.. وقد كانت درجاتي هي تقريبًا درجة كلية الطب تمامًا.. وأتذكر أنه في امتحان مادة اللغة الألمانية كان هناك سؤال اختياري MCQ حللته بأسلوب أقرب إلى الـ (حادي بادي) ثم تبيّن أن حلي كان صحيحًا ..

أي أن كل حياتي في هذه الكلية بأشخاص عرفتهم ومعلومات أثرت فيّ ومشاكل اجتذبتني ومزايا اكتسبتها، وكل حياتي بعد الكلية من طبيعة عملي وطبيعة أحلامي وطبيعة عقدي النفسية.. كل هذا كان ليتغير فقط لو أن (سيدي محمد البغدادي) أوقعته الأغنية في اختيار آخر..!

أحياناً يأخذني تفكيري إلى ما هو أبعد من هذا .. فأنا أشعر أنني موجود.. موجود بشدة..! لكن ماذا عن كل تلك المسارات التي أدت إلى التقاء أمي (من محافظة الشرقية) بأبي (من محافظة الغربية)..؟ نحن نتحدث عن خليط من الجينات من الشرق ومن الغرب حرفيًا.. ماذا لو كان قد تغير من هذه المسارات مسارٌ واحد..؟!

وماذا عن تلك المسارات الأخرى التي أدت بالتقائي بزوجتي؟ كل منا لديه حكاية طريفة لذلك، وهي تبدو طريفة فقط لأنه كان من الممكن جدًا ألا تحدث أو تتم..! وماذا عن أصدقاء عمري الذين هم فقط أصدقاء عمري لأن مساراتهم الغامضة التقت بمساراتي على مقاعد نفس الفصل المدرسي..؟!

ملايين الاختيارات العشوائية والخطوات العبثية (كما قد تبدو لنا وهي ليست كذلك) أدّت إلى تلك المجموعة المعقدة من الاحتمالات التي أدعوها مجازاً : حياتي..

حينها أتذكر قول النبي ﷺ في دعاء الهمّ والحزن لما يقول : (نَاصِيَتِي بِيَدِكَ)..!

الناصية هي مقدمة الرأس، أشرف ما بالإنسان، والله عز وجل يقودها كما يشاء ويوجه أفعالنا حيث شاء..! فلو فهمت معنى الناصية جيدًا لتوكلت على ذلك الذي يملكها حتمًا، كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾..

لهذا السبب إذن كان النبي ﷺ يتذكر مصير ناصية رأسه الذي هو بين يدي الله عز وجل لما يصاب بالهم والحزن..! ثم كان يقول ﷺ بعدها في نفس الدعاء : (مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ).. فشعورك بحتمية القدر ليس كافيًا للاطمئنان وللتسليم (السعيد) له إلا عندما تجمع إليه يقينًا بعدل ورحمة هذا القدر..!

فأخبرني إذن حين تتمتم بهذه الكلمات: " اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي ".

كيف يبقى بعدها في قلبك أي همٌّ أو حزن ؟!

كوليسيتا لونجياريولاتا

الكوليسيتا لونجياريولاتا Culiseta longiareolata هو كائن حقيقي تمامًا، وبرغم أنه يختلف عن صورة دراكيولا ذي العباءة الحمراء والأنياب البارزة إلا أنه بالفعل يعمل بشكل أساسي كمصاص دماء محترف، يتغذى على السكر الموجود في الدم ويعتمد على بروتيناته لتغذية أطفاله، ربما يكون أخطر وأذكى بكثير من دراكيولا إذ إنه شره للغاية يمتص كمية من الدماء تعادل تقريبًا حجم جسده، كما أنه مدرب على الوصول بأنيابه إلى الأوعية الدموية المباشرة للكائن الحي بعد أن يحقنه بمادة مخدرة من لعابه تجعله يستسلم تمامًا لهذه الأنياب المؤلمة..

احتمالية تعرضك لهذا الكائن المرعب أكثر مما تظن، في الواقع غالبًا قد امتص دماءك عدة مرات في هذه الليلة بالذات، إذ إننا جميعًا نعرفه باسمه الآخر: البعوضة أو الناموسة..

وبقدر ما أنا آسف لك لهذا (البلوت تويست) الرخيص الذي قمت به، والذي كان على الأرجح متوقعًا وغير بارع إلى هذا الحد، إلا أني أدعوك معي لوقوف وقفة تأمل مع هذه القصة التي توضح لنا كيف تحول كائن مخيف تمامًا في صورته واسمه اللاتيني المتحذلق وصفاته المثيرة للخيال، إلى كائن تافه للغاية لا يخاف منه أي أحد.

ثمّة رجل حكيم قال مرة: "إذا كنت ترى أنك منعدم التأثير لضآلة حجمك عليك أن تحاول أن تنام في غرفة فيها بعوضة حائمة".. وهو قول حكيم بالفعل فقط في حالة لم يكن معك مبيد حشري أو كنت لا تجيد التصويب بكفك على الموجودات.. في الحقيقة إن

البعوضة مهما بلغ إزعاجها فهي غير مؤثرة فعلًا بشكل كبير لأنها هشة صغيرة تافهة حقيرة بالنسبة إلى قوة الإنسان الحقيقية..

فقط عليك أن تنظر لها بالعين المجرّدة بدون أي عدسات ميكروسكوبية مكبّرة كي تفهم هذا..

مثلما فعل العز بن عبد السلام حين دخل على السلطان الظالم المفتري ينصحه ويزجره وينهاه فلما تعجبوا لماذا لم يخف منه، قال لهم إنه لما استشعر عظمة الله عز وجل صار السلطان في عينيه كالقط..!

لقد أزال مولانا العز -حين تذكر قوة ربه الكبير المتعال- كل العدسات الميكروسكوبية المكبّرة من أمام عينيه ونظر إلى كائن الكوليسيتا بعينه المجردة ليكتشف أنه ليس أكثر من مجرد بعوضة.. لقد فعل ما قاله الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾..

انكسارات الفشل وعبرات الحسرة وأنات المرض وعضّات الفقر وتأوهات القهر وزلات الآثام، كل هذه مجرد بعوض في حقيقته أحقر بكثير من أن ينال منا حقًا.. فقط صورته مخيفة، عضته مؤلمة، أنيابه تجيد حقًا ما تفعله فتأخذ بعضًا من دمائنا..

ولكننا سرعان ما نفطن إلى أن ما ناله منا ليس إلا شيء يسير يتناسب مع حجمه كونه مجرد بعوضة يمكنك أن تقتلها (حرفيًا) بضربة على قفاها..!